من القامشلي إلى هولير

شذرات كردية في فقه الأمكنة

إبراهيم محمود

عنوان الكتاب: من قامشلي الى هولير- شذرات كردية في فقه الأمكنة
المؤلف : ابراهيم محمود
تصميم الغلاف : محمد قادر
العدد: (98)
عدد النسخ : (500) نسخة
الطبعة: الأولى اربيل – كردستان - 2005
حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر: رابطة كاوا للثقافة الكردية
بيروت-لبنان: ص. ب. 13/5933.
كردستان العراق-اربيل-هـ: 2242843 – 2240441.

E.Mail: binkeyKawa@Hevgirtin.net
Enternet: www.Hevgirtin.net

E-Pirtûk
www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com

رقم الايداع في المكتبة الوطنية لاقليم كردستان/ العراق
(613) لسنة 2004

الفهرست

–	لتكن المقدمة إذاً!	9
–	تداعيات الأمكنة	12
–	على مشارف (الربيعة) إذاً	19
–	ألف باء (ربيعة)	23
–	استراحة انتظار الآخرين	29
–	في صحبة (الأمن النفطي)	34
–	يا شراعاً في نهر دجلة بادي	40
–	المسير المختلف	45
–	أراضٍ تنبسط أكثر	50
–	شربت من ماء كردستان	56
–	ها هي دهوك إذاً!	61
–	مساء النور في هولير	65
–	أوتيل خان زاده	70
–	الصباح المنتظر	77
–	أول الحوار، أول الصراخ - أ-	82
–	أول الحوار ، أول الصراخ - ب-	87
–	أول الحوار، أول الصراخ -ج-	93
–	أول الحوار ، أول الصراخ - د-	97
–	عزيمة في حديقة مجلس الوزراء	102
–	جبال ، أي : فُلك عائمة	107
–	في ضيافة الرمزالحي	113
–	في رحاب قلعة صلاح الدين التاريخية	118
–	منتجع الصوت الطليق	122
–	الصباح الثقيل الوطء	127
–	قلبي على الطريق	131
–	قصيدة دجلة	136

لتكن المقدمة إذاً!

(من القامشلي إلى هولير)، وأضعها هكذا بين قوسين، ثمة مسافة تم قطعها، أو حصرها، أوالتشديد عليها،إنهما حدان مكانيان، ارتبطا بزمن محسوب، ومتابعة بصرية، وتأمل ذهني، وانطباعات، أوتصورات خاصة بي، حيث المكان والزمان ليسا مجردين هنا، ليسا هندسيين، بقدرما أنهما لصيقان بزمان ومكان أعمَين أعيشهما كغيرهما، ولكن لا أحياهما كسواي، إنهما المكان والزمان اللذان يحملان أثر الكتابة الشخصية.

مسافة قطعتها في زمن لايتجاوز أياماً معدودات (خمسة أيام في حدها الأقصى)، ولكنها الأيام الممدودات والمعقودات بالتساءلات، بالدلالات المرتبطة بمن رأيت، وبما رأيت. والمنطلق : مكان إقامتي(القامشلي ، قامشلو، قامشلوكي، قامشليه..الخ)، هذه المدينة المبعثرة في منخفض أرضي كقصيدة منثورة مرهقة، لم تكتمل يفاعة، ولا اكتسبت شفاعة، بقدر ما آلمتها يبوسة الموقع، وقلق المسار، وهي لم تكن هكذا طفولة أوتكويناً، وبؤس طالع، وهي تستحق خلاف ما تجلببت به، ولهذا انفرطت عقداً فوسفورياً مطفئاً في نهايات عهدها بالتاريخ المعاصر، رغم حداثة تاريخها ولادةً وانتشاراً بأسمائها ولغاتها، والمكان المقصود للانتقال المؤقت إليه(هولير: أربيل، إربل) عروس من الجغرافية كردستانياً جهة الشمس، تلك التي شهدت تحول تواريخ، وصراع رجالاتها، وتداخل لغات عبرتها وامتلكتها أوقاتاً متفرقة، وحلول طغاة وبغاة فيها، أوابتلائها بهم(وطاغية العراق الأكبروباغيه المدحور، كان الأخيرحتى الآن).

هي ذي نقلة في المكان في أمد معلوم، تحرك فيها اللحم والدم والفكروالمتخيل والمعتقد بدوره، ولم أكن الوحيد الأوحد في عملية النقلة/ الانتقال تلك، كان معي آخرون، أو كنت معهم عرباً وكرداً، والمشدَ هو(الملتقى الثقافي الكردي العربي في اربيل مابين17-9/20-2004)، لكل منهم سريان هوى متمايز، وقد تحرك من نقطة مختلفة، ومن جهة مختلفة (قبلاً أو بعداً أو في الوقت المشابه نفسه)، لكن الانطباع مختلف، والتصور المستقبلي مختلف، والرهان المتعدد الأوجه مختلف كذلك! لكن هذا لايمنع من التحرك باتجاه واحد، رغم تنوع الطرق، حيث الاتجاه متميز برحابة أفقه، والأفق المسمى لايعود واحداً في الوعي المسمي له.

ترى ماالذي أبتغيه مما تقدم؟ ماهذا الذي يمكن إثارته بين مدينتين: إحداثيتين جغرافيتين، تاريخيتين، لكل منهما موقعها، أصواتها، بشرها، سياقها التاريخي المختلف والمتفاوت قدماً طبعاً؟ أي صوت قامشلوكي يمكن له أن يتردد بصداه على الطريق الممتد والمتعرج ، والمحفوف بالمخاطر، إلى هولير، وفي محيطها ووسطها؟ أي صورة يمكنها أن تتكون أوتتشكل في سياق التحرك وإثر الوصول إليهاوتجاوزها حيث الملتقى؟ ماهذا الذي يمكن الرجوع إليه والانطلاق منه، بين قاب قوسين أو أدنى (القامشلي وهولير)، بين (من: الانطلاق) و(إلى(الانتقال والوصول والإقامة لبعض الوقت)؟ هل يمكن البوح بكل ما يتوارد إلى الذهن من أفكار وانطباعات؟ يتوقف ذلك على مساحة الرؤية، على المدى المجدي للكلمة وهي تواجه الواقعة، وحين أقول هذا، لاأزعم أنني قادر على قول كل منتظرأو مأمول قوله، ولكن المسافة المقطوعة، بوسعها أن تتكفل بسرد الكثير مماهو ممكن قوله. حيث تتحول الكائنات بكل تفرعاتها، وانتماءاتها المكانية والقيمية إلى أدوات لي، ومسارد حكايات، وشخصيات تتجلى بصور شتى طي الورق الضوئي، لابل تغدو المسافة ذاتها الصفحة المفتوحة على آخرها، وعلى الجهات كافة، وقد استقطبت أنفاس كائناتها، وتستحيل الطريق ومشاهد اللوحات المنصوبة وأعمدة الكهرباء والهاتف وإشارات المروروالإعلانات والحجارة المتناثرة على الجهتين، وكذلك الأشجارالمبعثرة أو المنتظرة في فسحة معينة، أدلاء تاريخ حي. والبيوت المتتالية أشبه بشخصيات ناطقة، وحتى السماء بازرقاقها المنحل، والفضاء اللامتناهي يشكلان علامات محرضة على الكتابة، إذ لاشيء يمكن تنحيته جانباً، كل شيء يمكن أن يبوح بمكنون معين. لكن بالنسبة لي، تبدو الكتابة مغايرة، فأنا لاأكتب ذكريات على قارعة الطريق، ولا أدون حصيلة مشاهداتي، وكذلك لا أحيل المرئي إلى صورة كتابية فقط، فثمة نزعة حكواتية في المنحى المذكور، إنما أحاول الانتقال إلى ماهوأبعد مما تقدم، حيث كل مرئي هو عرضة للاستفهام والاستنطاق أو المساءلة، يشمل ذلك الأشخاص القريبين والبعيدين، مثلما أنا مباح

ومسموح بتناولي وفق صياغات كتابية معينة، في حيّز ثقافي سلوكي معين. إنني نزَاع إلى ملامسة الروح الخفاقة داخل المشاهد التي تترى أمامي، سعيي الدؤوب هوهذا الانهمام بماوراء صمت المادي، وقد تشخص هنا وهناك، ولعل الأيام المعدودات التي أمضيتها كفيلة، بالنسبة لي، لاستشراف رؤى، لاستكمال لعبة الكتابة الخطرة، داخل متاهة الحرف، ومتعة التصورأحياناً، ومشاركة الذين برزواكما لوأنهم مفاجآتيون، وأمسى الوقت نفسه مشخصاً بثوانيه ودقائقه ولحظاته رفقة أشخاص لم يخطروا بالبال، وإذا بهم ملء العين، إذا بالصورة الملتقطة تحيل فسحة مكانية وزمانية إلى مشهد حركي في أرشيف الذاكرة، وفي الوقت نفسه إلى كلمات تتوزع جملاً ذات معنى للقارىء، تتصيد مواقف، وتختلس مشاهد محددة اختلاساً.

هل بدأ الأدب هنا؟ ليس الوضع كذلك، فثمة الكثير سوف يثار لاحقاً، عبر العين الراصدة والأذن المصغية والموقف المتجلي، من خلال حلقات متسلسلة، لاأستطيع تحديدها بالتأكيد. ولعل المكتوب يضاف إلى بعض ما أثرت في أعمال سابقة لي، ولكن الصياغة مختلفة، كون الذين رافقتهم، والذين التقيت بهم، والذين جاورتهم، والذين تجاذبت وإياهم أطراف أحاديث معينة، ودخلنا في حوار غير منتظر، إضافة إلى النشاطات الرئيسة التي تهيأنا لها، ولأجلها شددنا الرحال...الخ، يشكلون عالماً لايخلو من جدة وطرافة في تدشين الحلقات. أهو كتاب منتظر إذاً؟ لاأقول هذا ، ولاأسميه، مادمت في البداية، وإذا كان هذا طي المجهول، فلأن القادم من الأيام هو الذي ينبىء بذلك، إذ المهم، هوأن الحلقات التي ستبرز ضوئية، ستفصح عن مشاهدات كثيرة يشاركني فيها كثيرون، ولكن الرؤية مختلفة، كما هو الحوار بأطرافه، أو كما كان الملتقى بأطيافه، فثمة الكثير الذي لم أتمكن من قوله، لأن الوقت كان الحاسم في ذلك، وسط حشد المدعوين، وكان من المستحيل قوله، لأن ماترتب على المشاهدات تلك، يشكل تحريضاً للكتابة المتسلسلة. ثمة حوار من نوع مختلف، ثمة أشخاص كائنون، مقيمون في الحيّز الكتابي المتتالي هذه، ثمة أسماء لاتذكر، كون المواقف المرسومة هي الضامنة لذكرأصحابها، كون التلميح يفي بالغرض، ثمة علامات استفهام تطال أشخاصاً اعتباريين ربما، تجلوسلوكات فيهم، ثمة أسماء حقيقية، تعتبرالنزيلة الرمزية في مبنى كتابتي هذه، ثمة مواجهات مع أمكنة تحتفظ بآثار تستفز الذاكرة، متلفزة، مع صورلاتهدأ بدلالاتها، مع شخصيات، تشكل تاريخاً ليس بالامكان تجاهله... هل من (فضائح كتابية)؟ سؤال أطرحه، لأن ثمة من يترقب مثل هذا الجانب! وجوابي، ليس المثارفضائحياً، بقدر ما تشكل المواقف المرصودة من منظور وعي الذات الانتمائية إلى المكان والتاريخ الذي نعرف به: قريباً وبعيداً، الدائرة الأوسع، فالكتابة إن لم تكن محكاً ، لاقيمة مبئية لها، إن فيها بعضاً أثيراً من كرديتي متداخلة مع سوريتي، والاثنتان في حواروتحاورلايتوقفان، وبعضاً أثيراً من انتمائي المكاني والانساني خلالهما، لاأستطيع تسميته، وليس من حقي المباشر أن أسميه، فهذا شأن من شؤون القارىء، والقراء كثيرون عدداً.

(من القامشلي إلى هولير) حقيقة مشاهدات خاصة بي، أريد نثرها باسم شاهد أمكنة بمتضمناتها المختلفة.

1- تداعيات الأمكنة

أن يتهيأ المرء للخروج إلى مكان غير مألوف، يشكل هاجساً تحيط به الأسئلة، وتصورات القلق التي يصعب سبرها، يبقي تفكيره مشغولاً بالمكان الذي يستعد للانطلاقة منه، وهنا يكون النظر إلى المكان مغايراً: طبيعة مكونات وصور أشخاص بغض النظر عمَن يكونون، وتداخل وجوه، مختلفاً في مستدركاته.

كنا مجموعة، التقينا في كراج القامشلي، ذلك الذي يتكىء إلى مدخل حي العنترية من جهة الغرب حي (العنترية) الطريف باسمه، فهو حي كردي بامتياز بخصوص سكانه، ولارابطة البتة بين عنترة(العبسي)العربي هذا، الذي ينتمي إلى عصر الجاهلية العربية، ذلك الفارس المغواروالشاعرالمتماهي مع صليل سيفه، كما تقول حكايته الشعبية، والذين سكنوا الحي، إلا من ناحية رمزية، إنه استعارة مكانية، فهم عرفوه بقوته أو فروسيته وغبنه من قبل بني قومه بالذات، وربما كان للاسم المقتبس هذا ، علاقة غير مباشرة، بوضع الساكنين في الحي المذكور، والذين لا يعرفون في ما يخصه من جهة الاسم، إلا تلك الريح

الهوجاء المباغتة التي تحمل اسمه في الصيف أحياناً(ريح عنترةbayê Enter) دون أن يعرفوا التفاصيل، ولعل ذلك عائد، ربما، إلى مأزق عالق في ذاكرتهم، يوحدهم معه، في هم مشترك انسانياً كما أعتقد. الكراج لايبدو عليه مأخوذاً بالتناسب مع المكان، من جهة البولمانات التي ترتاده، أو تؤمه وتخرج منه، وهي مرتبطة بمكاتب مسجلة باسمهاغالباً، من الجهة الجنوبية، بينما من الجهة الشمالية، تتقاطر إليه، وعبرمدخل خاص بها الفوكسات التي تتحرك إلى عدة جهات في محافظة الحسكة(Hisiça) .

الكراج يتبدى منشطراً إلى قسمين، ولكن الحركة الدؤوب لسيارات الركاب الكبيرة التي أغرت الأهالي بمنظرها من ناحية جدتها بداية استقدامها، وكذلك الفوكسات بدورها، فقدت بعد حين ذلك الإغراء الذي يتلبس الجديد القادم إلى المحافظة، فالرونق يشكل خدعة مرافقة لماهو تقني، مثلما هو الكراج الذي أعطى فكرة للناظر إليه أنه بوسعه استقبال واستيعاب حركة الركاب: تدفقاً إلى الداخل، وانبثاقاً مضغوطاً عليه إلى الخارج، حيث لم يكن كذلك، فهو أصغر مما هي عليه متطلبات المدينة التي تشكلت بحسب الاحتياجات المكانية، ثم روعي طلبها على مضض، ولكن دون تمحيص، ثم انبسطت في المكان، متداعية ببيوتها ذات الطرز المختلفة، لكن الأقرب إلى ماهو ميداني، إسعافي، وتجلت في امتدادها وانتشارها اللامنتظمين هندسياً في مشهد احتضاري، ملخصة بوضعها مصيرها الذي آلت إليه، غير مرغوب فيه، منبوذة باسمها، مثلما هي مرمية كما لو أن سلة مهملات، أو حاوية تضم سقط المتاع، وقد قذف بما فيها من عل، بسرعة لافتة، كما لوأن الذين ينتمون إليها في الأصل، وتعرف بأسمائهم، مطروحون في مناقصة أمكنة، وليس مزايدة، تعبيراً عن رثاثتها، وهي حديثة التكوين باسمها، مقارنة بمدن أخرى، تتجدد باسم الذين تعرف بهم.

هأنذا أتهيأ لركوب الحافلة الصغيرة(الفوكس)، تلك التي تستوعب دزينة من الركاب، إلى جانب آخرين، مدعوين، لحضور الملتقى الثقافي الكردي العربي، في مدينة هوليرالكردستانية، واسم النشاط، وهو اسم المدينة غير المأخوذ بهماإلا بوصفهما طارئين، ناتئين، ناشزين نشازالتاريخ المتحول القسري، في جغرافيا تنفتح على توجهات مضادة بدورهالماهو سائدفي المجمل، حيث لاالملتقى مفصح عنه بصورة رسمية من خلال طرفيه اللذين يبدوان متناظرين، يستشرف كل منهما عالم الآخروفق عقد إنسي جديد، إذ أننا في توجهنا شرقاً، وخارج الحدود المرسومة، وبشكل أكثر دقة، خارج المسارالمعلن عنه رسمياً، بعيداً عن الإملاءات المتداولة، شكلنا مجموعة غامرت بأسمائها وبالجهة التي ارتأتها مغامرة معرفة، ومغامرة بحث عن علاقات توسّع في معنى المكان وقاطنيه، وطبيعة الجهات الجغرافية، دون الاستعانة ببوصلة ذوي الشأن في المضمارذاك، ولااسم المدينة في صفتها الملحقة، مأخوذ به إلا باعتباره فرضاً"خارجياً" نوعاً ما وليس اعترافاً قيمياً، وقبولاً بتاريخ مشترك لامفر من تقاسمه، وتوزع أسهمه الحقبية في محيط جغرافية حافل بالترددات الصوتية للغات لها عراقتهاوسموها في باطن الأرض، كما تقول أركيولوجيا التلال المقروءة وتلك المطمورة، وتلك المحروسة، وتلك الجاري التكتم عليها، لأنها تشي بخلاف ماهو معلن عنه هناوهناك، ولهذا يحق للمقيم في المكان البليغ في تاريخه المدفون، أن يشهد دون تردد على وساعة التاريخ، بطبقاته الأرضين السبع، وسط جغرافيا تميط اللثام باضطراد عن مكنوناتها التي تثري تاريخ المنطقة، حيث لاتعود القامشلي/ قامشلي / قامشلو/ قامشليييه، حديثة العهد بتاريخ بالكاد يعترف به من بعض جهاته، وإنما سليلة مدن، نزيلة صمت تواريخ مترجمة بسرية تامة.

ويبدو الخروج من الكراج فعلاً رمزياً، يتخذ منحى مغايراً لكل الحالات السابقة، لكأن الجهة المقصودة، وحرفية الممكن قوله في ظلها، هي التي تلزم الذاكرة بهذا التكثيف في تداعي الصوروتسارعها الملحوظين.

لكأن الجهات تقاطرت على ذهني، وتشابكت، متحاورة، متناورة، مفصحة عن حساسية المكان بدورها، وبرزت في الإطار المذكور، حيث المدينة مولعّة بتركيباتها الاسمية، كون صياغة النهايات الملحقة بالاسم تجذّرتواريخ غير آمنة، مدينة تتهادى من فرط حساسية الاسم، الاسم السريع التقصف والانكسارواليباس والتفتت والانذرار، كما هوالمعنى المتعددــ(القاميش : القصب Zil)، كما لو أنها مقحمة في التاريخ، ومنذورة لمكان غير ممضي عليه كتكوين مدني، تتراوح نازفة أحياءها وأمداءها وأصداءها القريبة المدى والبعيدة الصدى، ما بين عراقة قامشلو: الاسم الذي يخشى جانبه، وشبه المحظور تداوله رسمياً طي الكتب

الرسمية والصحافة الرسمية، والإعلام الرسمي، والمنابر الرسمية، كما أكدت وقائعها وفجائعها المعاشة حتى الآن، وقامشلي، التي تبدو قي قيافتها النحتية مطلوبة، متداولة رسمياً، لتؤكد مفارقة الحرف الواحد حساسية اللفظ والتهجئة، وفانتازيا المكان اللامكان، لكأن الجمع القابض على أول الحروف الأبجدية وآخر الحروف الأبجدية(الألف- الياء) في (القامشلي) هو الجمع الغفيرضادياً، رغم أن الاسم في الأصل لاعلاقه له بالسياسة الأمنية والوقائية والردعية للضاد(الحرف الذي يلخص أبجدية كاملة باستعلاء يستحوذ على الاسم القادم من خارج تكوينه)، ورغم أنني استخدم الاسم هذا، كما هو العنوان، بعيداً عن وصاية التشكيل التوليفي والتحريفي للمعنى والمبنى، ولكأن المهجَى بين الحرف الأول الذي أحيل إلى دائرة الهجرة والجوازات الخاصة للتدقيق في مدى صلاحية الاسم، وهو (ق) بوصفه خرقاًللنظام الخاص بالمصوَت في الحرف الأول، خلاف الصارخ والمتحشرج علامة واقعته المعلنة في(ق)، والحرف الأخيرالذي يستبق حدث بناء الحروف وتتابعها، ويلغي النهاية المعقودة رسمياً، تلك النهاية الموغلة بدورها وفق اعتبارلم يحدد صراحةً فقهياً في المصوت، أي (ي: ياء)، رغم أن (و: واو) بدورها مشهود لها بالمد الصوتي، ولكن الفارق، كما يلاحظ، هوفي نهاية اسم قيّض له أن يسجَى ضادياً، وليس في نهاية اسم يزجى عبر علامة استغراب(وواوو) وبدا الجمع العارض وفق فضيلة الاستحواذ على الأسماء، حتى وهي أعجمية، إخلالاً بالمكان الموسوم رسمياً. وبين حرف مأخوذ بالتعجب هو الياء ، وآخرمأخوذ بالاستغراب هو الواو، تظهر المدينة المأخوذة بنهايتها(السفلى) بدورها، مقيمة بين الارتجال اللامعترف به والترحيل والارتحال في المعنى المقحم عليها، من باب تحوير المكان نفسه، وجعله هباء منثوراً دلالةً.

البنايات الطابقية جنوباً، وهي تلاصق المنطقة الصناعية، بنوع من التآلف غير المعهود، كما هو المكان المنقسم على نفسه، كما هي الفوضى التي تفضي إلى حقيقة صارخة تتعلق بالمدينة، التي خطّط لها ، كما يبدو، على عجل(رغم أن القابلة"الهندسية" في الأصل المولد، لم تكن تنتمي إليها)، أو هكذا قيّض لها أن تكون ليس أكثر. فالمنطقة الصناعية اسم ابتكر مكاناً، في تاريخ مستحدث، تحقيقاً لعلاوات، لاعلاقة لها بهندسة المدن، وكيفية توزيع أصحاب المهن، وعلاقتها بالمدينة من ناحية الصحة والنظافة، وتجلت البيوت الطابقية، ذات واجهات منصوبة مفقوءة، وقد ابتلعت أهليها، حيث لاتوحي براحة مفترضة، كل ذلك تقافز إلى ذهني، وأناأستشعر وضعاً نفسياً مختلفاً، لكأن المكان في وضعي ذاك، كشف لي، عما لم أعهده فيه من قبل، ربما لأكون على بيّنة أكثر، والطرق المتقاطعة بدورها تداخلت مع التقسيمات الجغرافية: شروخاً في الغالب، وليست متجاوبة كطرق عصرية، تشكل لسان حال المدينة النابتة في الأطراف بشكل وحشي، وتبعث على النفور، لمجرد رؤيتها من لدن الداخل إليها.

وإذ تصبح المدينة خلفي، أستشعرها وقد لحقت بي بأطيافها المنكوبة، بصخبهاالمسبوك والمحبوك داخلاً، وهي تتنفس ككائن نصف خرافي، ونصف آدمي، كائن يستحق العطف والذم، بهيئتهاالمنزوعة التجانس، عبر أرصفة بليغة في حراجة موقفها، مماهي فيه، أرصفة تتبدى ألسنة ممتدة خارج أفواه لامرئية، تشير إلى عري المكان السابح في اللون الاسفلتي القابض على البصر والبصيرة، فلاأشجار، كما هي عادة المدن المدن التي تتكلل بزينة حضارة نسبية، رغم عراقة المكان بالماء والخضرة والوجه الحسن، لكأن الخضرة عارض تاريخي طارىء لدى أولي الأمر، منبوذة لدلالتها، وهاهو الماء يشهد احتضاره انطلاقاً من عارض مستحدث مرسوم، كما ينبىء المكان بذلك، ولم يبق سوى الوجه الحسن الذي بات عبئاً يثير شهية غيرالجديرين والمدركين بجماليات المكان. الشعوربالمكان يتضاعف هنا. لعل ما نتوجه نحوه، يشغلني بدقة ورهبة الحوار، حوار الأشخاص المعنيين، وقد تمت تسميتهم، والأمكنة نفسها داخلة في الحوار، وربما، لهذا السبب، برزت القامشلي/ قامشلو، قامشلوكيه من سفليائها وليس من عليائها، أمكنة مختلفة، وفي مكان واحد، ودفعة واحدة، تسجل أسماءها/اسمها، لتساهم بمداخلاتها، وتسمعني أصواتها/ صوتها، هكذا تتقدمني المدينة، مستعرضة هواجسها، بينما السيارة التي فقدت أو أفقدت بدورها الكثيرمن فضائلها التقنية(كالتكييف)، مثل المدينة المحلقة في فراغ تاريخ مختزل ببراعة، غير مدون بدقة تماماً، تطوي الطريق، لتترك المدينة منطوية على نفسها في تداعيات هواجسها لصق جهات شتى.

وفي الوقت الذي كنت أعنى بالمحلقين معي في الحافلة، إلا أن تغيراً ملحوظاً تلمسته من الداخل كان يطرأ علي، إذ كانت عيناي تنفتحان على الطريق الممتد والمتعرج كماهو التاريخ المعرف به، كان يتجلى شريطاً رفيعاً دوامياً يتلوى بفاحم لونه وقد تبقع بالرمادي بين مسافة وأخرى، وعلى جانبي الطريق، وأنا أتابع كل متكيء على الجهتين أو مغروس فيهماأو مرمي خللهما، من اللوحات الخاصة بالاعلانات وأعمدة الكهرباء المتلاصقة والمتدافعة والمتقافزة من وطأة السرعة، وأعمدة الهاتف الضامرة والمائلة، لكأنها تشكو المتردد في الأسلاك الواهنة، وتلك اللوحات المنصوبة وهي تحمل أسماء قرى مشفوعة بأسهم تتجه شرقاً وغرباً: صغيرة، يصعب على أي كان، التقاطها، وحتى اللوحات التي تخص مواقع أخرى(محطات حبوب، مزارع، دعايات ...الخ)، وهي تتزاحم في مجموعها، ولكنها في الوقت نفسه، تشكل مجموعة حوارات على غير ميعاد، لكأنها تضاعف كمية المعلومات لدي، وتعمقها، لترافقني إلى ماوراء الحدود أو الجهة غير المرغوب فيهاهنا وهناك بالتأكيد.

طريق حديث العهد بالمكان، ذاك الذي يتأفعى صوب مدينة منحت فضيلة الاسم التاريخي طي جغرافيا تندى بلغات متشابكة، أي (اليعربية)، لتكمل سلسلة الأسماء المنتقاة ، كما هي سلالة الأسماء الحدية الحدودية المقابلة والمجاورة لها: المالكية، الجوادية، القحطانية ومرادفاتها، وأخواتها المنتشرة في الجوار، وطرق شبه ترابية، تكفل حرية الحركة حتى في الشتاء، تصل مابين قرى لم تكن موجودة، حتى بالأمس القريب، وبيوت متناثرة تكاتف الطريق الرئيس والطرق المتفرعة عنه: محدبة السطوح، أو مقتفذتها، أو منكمشة، لكأنها تخشى مجهولاً ما، أوواطئة لصيقة بالأرض، طينية في الغالب، تشهق حضوراً في المكان بصعوبة، وسواها تتبدى خيلائية، وقد تهادت اسمنتية أومستوردة حداثة مدنية نسبياً، هكذا تتزاحم قرى في محيط النظر سريعاً: الصابرية، عمارات، عسيلة، الكريمة، تل بري، حاصودة، حامو، قبانية...الخ، تتفاوت قرباً من الطريق المذكور، أو بعداًعنه، حيث وفرة العطاء الأرضي، أضفت على القرى حيوية مضاعفة، وبدت في علم التاريخ، حتى وهي تتلفع هناوهناك بأشجارنادرة تعرَف بحداثة الذوق الحضاري، وقرى تتباعد عن بعضهابعضاً، وهي تعيش حواراً تخاصمياً، حيث الطريق العام يفصل مابينها كحاجز طولي بارز، وأعني بهما: تل معروف وخزنة..

لكنها القرى في مجموعها الغالب، وهي تنتهب المكان والجهات، وقد استقرت داخل مساحات مرسومة، لم يكن عبثاً تموضعها هكذا، فتلك التي تحتفظ بسيرة نشأتها الجزراوية، وقد انتقلت من الخيمة المستندة على الأعمدة والأوتاد، إلى البيوت المنتهية بسقوف تجلوها أعمدة، وسطوح سنامية،أومقببة، أوأحياناً متساوية الأبعاد تناظراً من عل مع سقوفها للناظر من بعيد إليهاوقد تجسدت في بعد واحد، ولكن حين تكون في مجال الرؤية الأفقية والخاطفة، وللخداع البصري دوره هنا، لاتفقد الذاكرة المكانية الحلباتية، عبرمواجهات، ومحاولات تبتغي السيطرة على المكان، تبدت في غزوات، لازالت ذاكرات المسنين تضخ الكثير من الأصوات والصور، كما الجمرتحت الرمادهنا وهناك، بالنسبة للكرد والعرب، ويشهد على ذلك التوزع الديموغرافي أو طريقة انتشار القرى في الجزيرة، في ترسيماتها الأرخبيلية والخلجانية والالتفافية بحسب المناطق، وقد ثبتت في مواقعها منذ أكثر من نصف قرن، بأسمائها وحكاياتها، وحتى بهوساتها ورموزها: شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، رغم أن قرى كردية كثيرة لفضائلها المستباحة، تضاعفت أسماؤها، حيث تنوس بين أسماء كردية، طعّمت بالعربية، أوألحقت بها، تشير إليها رسمياً، عبر لوحات طرقية وغيرها،لإلغاء التفاوت بين اسم وآخرفي المعجم الضادي، كتبرير وتفسيرآخيرين ووحيدين لاثاني لهما لمن يريد استفساراً، وأسماء كردية تتجاوب مع حقيقتها المركبة: الجغرافية والتاريخية، ثقيلة الوطء والتهجئة لدى أصحاب الشأن، رغبة موجهة في تلغيم المكان، من قبل من لايدركون الجماليات الفذة لسكنى المكان هذا، وحتى بالنسبة للقادمين إلى القامشلي حتى عهد قريب، فإن الجهات المقابلة تفصح عن لغاتها ولهجاتها وانتماءاتها العشائرية: الكردية والعربية، ونسبة قليلة بالمقارنة مع البقية من السريان والآشوريين، وهي معاً مارست حواراً مع بعضها بعضاً، ومع المكان، بطريقتها الخاصة، وربما تعيش توثبها من الداخل لطارىء خفي لاحقاً.

لكأن الطريق المسمى والطويل الواصل بين القامشلي واليعربية، يشكل دفتر التفقد الحصيف بالنسبة للقرى التي تتقدم مجاورة إياه، لتثبت لعابر السبيل أوالراكب أو الناظرجدتهاوانفتاحها، في مكان تم اكتساحه واستثماره، وليشهد بعد حين، مدى تبرمه بما يجري، دون تفكير بالعواقب المترتبة.

كيف تداخلت الأسماء الخاصة بالأمكنة المسكونة، واللوائح القليلة العدد دعائياً، خلاف محيط المدينة الآخذة في التآكل، والتصورات التي لاتنفصل عن الأمكنة المرئية، والذين ينتمون إليها بأزيائهم وملامحهم ذات النسب اللصيق بمواضعها، ومتضمنات اللوائح التي تسندها أعمدة حديدية وسواها؟ ذلك ما ينبىء عنه المشغول به، وأنا في رفقة آخرين عليهم قطع عدة مئات من الكيلومترات، وسط مخاوف لها مبرراتها الفعلية، ليحطوا الرحال بعد حين من الوقت، ولأن الموضوع، هو المستقطب لكل ما تقدم ولم يتأخر بحق، حيث أن وصولي السريع الذي لم أشعر به، بسبب انهمامي بسرد حكايات الأمكنة المختلفة، إلى النقطة الحدودية(ربيعة) العراقية، كان مفصحاً عن ذلك، ومفاجئاً لي بالمقابل، وهنا تختفي القرى وسيناريوهاتهاالمتشكلة كومضات خاطفة، وأناأبصرالقيمين على الحدود المعلومة.

2- على مشارف (ربيعة) إذاً!

لاتبدو الحدود، على الإطلاق، باعثة على الراحة، ولربما ارتبطت بالمغامرات، بحالة التجاوز، بالماقبل والمابعد، لأنها تقيم فصلاً بين العوالم، وتستثير شهية الباحثين عن المفاجآت، فكل حد: حاجز قائم بين ما يمكن للمرء أن يتحرك فيه، وما لايسعه توقعه تماماً، وخصوصاً حين تكون الحدود متسمة بنوع من المزاجية، رغم تجليها القانوني، وعدم الدقة في مفصّلاتها، ومن قبل القائمين أو المشرفين عليها، وهي تتفاوت من بلد إلى آخر، لابل من مدينة إلى أخرى أحياناً، فالأمكنة تشهد ببلاغة مرئية كاملة على ذلك، حيث البنيان الثقافي وما وصلت إليه ثقافة البلد في جانبها القيمي الفعلي، عنصران فاعلان في تبيان ما يمكن للحدود أن تكونه أو تكون عليه سلباً أو إيجاباً، إذ أن حدود الدول هي حقائقها المرئية، ماتكون عليها مؤسساتها بمن وماعليها وحركية القانون الخاص بها قبل الدخول إليها، ولهذا تسعى الدول الحريصة على سمعتها إلى الاعتناء بحدودها، ليس بتجميلها، وإنما بإبرازالسلوك الأكثرجاذبية من قبل رجالاتها الحدوديين، ليعبرها القادمون إلى الداخل وهم سعداء، أو دون توتر ملحوظ.

هأنذا أبصر حدود العراق، أبصرها من نقطة (ربيعة)، لبعض الوقت أستشعر دواراً من نوع خاص عصي على التسمية، دوار تاريخي، جغرافي، إنسي، ثقافي، نفسي...ليس هو الجبن مفسّراً، وإنما مايلي الحدود، ماشهدته الحدود الحشود، فحتى الأمس القريب جداً، كان من الصعب جداً، على الكثيرين عبور الحدود، خشية حصول الأسوأ، وهو الممكن تماماً، فالاسم والصورة والمعلومات القادمة إلى عالم الحدود الملتهبة، وتحت إمرة الرجال المتحكم فيهم عن بعد، أو الجاري توليفهم وفق أوامر ونواه قطعيةلايساوم عليها، علامات يجري التدقيق فيها، حيث تستحيل كل الموجودات القائمة مهدّدات للمغامر بروحه، وهو متجاهل ما أشرت إليه، ورغم أن عالم اليوم الذي أنا فيه بساعته(العاشرة والنصف من صباح الخميس المذكور آنفاً) خلاف عالم المسمى، إذ أنني لبعض الوقت، تخيلت أشباح الطاغية العراقي المخلوع محلقة في فراغ المكان، ولصق الحدود، مسكونة بسطوة أشباح أخرى بدورها، وهذه بسواها، حتى آخر نقطة في الجانب الآخر من حدود العراق. لقد توارت الأشباح! الحدود تبدو آمنة إذاً، رغم أنني مع آخرين لم أدخل قسم تفييزالجوازات السوري، إذ أنني في لحظات مكثفة، سعيت إلى استحضار تاريخ رعب تجاوزثلث قرن على الأقل، شوّه فيه الإنس والجن والكائنات الأخرى ومعالم الجغرافيا، كمن يثبت صورة في ذهنه ممعناً فيها، كونها تهمه، ثم يتابع عمله الآخر، ولكأن الحالة هذه، كانت لصيقة بما نحن أقدمنا عليه.

(ربيعة) المسماة، تعيد بالمرء إلى الوراء(إذا كان التاريخ يعنيه، وهل هناك من يتقدموننا في استجلاء التاريخ، والدال على هذا، قبل كل شيء، هوجمعنا المختلف، أعني تنوع التاريخ الذي نسعى إلى تسميته؟)، إلى سلسلة الأسماء الداخلة في تاريخ مدون قبائلياً، ثم تجلت قاماتية، معتمد عليها، بوصفها علامات على

الامتلاك الجغرافي، كما هو معلوم، فربيعة ومضر وبكر، هي الأسماء الأكثرالتصاقاً بالذاكرة المكانية، لدى المعنيين بالحراك السكاني، وكيفية تطويب التاريخ نفسه، إذ أن ثلة الأسماء هذه، تبدولمتتبعي الهجرات السكانية من مكان إلى آخر، وكأنها مكتشفة أراض غير مسماة لاجغرافياً ولاتاريخياً، واطئة(عالماً جديداً عليها) بكل ماتعنيه مفردة(الوطء) من دلالات حسية وذهنية ثقافياً، رغم أن الكتب المدرسية ذاتها تقول خلاف ذلك، ورغم أن كتب التاريخ القديم تقول خلاف ذلك أكثر، إذ أن الدلالات الحافة بـ(ديار مضر وربيعة وبكر)، هي استملاكية، احتوائية، إدخال للمكان البكرالمجهول الاسم ، النكرة، إلى خانة المسمى والمعلوم أو التدوين الثقافي، وفق لغة لاحقة في المضمارذاك، وهأنذا أتخيل صدى المكان بأقوامه التاريخية، وقوامه الثقافي المتعدد اللغات، المدهش بأصواته، وضمناً اللغة اللاحقة ضمناً، فتكون صوتاً من بين هذه/ تلك الأصوات تاريخياً.

من الجانب الآخر، ينطوي اسم(ربيعة) على مفارقة تخص المعنى، إذ أنه يدفع بالقادم للوهلة الأولى إلى الاستعداد للدخول في عالم راحة مثالية، إلى المربع والتربع والربيع ، في السنين المنصرمة، وليس أكثر طبعاً، وهذه المفارقة تشكل مدخلاً لمن يريد دراسة العالم التناقضي لمجمل الأسماء التي تطلق على أمكنة تثير شهية القادمين إليها، كونها تتقدم بأسمائها، وهي في العمق، تتبدى كارثية عبر القيمين عليها.

ولأن المنتقل من مكان إلى آخر، وهو في حالة جذب مكاني مألوف، ونبذ مكاني لم يعتده، ويحاول استطلاعه، لايستطيع التكهن بما يمكن أن يحصل له، وخصوصاً إذا كانت(بضاعته) غير مرئية، أوتتجسد في وريقات، قد تكون مختصرة، مشفرَة، وبحسب المكان المنشود، فيغدو شبيه الرهينة المكاني لمن يفيّز له، ليس لأن الخوف هو المفصح عن ذلك، وإنماظهور العائق الذي يمنع من التحول، ودون التقليل من عنصر الخوف ذي التاريخ العريق هنا، ومفاجآت اللحظة، إذ صاحب العرش اللامرئي في سدرة منتهاه، وحده من يمكنه تحديد اللاحق، ولأن الذين لايدخرون جهداً في(الاحتفاء) بالشخص المعني، من جهة كتابة مالا يعلمه هو نفسه أحياناً عن نفسه، في كل ما فاه به، أو جسده سلوكياً، أو تم تصويره وتدبيره وتحويره خصوصاً، فيكون نزيل أرشيف مميز، تتنوع أحجام صفحاته، بصورها وخطوطها وأسمائهاالمعلومة داخل قطاع محدد، وأسماء أخرى مرافقة كاملة غير دقيقة، وناقصة ذات مغزى، وجمل متعددة الصياغات، وأمكنة مقحمة أو مركبة أوذات دلالة بدورها...الخ، هي كلها تكون بانتظاره لحظة التدقيق في الاسم المسجل جانباً أو المودع في الكومبيوتر، أو لدى الجهة الأخرى..

وربما تأخذ الوساوس والهواجس قسطاً من القلق والترقب المستبدَين بالشخص نفسه، سواء بدافع ذاتي، أو بسبب عدوى محيط اجتماعي معين، أوتنتقل إليه من آخرما، أوبغرض زعزعة أمنه النفسي الداخلي.

خلال حيّز زمني محدود، سلّمناأغلبنا جوازات سفرنا مفيزة، بقي البعض منهم، وتأخروا لأسباب لها علاقة- فقط- بالتعليمات الصادرة من الجهات المعنية. أشير هنا إلى الاستاذ نضال درويش، الذي تأخر، بدعوى أنه لم يحصل على موافقة من الجهة المخولَة بالتفييز أصلاً(في حلب على الأقل)، كونه مادون الأربعين عمراً، والتبرير هوخشية الالتحاق بمن يقاومون الأمريكان وحلفاءهم داخل العراق، لهذالابد من موافقة أخرى مبدئية قبل تفييز (الباسبورت).

هنايمكن للمرء أن يسترسل في الكلام قليلاً، أن يكون ماركيزياً أو نسنياً ، أولابأس أن يكون في إهاب (جهاد نصره، أو محمد غانم) لضرورة مكانية، لاكتناه خلفية التعليمات الصادرة، التي تبدو- بالفعل- حصيفة.

لكن المفارقة تكمن في النقطة هذه بالذات، وهي التي تتعلق بما يسمى بـ(الأمن الحدودي) فعلاً!

فربما المأخوذ بحمَى السذاجة وحده، من يصدق أن خلاف ذلك، يتم خارج نقاط العبورالرسمية والمسماة، وهي لاتتجاوزفي مجموعها مائة متر في الحد الأقصى، مقارنة بحدود تتعرج وتتكسر وتمتد، تنبسط وتنطوي، تتجاوز مئات الكيلومترات(سبعمائة كيلومتراً تقريباً، كما يقال حرفياً)، إذ أن العيّنات الحدودية،إن جاز التعبير، في حالات التوتر بين دولتين، غالباً، ما تتقدم النسخة فرق الأصل عما يتم العمل به خارج المعابرالموسومة، وكما يعلم ذلك المعنيون بعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم البيئة وعلم التخاطب :

الحدوديون، وصحابتهم وتابعوهم داخلاً وخارجاً هنا وهناك. كون (لعبة الحدود) جلية الأبعاد، وعلى الحديث أن يتناول خبراء الحدود من الجهتين، ووفق أي معياريتم تحريك الأشخاص المراهنين على الحدود، إنهم أشخاص اعتباريون، مهربون، ومعلبون، ومدرَبون، ومرهَبون(إلى آخرالـ"بون" مع التشديد المسبق)، لهم علاماتهم ومواقعهم المتحركة، ومواقيتهم المعقودة.

وحدهم العابرون الرسميون، تتسجل أسماؤهم، وتتثبت صورهم أحياناً، في الأرشيف الاستثنائي عند الضرورة، حيث يخضعون للمراقبة، أنَى حلوا، وتدوين محاضرضبط، تخص أنشطتهم(أولاً بأول)، فيكون نفوذهم في حالات كثيرة، موازياً للفسحة المرئية لمعابرهم المحددة، خلاف الآخرين، الذين يعبرون في أوقات متفق عليها، لاعلاقة لها كلياً بالدوام الرسمي، يتحدد نفاذ فعلهم، بظهرائهم، ومددهم الموزع، مقارنة ببقية الحدود المترامية الأمداء، ومن الصعب تتبع حركاتهم، طالما تتم تغطيتهم، وثمة أكثر من تياريستوعبهم في الجهتين.

هكذا يمكن النظرإلى العمليات المعتبرة (عمليات مقاومة) في العراق راهناً وبإطلاق، ومن يتعرضون للموت، باعتبارهم قتلى ليس إلا، كما تركز على ذلك قنوات الإعلام عمياء العربية المتباكية على صدام: بالصوت والصورة، بينما في الجوار القريب(أعني السعودية)، فهناك الارهابيون بالأسماء، وبامتياز، ويجري استعراض أساليبهم في التخريب والارهاب(أشير إلى أحد المقبوض عليهم في السعودية، وهو يتحدث عن الجانب هذا، في قناة العربية بتاريخ2/10-2004)، وهذا لم يحدث بشأن العراق البتة، ولو أن الذين يقتلون في معظمهم عراقيون، وأن البيت العراقي هو الذي ينسف وليس سواه . لهذا علقت سريعاً على نضال درويش، الذي سوَت مشكلته من قبل ذوي الشأن بعد حين، ومن باب الود، بأنه لم يبلغ سن الرشد بعد، رغم المرارة المصاحبة والمتعلقة بمفهوم سن الرشد في مجتمعنا، ومن يكون راشداً بحق، ووفق أي شروط اعتبارية، يمكن ذلك.

وفي المثال الثاني، كان هناك صحفي مصري، الذي لكم تمنيت أن يكون رفيقاً لنا في مجموعتنا، مهما كان رأيه في الاختلاف، حيث لم يفلح في اجتياز الحدود، لأنه لم يحصل على موافقة من سفارته في دمشق، لجواز عبوره حدود دولة أخرى، رغم أن أصحاب الشأن السوريين بذلوا ما في وسعهم- كما علمنا- لتسهيل عبوره عبر اتصالات مكثفة، وهكذا رجع من حيث أتى، فخسرنا مسبقاً صوتاً مختلفاً في نبرته ، قادماً إلينا من أرض النيل، وكان علينا أن نتحرك سريعاً باتجاه جغرافيا، لكم خشينا الدنو منها حتى الأمس القريب: جغرافيا الرعب، كما كانت تسمى.

3- ألف باء (ربيعة)

تقدمت مجموعة منا جهة المعبرالحدودي، وهي الأكثرية، بينما تركنا آخرين لاستكمال الإجراءات(أشير هنا إلى نضال ومن بقي معه، وكذلك الصحفي المصري، الذي سمعنا بنبأ فشله في المجيء، لاحقاً).

من اليمين كان بالكاد رؤية الساحة الكبيرة المسورة(أستخدم "السور" رغم معرفتي المتواضعة بدلالاته الهندسية، حيث أركز على الجانب الرمزي ، ومايمثله من فصل الداخل عن الخارج بصورة رئيسة)، بسبب تنوع السيارات، والسورالذي يمتد من ناحية الجنوب(يميننا)، كان يبتعد عنا قرابة مائة متر(هكذا يتخيل إلي الآن)، والساحة تجلت واطئة، لكأنها انخسفت قليلاً، إذ قبل الوصول إلى السورجنوباً بمسافة مرئية واضحة، تبرز الساحة وكأنها حفرة انهدامية وقد ملئت تراباً، أو خليطاً من التراب والحصى والرمل السيء، فالسورالذي يلوح لنا بجداره الواطىء، هو في ارتفاع أمتارعدة، حيث الساحة لم تملأ كاملة، لغاية عملية، حتى يعصى على أي كان، تسلق الجدار ذاك، كأن يفر إلى جهة ما، لسبب ما، لهذا تبدى لي السورالمراقب مغروزاًحتى نصفه في الأرض، وكأنما ارتكب جناية معينة، بينما هو طليق في الجانب الآخر، لأن المهم هو في الجانب الذي يليه: جهة الداخل لا العكس.

وفي الوقت نفسه، فإن فكرة الحفرة الانهدامية تتأكد، لحظة تجاوز النظر محيط السور، فالأرض التي لا

زالت تحتفظ بآثار الحصاد، ترامت وكأنها بحرتشعشع اصفراراً تحت وهج الشمس اللافت نسبياً، رغم أننا على العتبة الأمامية للخريف، وثمة فلك وهمي يبتعد رويداً رويداً، ليثبت كروية الأرض بخصوص المكان نفسه، إذ بدءاً من محيط السورذاك، وبعد أمتار معدودات، تبدأ الأرض بالارتفاع ، وقد تكورت تدريجياً إلى مسافة تكاد تختفي عن النظر، وهي تلامس الأفق، لذا لم يكن اختيار المكان هذا نقطة عبور حدودية اعتباطياً.

لكم هي السيارات كثيرة، وخصوصاً الشاحنات والبرادات، ترى ماالذي تحمله فوق (ظهورها)؟ فهي تنتمي إلى أكثر من جنسية، دققت في أشكالها وألوانها لبعض الوقت، استحالت غرائبية لي، من خلال كابينة القيادة التي تنفصل عن مقطورتها المشدودة إليها، كما الرأس الموشك على الفصل عن الجسد، كما هي النملة العملاقة التي بالكاد يرتبط جسمها برأسها عند نقطة غاية في الضعف. حاولت التخلص من هذا الاسترسال في التداعيات. ترى لماذا الاستغراق في تصورات وتداعيات من النوع المذكور؟ لم أنتظرالإجابة الذاتية، رجعت إلى من كان معي. لقد كان علينا أن نتحرك زكزاكياً، في شريط ملتو متتابعين، داخل ممرات صنعتها السيارات تلك، حيث سلكنا نحن، ودون أن أترك المكان بعيداً عن الاقتناص البصري، فثمة مكاتب صغيرة وكبيرة : محمولة، خاصة بالحدود وما يمرر عبرها، وسواها تتعلق بوظائف لافتة طارئة، تخص الأمم المتحدة، نصبت في قلب الساحة ربما لتوافرالأمن أكثر، وهي التي استثارت من جديد، تداعيات مختلفة بداخلي، ولماعليه الوضع في العراق، وفي اللحظة تلك تماماً، إذ على مبعدة مائة كيلوكتراً، أو أقل من ذلك، تخيل لي أن الموت والحياة يتصارعان بقوة، عبر ممثليهما، وبالاسم في محيط (تلعفر)، التي شهدت وقتذاك، مواجهات دامية ومرعبة، بين الذين راموا تغييراً مخطط له من قبلهم(في الداخل)، والذين واجهوهم (داخلاً وخارجاً)، بجعلهم كسواهم في المدى الجغرافي العراقي.

لكم هي الأرض ترابية، تراب ناعم مذرورمبودر، قيحي اللون، لكنها تري أوجاعها المتراكمة هكذا، لايكاد الراجل يطأه، حتى يتهشهش متناثراً ليشكل غلالة حباحبية تلبّس حذائيه بوضوح، لكأن الأرض بوضعها ذاك، عرّفت بحقيقة ماهي عليه، كون الذين (يديرونها) إن جاز التعبير، مشغولين بدوائر أخرى ملتهبة، شغلتهم الحرب الطويلة المدى، في تنوع أسمائها، ومعاركها داخلاً أكثر، وخارجاً عند اللزوم كما أعتقد(لزوم مشروط بالتأكيد)، وبدت من فرط إعيائها أبعد عن التماسك.

ما إن تقدمنا بالخطو، وعبرالحد العراقي المرسوم، حتى لفت أنظارنا من جاؤوا لاستقبالنا بصوتهم: أهلاً وسهلاً!

ودون الدخول في تفاصيل الأسماء، كانوا مجموعة، رحبوا بنا، بكردية فصيحة، ببحة دهوكية - هوليرية، وحتى الذين استلموا جوازات سفرنا كان بينهم الضباط والعاملون العاديون في النقطة الحدودية العراقية، من خلال رتبهم، وهم يتكلمون بالكردية، التي أعادتني إلى زمن غير مسطور، ليس تباهياً بالحدث، ومارأيته وسمعته هو حدث تاريخي لي طبعاً، بوصفه تحولاًنوعياً في تاريخ العلاقات بين الشعوب، وإنماهو في حقيقته: اللقاء الأكثرعظمة على حدود بثت الرعب في الجهات الأربع، إنه اللقاء بتاريخ مختلف، وهذا ما حصل بالتأكيد، بل هو لقاء فعلي بجغرافيا أقصت ذلك التاريخ الكابوسي الذي أحال البشر والحيوانات بأنواعها، والجمادات والجهات إلى خانات ممهورة بختم(قائد الأمة والشعب حفظه الله ورعاه : صدام حسين)، لتبيان مدى صلاحية كل صنف، في منظوره، والذين مثلوه، ويشمل هذا التقييم: العرب والكرد والتركمان والآشوريين وغيرهم، رغم أن ظلاله الكابوسية لازالت متجسدة في من يعتبرونه رغم (كل ماحصل) القائد التاريخي.لاشماتة بأحد! إنما هو الاستغراب ممن يحيل الجغرافيا في تنوعها الإثني إلى خانة قوموية متمذهبة عقائدية واحدة، مغذية بالدم، ولا زال الاعتقاد هذا، محتفظاً ببقاياه داخلاً وخارجاً، ليؤكد حجم واسلوب التدجين العقائدي الرهيب.

نعم ! لأول مرة ، أستشعرتنوع التاريخ، مقارنة بما سبق، سرعة نبضه الطبيعية، وقد انبسطت الجغرافيا في الظل الوارف لأصداء أصواته، فالبربرية التي أسكنت العراقيين جغرافيا الوهم، كل هاتيك القرون(أعني كل هاتيك السنين المنضدة ثلث قرن على الأقل)، ومحقت ثقافة بلاد الرافدين، رغم الاعتزازالاستعراضي

بها، لم تأل جهداً في المصادرة على المستقبل، لتنشغل البلاد بالانحطاط القيمي التي آلت إليه، كما خطط لها في الصميم، ومايجري حتى الآن، لاعلاقة لـ(البربرية الأمريكية) به،إنما بالذين تناسخوا واستسخوا بربرية، بوصفها الطريقة المثلى لتكوين شعب من نوع مختلف، كما هو جار الآن، دفاعاً عن البربرية التي عمل من أجلها الكثير الكثير، و(أوقفوا التاريخ أربعين سنة وعطلواممكنات التقدم والإصلاح)، كما يقول الصديق المعرفي" عبدالرزاق عيد".

نعمٌ نعمٌ! وأنا أسمع لغتي ، في من يمثلها حقيقة، ويتهجاهاحقاً من حقوقه، دون خشية ممن هو متهيأ تربية :(ماهذا اللسان العوج)!هذا الأداء السيمفوني للغة، يعادلها غنى المرء في الواقع، المرء الذي يحسن التعبير بأكثر من لغة، دون مرسوم قسري، ويلتقي في الأداء ذاك التردد الصوتي الكردي والعربي والتركماني والآشوري والأرمني. هكذا أقرأ جغرافيا اللغات، وهكذا أفصح عن قوتي في من يحسنون صناعة التاريخ الثرّ من خلالها.

لكم هو التاريخ أحمق، عندما يتمعن المرء فيما حوله، كما هي الحدود التي أبصرها أمامي، والتي خلفتها ورائي، دون أي شعور بالتغير، فالحد المرسوم لاينبَه العابر، إلا بوجود المعني به، هكذا تبدو فكرة الحدود، حتى على صعيد كوني موغلة في السخافة! كل الحدود، بتشكيلاتها المختلفة، لم تستطع التجاوب مع الرغبة المحلقة في الانسان بتجاوز المكان برمته، كما أنها كانت أعجز عن إيقافه أو تخويفه، فثمة دائماً ما يحرض كائن الجغرافيا، على محاولة إعادة الأمور إلى نصابها الجغرافي الطبيعي، ولو لغاية لاجغرافية أحياناً.
أستعيد هنا ماهومتداول عندنا كردياً، بخصوص (ser xetê- bin xetê)، والترجمة العربية لاتفي بأداء المعنى النفسي حقيقة، فالعبارة تشير إلى علاقة مكانية جهوية معاشة لاانفصال بين حديها، غيرمتناظرين أفقياً، جغرافيا تصعد بكائنها، كلما تقدم عالياً في الأرض، إنها ليست: أعلى الخط وأدنى الخط، ليست: شمال الخط وجنوب الخط، ليست: على الخط، وتحت الخط...الخ ، كل ذلك من خلال مرورخط القطار الحديدي، الذي نصب فاصلاً حدودياً، ومن ثم فاصلاً مركباً، إذ زرع الجانب الآخر(ser xetê) بألغام متنوعة، وبأسلاك شائكة مكهربة تبدو قساطلية، حلزونية أحياناً، كابتكار أخير من لدن القيمين عليه، إمعاناً في التشفي من الجغرافية التي تهدد تاريخهم، لتأكيد فصل الذين لايمكن فصلهم عن بعضهم بعضاً، وإلى الأبد، وهم من أرومة كردية واحدة ، وليس فقط لمنع تسلل المهربين(Qaçaxçî) من أي جانب إلى الجانب الآخر، إذ أن حكايات ألف ليلة الحدودية هذه وما يليها، حيث لم تختتم بعد، تنفتح على ذلك التحدي الكبير، بغض النظر عن نوعية المتسللين، الذي يمثله هؤلاء مغامرو الحدود، في ابتكارمايضاد مناعة الحدود الموضوعة، وهم يخترقونها من الجهتين، رغم المآسي الكثيرة التي شهدتها حدود الموت المشخصة هذه(أحيل القارىء هناإلى ماكتبه لالش قاسوببراعة واقتدار في روايته الحدودية المسماة:Sê şev û sê roj)، وهنا يبدو لي الحاجز الترابي في مشهده التهكمي المعكوس، أعجز من صد نملة.

أشدد هنا على الحدود المقيمة والمقامة في النفوس والرؤوس، والجغرافيا لاعلاقة لها بالمبتدعات التاريخية.

لست محكوماًبوعي إرادي، وأنا متنازع علي من الداخل، حيث الذاكرة تفعّل سلطتها في تسريب المعلومة المكبوتة، والمتخيلات المرافقة، والصورالداعمة، وأنا أدقق في المكان من حولي، لكأن جسدي بكامله قد استحال بدلاً من مساماته أعيناً تخترق صمت المكان ومحتوياته، وماضيه الذي لم يمض بعد، بكل أشباحه القانصة.

أستطلع ما حولي،أطيل النظر في السيارات الرابضة في المكان، حيث تآكلت دواليبها، أهي من أثريات الحقبة السابقة؟ أتأمل هندسة المكان: الكولبات الموزعة، الغرف الاسمنتية الجاهزة التركيب، البنايات المتنوعة الاتجاهات، وكأنهاتستشرف الجهات كلها، فأين المفر، لمن كان يحاول ذلك، وهو في وضع يتلبسه فجأة؟ الأبواب والشبابيك والسطوح، والألوان الكابية، وشبيهات العنابرالعالية السقوف المفتوحة من الجهتين، والغرف الموصدة، تلك التي تتكتم داخلاً على تاريخ مؤرشف بالأدلة الخطية المختلفة، أو الآثار المتبقية، أو عبرأشخاص ربما ذات يوم يحيلون صمتهاإلى تاريخ حي يشهد على بعض من مرحلة، في بعض من

جغرافيا، في بعض من جهة، من نقطة ساخنة، والشعارات التي اختفت على عجل، حيث آثار المحو باقية، والأتربة التي تشي بالمكان الذي كان فرادة أمكنة، الشاهد على صولات وجولات، وإزهاق أرواح في غفلة، مثلما هو التاريخ أحياناً يأتي مغايراً في غفلة، ويمضي بالمقابل على غفلة، أتخيل صرخات وآهات(كأن مثار النقع فوق رؤوسنا...)، لكن مثار النقع هنا، كان يحصل خارج كل اعتبارعلائقي، دون وعود، فالضحايا الحدوديون كانوا يقاومون وهم آيلون إلى الموت، عبر دفاعات جسدية بصورتها الغريزية، لأنهم يكونون جرّدوا من كل سلاح لإثبات بعض التكافؤ، لإضفاء شرعية نسبية على القتل، عبر مقاومة وقتية ما، بوصفهم مشدودي الأيدي إلى الظهور، والأرجل إلى النحور.. هكذا كان التلذذ اللوياثاني الصدامي المنشأ، يرسم تاريخه الوخيم.

في بلاد يجري تفكيكها من كل مقومات الحياة بعكس كل الذين يتحدثون عن وحدتها المنخورة، البلاد التي يبدو حامل هويتها مسكوناً بعقدة الانتماء العراقي، لأنه لايحسن فعل شيء، وكل من وماهو حوله مهدور، في الداخل تحت الطلب، وفي الخارج معبأ بألم الانكسار والعجزالمتناميين، ليس بوسع الناظرإليها، وهو يطل عليها، إلا أن يدخل جحيماً وقد فاض على جهاته، ويبقى رهين أكثر من مجهول، وهأنذا الكائن الحدودي، رغم بعد المسافة النسبية، بوسعه تسمية نوع اللفح الكاوي مما كنت أعيشه حتى الأمس القريب إلى جانب آخرين، ولابد في الحالة هذه من أمد ومدد أماميين، ليمكنه ذلك من تخفيف وطأة الداخل المخترقة بفظائع سوأة الخارج. وإذ أقول ما أقول، فلأنني أتلمس في المكان الذي بلغته حتى الآن، عدمية التاريخ التي اجتهدت لنسف كل بلاغة جغرافية، وإعادة تشكيلها كل حين، وفق مزاجيات نافذة محمية، ومن الصعب التماسك من الداخل كما ينبغي.

لقد كان علي في كل تبعية لا إرادية لواقعة مكانية، أن أمارس استقصاء للواقعة تلك، وكان على الذين استلموا جوازات سفرنا، لتفييزها مشكورين، ومن جاؤوا لاستقبالنا، أن يعيدونا من صدمة الواقعة إلى لحمة الواقع، وهاهو صوت أحدهم: شباب، ياشباب، تفضلوا إلى الاستراحة.

قفزت إلى داخل ميكرو باص مكيف، نظيف(هل تم استيراده حديثاً، أم تمت مصادرته من بين بقايا الكثير من السيارات المودعة في كراجات مغلقة، إلى وقت الحاجة، هل شهد النهاية الوخيمة لنظام مرعب من نوع خاص؟)، وأنا أستحضر إلى ذاكرتي الشعرية، ماقاله "أنور الغساني" في نهاية ديوانه(العراق)، قبل اثنتي عشرة سنة، وهو يخاطب العراق:

سلام على رحلتنا فيك كل يوم
سلام على رحلتنا بين النقاط المتباعدة
وسلام علينا يوم ولدنا ويوم نموت.
وإلى أن يحل اليوم الأخير
ستظل لنا كتموز العشب،
في الربيع تخضر وفي الصيف تحترق،
ثم تسبت لتبعث من جديد.
منحتنا إمكان الخطأ
لنتعلم ونتألق.

4- استراحة انتظار الآخرين

كان علينا أن نقطع ركوباً بالسيارة، عدة مئات من الأمتار، لنريح أجسامنا، ونهدَىء أنفسنا قليلاً، حتى يلحق بنا، من تأخر عن الركب الموعود أوالتوقيت المحدد، ومن أحالته معاملاته غير المكتملة، إلى جهات خارج المكان المرئي، لهذاتقدمنا بالسيارة في وسط ترابي لافت، تنتشر فيه سيارات بأحجام مختلفة، وكأنها

ممطرة برذاذ غبارمسحوق، غطى واجهاتهاالبللورية الشفافة، دافعة ضريبة المكان سلفاً(عادت إلى ذاكرتي حكاية"مثار النقع فوق الرؤوس")، وبدت البنايات المصفوعة، وهي مقصوفة بيد هندسية، كما لو أنهاضفادع انبسطت بأطرافها غائرة قليلاً في المكان، شاكية من ضغط لم يسم، بدت هي ذاتها ترابية بلونها، والمسحوق، الهباب الترابي، كشباك العناكب، وهو يغطيها، وضاعف الأثراللوني، سقوط أشعة الشمس عليها، لتغدو هي نفسها ترابية اللون، لابل بدا الكثيرون، من الذين يتحركون في المكان، بسحنتهم المائلة إلى التراب المحروق، وهم يستحمون في حمام النثارذاك.

المكان مستباح، كما يظهر، وكل مافيه، يفصح عن استباحته بفعل تقسيماته، لكأن الصحراء ناءت بكلكلها جاثمة هنا، وقد فرغت حمولتها من القسوة البيئية وتبعاتها من عارض وقارض وفارض. تذكرت"كافكا" في (مستوطنة عقاب).

كنت أميل إلى اللايقين في انتقالي المكاني، في عدم نزولي، لمتابعة الإجراءات، التي تكفل بها أخوتنا الأكراد الذين استقبلونا بصفة رسمية، تجاوباً- من جهة أخرى – مع فضول انتهب مخيلتي، وهو محاولة استدعاء صوروجوه الذين كانوا هنازبانيتيين بامتياز، أن أدخل الغرف المعدة لأداء أكثر من عمل أومهمة، وأمعن النظر في الحيطان والسقوف والزوايا والأرضيات والشبابيك والأبواب والمعلقات في السقوف، والشعارات المخططة أو المطبوعة، والصورونوعيتها، وماهو موجود الآن خلافها، ومن ثم الخزن المودعة في جهات محددة، وأناأفتحها بحثاً عن آثار جرائم حية حتى الآن(أعضاء مقطوعة أو مبتورة، للاحتفاظ بها، أولتأكيد إخلاص رموز البترلـ(أنا الأعلى) الرمزالدكتاتوري الرهيب في رواية " أوغستوروا باستوس"، بقايا أوراق...الخ) وقصاصات أوراق طي أضابيرخاصة، معايشة الرعب من الداخل لتكون الكتابة أكثر قدرة على الاسترسال في الإحاطة بموضوعها. استسخفت الحالة هذه، حتى على صعيد المتخيل المكاني، إذ لاأعتقد أحداً يتمنى دخول الجحيم لوصف أركانه وسكانه، لأنه لن يخرج منه، ليحسن ذلك.

الشعور بالمكان مضاعف لدي، لكأن بي مرضاً مكانياً، خلاف الكثيرين، فهوقادر على الإدلاء بالكثيرمما يخفيه أو يطويه داخله، لحظة التداخل معه وجدانياً، باحساس مختلف، فالمكان أبعد من أن يكون جماداً، ولهذا أشدد على فذاذة سلوك من يسمونهم بـ(الأرواحيين)، هؤلاء الذين يتنفسون الأرض دانياً وعالياً.

هاهي السيارة تقف: تفضلوا شباب، ارتاحوا قليلاً، حتى نتهيأ جميعاً!

تصورت الاستراحة، مثل تلك الاستراحات التي ألفناها في ذهابنا من القامشلي إلى دمشق، بأبنيتها الفارهة نسبياً في الكثير منها، رغبة في جذب الزبائن، والوضع خلاف ذلك. فقد فوجئت كغيري، كما أعتقد، بما يسمى بـ(مقهى ومطعم)، إنه عبارة عن حرف(6)، حيث القاعدة الرفيعة متجهة شرقاً، كما يتخيل إلي، وثمة سقف من قصب أو ما شابه، يغطي الجهة الشمالية، جهة المرتادين، والذين يقتعدون كراسي بلاستيكية، كالتي ألفناها منذ سنوات، وطاولات بلاستيكية، لم تخل من إهمال جلي، وآثارقذارة تطال كل شيء، حتى العاملين هناك، وتأتي الأرضية نصف الاسمنتية، نصف الترابية، وبينهما نزاع صارخ، لتضفي على المكان عراقة لاتضاهيها عراقة مماثلة، بسبب استغراق المكان في فوضى ربما متفق عليها، وثمة (بالوعة) سطحية، تغذي المكان المرئي بالماء القذر، حيث يتشعب في محيط ضيق ليتأسن فيه، ويكسبه ازرقاقاً واخضراراً طحالبياً، مع نخوة نفحة من الرائحة التي تملأ الجوار، وتداهم الأنفاس مباغتة بين الحين والآخر، تحت تأثير من يسعى إلى دفع الآسن من الماء، في الوقت الذي تتكفل أشكال وأحجام البعوض البيئي والزلقط والزنبوروخلافها، بإضفاء مسحة فرانكشتاينية على المكان، في غدوها ورواحها، وتجوالها بين مرتادي المكان، وكأن عقداً موقع عليه مسبقاً بذلك، لتؤكد انتماءها للمكان، أو تعرَفهم بالمكان، دون شعور غريزي بالخوف، وماشابه. سلطة التراب تتعجرف هنا أيضاً. والذي أذكى المشهد الحركي، هو ماتميز به العراقيون في نوعية اشتهائهم لأطعمة محددة، ومنها خصوصاً(paçe)أي :الكوارع/ الأكارع، لكأنها تقتصر عليهم دون غيرهم، إذ أننا شهدنا طلباً عليها، وتجسد ذلك أكثر، في الأيادي التي بدت مغلفة بطبقة حبابية من الزفر، وكأن الآكل خارج من مذبح، وهو رافع يديه.

ثمة سؤال يلح علي هو : هل من سرعلاقة معينة بين الإقبال على الكوارع، والثقافة المتداولة محلياً؟

ربما بدا السؤال طارئاً، أو مقحماً لالزوم له، غير أن فضولي الشقي، يلزمني بمقاربة الموضوع من الجانب هذا.

الكوارع في ربطها بين الأطراف والداخل ضمناً، بالنسبة للحيوان، ومافي العملية من بروزللمأكول، تفصح عن مكبوت تاريخي، عن عنف يتم التعبير عنه باليدين، ومايتبع الإجراء هذا من نزع اللحم والجلد والغضروف المطبوخ عن العظم، إنه تناول باليدين، والتهام بالأسنان، ألسنا إزاء وضع طقوسي، وإن لم يسمَّ؟ ثمة ضرب من ضروب التمثيل الحي، وفق علاقة غير مكتافئة بين كائنين حيين في الأصل:الآكل، وهو الانسان، والمأكول، وهو الحيوان بعد ذبحه، الذي يعيدنا إلى تاريخ موغل في القدم، كما أعتقد، وربما كان لما يتم امتداداً لثقافة لم تتوثق كما يجب، أو تجسيداً لها في العمق.

ما علاقة هذا(المقهى- المطعم) بالمكان، أهي استراحة فعلاً، حيث لم نجد سواها؟ فهي تستقطب كل الموجودين في الموقع، ليس لسمعة حسنة في الطبخ وإعداد الشاي، وتقديم المشروبات الغازية(وهي سورية، كما لاحظنا)، وإنما لأنه لا وجود لاستراحة أخرى سواها، فهي إذاً استراحة تجاوزاً. لماذا هي كذلك؟

الاستراحة في حقيقتها، وهي لاتحمل اسماً(أنا لم أر لائحة بذلك)، طالما هي اليتيمة في المكان، تتجاوب مع المكان هذا، إذ لم يأت اختيارالشكل ونوع البناء اعتباطياً، فالذين يقيمون في المحيط، لعلهم اتفقوا دون مواعدة، على كل ماهو موجود، ولكن المكان بكل مكوناته المعمارية، جاء وفق دراسة :هندسية واجتماعية ونفسية وتربوية، لكأن الاستراحة عقوبة مفروضة على المقيمين والمرتادين، وإن لم يشأوا، وتمثل الحد الأقصى من الكرم الذي يمكن منحه لمن يديرها ويرتادها. أما الأكثربلاغة مكانية، فهو الذي يعيدنا إلى دونية النظرة الانسانية التي مورست بحق الموجودين وسواهم، وهي لسان حال، من أساؤوا إلى الأحوال بالجملة، فيغدو الانسان هنا معرفاً به من خلال وجوده في المكان، وربطه به، وأعتقد أن الاستراحة البائسة هذه، هي آنية في عهدها الجديد، لأن إدارة المكان اختلفت.

مالفت نظري هو نوع الحركة الدؤوب داخل الاستراحة، فلامفر من التعامل معها. إذ الذين كانوا يديرونها أسمعونا صوتهم الذي كان يتناوب مابين التركمانية واللهجة العراقية القحة التي ألفناها في محيطنا، وكانوا يسعون جاهدين إلى تلبية طلب الزبائن بسرعة لافتة، فما إن اقتعدنا كراسينا، حتى قدَم لنا- حسب الطلب- المشروب الذي يمكن التعامل معه لإلفته(كولا، كندا دراي..الخ)، فهو مجرب، ومعبأ في سوريا، فهي بضاعتنا وقد ردت إلينا، ولأن الذي كان يضيَفنا شخص اعتباري في الموقع.

كل ما يحيط بالاستراحة، يشي بالنقيض، لكن المرتاد، يبدو أنه يسعى إلى الزام نفسه بملاذه الاضطراري، إذ يمكن التوغل بالنظر في أكثر من جهة(جهة الجنوب خصوصاً)، واستشعار الأرض وهي تخرج الكثير من أثقالها وآجالها، ولعل الشمس في عليائها بعنقوديتها المتوهجة والمسلطة على المكان، تفصح عن وحشة يخشى جانبها، وهي كذلك، خصوصاً وأن الخضرة منزوعة الاعتبار، وفي الآن عينه تشكل الترجمان المحلف لمكان أريد له كاوياً عارياً إلا من أديم مذرور،لايجد مناصاً بدوره، من تصيَد الكائن الحي، وإشعاره بخطورته المعتبرة، تحت مظلة كونية ليس بالسهولة تجنب الوقوع في دوامتها اللامرئية..

في هذه الفسحة الجنحة المكانية، يمكن قراءة تاريخ سافرنافر، للذين مثلوا المكان، وأرادوه متراسهم، في كبح جماح النظر، من خلال تقفير الأرض، وجعلها أحادية اللون، ومحو كل مايسمح للعين في أن تطل على شرفتها بكامل الرؤية لاستجلاء المحيط، إذا كان الأخضر الطبيعي موجوداً، لكن العداء للأخضر(رغم الرهان عليه دينياً)، يجذّر ما كان كارثياً ويتم باسمهم، ومن باسمه مارسوا مايجرد الأرض من موهبتها الذاتية في الاكتساء بالأخضر، فقط وحده أخضر من نوع خاص، غارق في داخله، منقوص الأوكسجين، ذاك الذي يتجلى في الزي العسكري المهيب الرهيب، بمقاماته المبتدعة، تلك التي تحيل الأخضر الطبيعي نفسه إلى لون عدائي ، ومستعد غيره.

كان علينا، ونحن نتجرع المشروب الغازي، تبادل الكلمات التي تخفف من وعثاء السفروزفر المكان، حيث كان بجواري ابراهيم اليوسف الشاعر، ونحن نتابع نشاط القيمين على الاستراحة، وكان جهاد نصرة

الكاتب المعروف، من بين أكثرالموجودين تجاوباً مع التعليقات، ورداً عليها، خصوصاً وأنه ربط بين (كلكاويته) الفكهة، كاتجاه حياتي طريف، والذين يمكنهم التعامل معه، بشرط وحيد، وهوأن يكون (شريب كاس)، عدا عن تجاذب أحاديث أخرى، فرضها وجودنا الوظيفي في المكان، حيث كانت الوجوه تتنوع تدريجياً.

فالشاعر والكاتب دحام عبدالفتاح الذي أقبل ومعه الشاعر خليل ساسوني وآخرون، حيث سلمنا عليهم، لم يشأ أن يرد على السلام، بسلام، بعد أن رآنافقط، فقد اتجه نحونا، وتعانقنا ثمئذ، ثم توسطنا، أنا واليوسف، وتنوعت الأسئلة المتعلقة بالصحة وبعض الجوانب الأدبية، والمطلع وحده يعرف مغزى القول هذا. فكتابي (وعي الذات الكردية) الصادرقبل مايقارب الشهرين، أثار زوبعة من الردود والانتقادات، من قبل الكتاب الكرد، حتى قبل صدوره متسلسلاً في موقع (عفرين .نت) الأنترنيتي، وكان عبدالفتاح، أول من تعرضت لهم بالنقد، إضافة إلى تناقل أقوال وشبيهاتها مابين القامشلي ودمشق، ممثلة في الذين أثارهم الموضوع، بينما بقي خليل ساسوني المدعو الآخر، في الطرف الآخر، وقد بدا عليه التحفظ والحذر كذلك ناحيتي طبعاً، في التواصل، فهو نفسه كان أحد المنقودين في الكتاب ذاك، إذ أن شكل السلام الذي تم، أفصح عما ذهبت إليه، وهذا ما تجلى طوال وجودنا في كردستان العراق.

مالفت نظري، هو أن عبدالفتاح(أستخدم أسماء الأشخاص هكذا، مع كامل الاعتبار والتقدير المسبقين لها)، فاتحني بموضوع كتابي، الذي لم تهدأ ثائرة من اعتبروا أنفسهم، في معرض إساءة مقصودة، ولأسباب لاعلاقة لها بالنقد، ودون أن يفصحوا عن الجانب هذا، لإثبات العكس مما أرادوه، حيث أعلمني أنه حصل على نسخة مصورة من كتابي، وأن لابد من جلسة خاصة لتناول الكتاب نقدياً، وقد عبرت عن تقديري لمقترحه، وقلت له: مهما كان محتوى كتابي: شوفاناً أو شعيراً أو قمحاً..إلا أنه صار كتاباً، وما تقترحه، يظل شأن المعني به، ولا مانع عندي، بل إنني نفسي أريد ذلك، ليعرف كل منا، كيف هي صورته الفعلية نقدياً. هذا ماأكده اليوسف بدوره.

والحادثة هذه لم أوردها، إلا لأنها تخص جانباً حوارياً، ونحن نريد قطع المسافة الطويلة لأجله، فلماذا لايكون الحوار الكردي- الكردي، اللبنة الأولى في إطار أخلاقيات النقد ونقد النقد وجهاً لوجه، وليس بأساليب لانقدية؟

توقف الموضوع عند النقطة هذه، وأعتقد أنها النقطة المناسبة، فما يشغلنا أكثر أهمية، رغم عدم التقليل مما ذكرت، وعندما أقول مثل هذا القول، فلأنني أنتظرذلك اليوم، الذي يدرك كل منا ما يغنيه بالآخر فعلاً دون حدود ملتهبة، أوموانع تفضي كلاً منا إلى حوارمتهياً له، يجريه مع شخص وهمي في داخله.

ولأن المرء يعيش انتظاراً، لهذا فإن أي موضوع يتم تناوله، يجري حسمه سريعاً، لهذا تملكنا الضجر، ونحن نوزع نظراتنا بين متابعة القادمين، والمعنيين بالموضوع، والساعة التي بدت أسرع مما عهدناها.

5- في صحبة (الأمن النفطي)

اكتملت مجموعتنا بمجيء الباحث والمفكر العراقي المعروف " عبدالحسين شعبان"، وكان علينا في الحالة هذه أن ننطلق، إذ الساعة قاربت الواحدة ظهراً، وهذا يعني – بالتالي- أننا انتظرنا كثيراً، أي أننا استهلكنا الكثيرمن قوانا النفسية لمداراة الوقت، للالتفاف على الحالة نفسها، من خلال التطرق إلى مزق أحاديث، أردناها حالة وسطى، بين الوعي بالمقصود مما يثار، وعدم التشديد عليه، خصوصاً وأن نسبة لابأس بها، جديدة في التعارف. لهذا كان الطابع الرسمي ملموساً، وكذلك اسلوب المجاملات، وكل منهما يفضي إلى الآخر، أويلتقي به. ثمة حقيقة تستوجب التذكير، وهي أن وضعاً كالذي نحن فيه، يستوجب تقديم كل منا للآخر، وهو يجهله عن قرب، بصورة لاتخلو من مثالية، حتى لو كان أي منا معروفاً من قبل الآخرين، وغيرمحتك به، كون تمالك النفس والعصامية والوقار... صفات احترازية، لتحقيق نوع من التطابق بين الكاتب هنا بحضوره الشخصي، وما كان يكتبه، أما الأقل معرفة، فيتطلب مجاهدة نفسية أكثر،

لتحقيق نوع من التوازن المطلوب. لكم هو التمثيل في مواقف كثيرة كهذه محسوس، ولكم هو التمثيل البلاغي معتمد عليه هنا!

حتى في عملية صعودنا إلى الميكرو، وكان هناك من ركب السيارة العادية، أو البيكآب، كان هناك اختيار مدروس، ولو بصورة سريعة، فالأعين وهي تتفحص المكان والأشخاص، بدورها تتحاور، ويحدث تقييم نفسي.

لم ننطلق مباشرة، كان ثمة تدقيق وترتيب في عملية التحرك، كان ثمة أكثر من سيارة مسلحة تخص الأمن النفطي لحمايتنا، في المقدمة، مثلما في المؤخرة. لقد شكلنا موكباً في مجموعنا: مدعوِين ومرافقين ومستقبلين، ولم نبدأ بالتحرك إلا بعد التأكد من أن كل شيء كما يجب، وفق خطة مرسومة، من قبل المعنيين بأمننا، الأمر الذي دفع بي إلى أن أقول معلقاً بيني وبين نفسي، وأنا أعيش الحدث المكاني: نحن الآن نشكل هدفاً مثيراً، لمن يريد النيل منا، ولكن هل يمكن ذلك؟

كل شيء في وارد الاحتمال، فقانون الجغرافيا العراقية، إن جاز التعبير، كأي جغرافية منهوبة، ومدارة بعنف ممثل في حاكم مسجّل كل شيء باسمه، وهوفي سدرة منتهى الأرض، لازال أبعد عن حدود استعادة التوازن، كون الذين يستهدفون الآخرين، ويقومون بأعمال تسمى بـ(المقاومة)، دون تفريق بين عراقي ييمم شطر المستقبل الواعد، وعراقي متردد بين الإقدام والإحجام، بسبب حالة الاضطراب التي تلبست تفكيره، وحالة النخرالقصوى التي سببها النظام المروّع السابق، وعلى المستويات كافة، وعراقي لازال مأخوذاً بفعالية القوموية العروبوية من طراز صدامي معفلق، يكون هو أول الضحايا، إذ يخسر ذاته الانسانية، قبل أن يلحق أي أذىً بسواه، وهويرى أن (خير) ضمان، لإثبات عراقيته الاستعراضية تلك، هو أن يمارس المزيد من التخريب والترهيب، دون التفكير في النتائج، وفي مصيره، فالوعي المعكوس الذي لبّس به، أخضعه لإرادة خارجية ، ولسلطة نشوة مدمّرة، تتجسد في دوام معايشة التخريب وإبقاء الدم مراقاً، سواء كان المعتبرالضحية: كبيراً أو صغيراً ، رجلاً أو امرأة. لا مجال للحديث عن الوهم هنا، فالثروات العراقية الهائلة(لاثروة واحدة طبعاً)، طوال عقود زمنية، تكفل بتبذيرها وتحويرها، في تكوين عراق يعاش بين حجري رحىً، يمارس فيها غسيل الأدمغة، ويكون العربي العدو اللدود للكردي، ويكون الكردي الخطر الأكبرعلى العراقي(العربي)، ويكون قتله واجباً وطنياً وقومياً عربياً من المحيط إلى الخليج، كما تقول تعليمات ووصايا قائد الأمة والشعب صدام، والذين يتحدثون باسمه، والذين يمثلون هؤلاء، والذين ينفّذون تعليمات هؤلاء، في لوح البعث المحفوظ، كما أوحي إلى المعنيين جميعاً بما تقدم، وبالمقابل لايلتقي السني والشيعي، كما يقول التاريخ الموجه، ولاالمسلم والمسيحي ، في نقطة قيمية واحدة، فالجميع مهددون بالموت في النهاية، ولكن الذين يديرون السلطة، هم الذين يرسمون فضائل الوطنية وقيم الشهادة والحق الفعلي..الخ، ولهذا أمضى العراق عقوده تلك، وهويصحو من موت بالجملة، ليفقد رشده من هول موت آخر بالجملة، من هنا، كان تعليقي، كما أعتقد، في محله، والذين حرصوا على سلامتنا أكدوا ذلك بالعين المجردة.

بخصوص الأمن النفطي، يظهرأن الذين يمثلونه ، يعتبرون قوة ضاربة، فالذين تحدثنا معهم، وكانوا كرداً، أفصحوا عن هذا الجانب، إن المكان يحدد نوعية الرجال الذين يمكنهم الحفظ على أمنه أكثر، وعدا عن ذلك، فإن المنطقة، تبدو مهيأة لأي انفجار، إنها ليست تحت سيطرة البيشمركة مباشرة، فثمة أكراد في المنطقة الحدودية المذكورة، والمنطقة المجاورة، ولكنهم يتبعون الحكومة العراقية، من خلال زيِهم الخاص، ولهذا يكون توقع القيام بأي عمل تخريبي، أو ارهابي : من خطف، أو قتل، أو تفجير..الخ ممكناً تماماً.

تبدو المنطقة التي توغلنا فيها، ونحن نتحرك جهة الشرق، منبسطة. فمن جهة الشمال لاتبدو بلدة ربيعة كما قيل لنا، كبيرة، إنها صغيرة، وبائسة، والذين كانوا يتحركون فيها، كما مررنا بهم، وهم في معظمهم، لابسو دشداشات(جلابيات) بيضاء، منزوعة النعمة، كماأوحي إلينا في بعض المناطق خارجاً، حيث تبدَى البياض المذكوركابياً مطفئاً، عدا عن حداثة الثوب ونعومته المفقودتين أو شبههما، وبدا جمع الناس الغفيرفي الصخب المتصادي، كمالو أن تيتانيك أرضية محلية تميد بهم وتنخسف أرضاً، وهم يصارعون من أجل البقاء غريزياً. ولبضع ثوان، تهيأ أن هناك من يخترق الجموع، متقدماً نحونا لينال منا، بسلاح قادر على إلحاق الأذى بنا. إذ أن الكثير من العمليات التي تتم داخل العراق، وفي المدن، تحدث بالطريقة هذه، حيث

يجري التسترعلى الجاني أو الجناة، خوفاً أوتوافقاً، وإلا فكيف يمكن تفسيرمعظم العمليات التي تتم في وضح النهار، خصوصاً في المدن، التي اشتهرت عبرالعمليات المرعبة تلك؟

لن أتحدث، لا الآن ولالاحقاً، إلا لضرورة قصوى، عن كل مايخص الفظائع المرتكبة بحق الانسان والجغرافيا، ولا عن ذاكرة الفجيعة والدماء الساخنة عراقياً، كي لا أكون طارئاً على أي حدث رهيب مؤرشف، وممثلاً لمن لا يحتاج تمثيلاً من العراقيين(أي ناطقاً باسم أي منهم) في سرد حكايات فجائعهم، سواء كانوا من الكرد أولاً أوالعرب أو الآشوريين أو التركمان وغيرهم وغيرهم، فقسمات وجوههم، أبلغ من شهادة أي كان من (الخارج)، حيث أهل الضحايا أكثر دراية بآلامهم. ما يمكنني الحديث فيه ، هو ما يثير في المكان، من خلال ما سمعت ورأيت وقرأت، وما يترتب على ذلك لأمد غير محدود، والاستشهاد بوثيقة رقمية أوتاريخية، هو من باب التنقيب في البعد الرمزي والثقافي للوثيقة تلك.

أستعيد ربيعة مجدداً. هي لم تكن موجودة كمتطلب مكاني، لقد كان ظهورها تلبية أمنية لقرار أمني سياسي، ومن أعلى الجهات في الدولة المعتبرة عراقية، على إثرالاهتمام بكيفية توطين العشائر العربية الرحالة، وجلب المزيد منها، ومن العرب كذلك في الخارج: مغاربة وسودانيين وفلسطيين تدريجياً، وتكون كردستان أرضاً بلا شعب لشعب بلا أرض ، وبذلك تكون القدوة التاريخية الحصيفة اسرائيلياً، قد تمثلت في نظام ادعى طويلاً وكثيراً أنه عدواسرائيل، في اجراءاته الموغلة في البربرية، من النمط الصدامي خصوصاً، ومحاولة محو آثار شعب لم يغادر موطنه(أشدد هنا على ضرورة قراءة كتاب "ياسر فرحات" الصحفي المصري، وليس غيره: سجناء بلا قضبان" محنة الأكراد في العراق"، ط1993/1)، وهكذا تمت أو تشكلت ربيعة بقرارسلطوي، وكوحدة إدارية سنة 1960، وذلك من خلال إقامة ست عشرة مستوطنة بداية، ثم زادت إلى جانب سواها في المناطق الأخرى كردستانياً.

لاشيء يوحي بالحياة! تلك العبارة الأولى التي ومضت في متخيلي، ونحن نتقدم شرقاً، عبارة، لم تبزغ، أو تنبثق بضغط من الحالة التي كنت أعيشها، وإنما من الجغرافيا التي أعلّق عليها لعقود طويلة، ونحن في الجوار، ونحن عشنا أحداثها بصيغ مختلفة، واكتوينا بآثامها بأشكال شتى، لاتحتاج توضيحاً.

تذكرت قولاً بليغاً لـ"ماركس"، وهو (في أوربا تكون الأمطار مسؤولة عن المواسم، بينما في الشرق، تكون الحكومات). هل كان مستشرقاً استعمارياً كغيره، أم نطق بالحقيقة، وهو يركز شرقاً على الحكومات ودورها؟

لاتبدو الأرض، وهي تمتد إلى مسافة بعيدة، للتواري في فسحة الأفق، على مايرام، إذ أن لونها لايدل على عافية التربة، ولا المرئي سطحياً يشفع للمترامي على مد النظر، وقد تغطى بالرمادي، حتى الأخضر في انحسار يناعته كشف عن خلل لوني، وقد تلمست في النباتات الشوكية(هل كانت العاقول، العوسج، الخرنوب..؟) خصوصاً بعضاً من سيماء المكان ، بوصفه وحشي المكان، أما البقع المزروعة بالقطن، وتلك الأصغر مساحة بالخضار الصيفية، فلا أعتقدهما قادرتين على اثبات استواء الأرض في الجوار، حيث كل شيء لايوحي فقط باعتلال معين، وإنما بوضع مختل جغرافي له تاريخه المستفز.

بدت صوامع الحبوب المرئية تماماً من جهة الحدود التي عبرناها، بلونها الرصاصي، مخيفة وسط المكان الموغل في الصمت، القفر، الأعزل من كل قوة(هكذا أقرأ المكان، وأراه بالصورة التي أبصره فيها من الداخل)، ثمة شعار بالأسود، دال على تاريخ أسود، لم تفلح محاولة من أراد محوه، في إبقاء العبارة/ المفارقة: مقروءة، لكأنها تفصح عن هباب المكان ، هوامية أرواح ساكنيه(كل الأمة تنادي صدام رمزبلادي)، هكذا كان الشعارالحرفي، يعلوه علم البعث الصدامي بـ(اللـ:هه) الأكبر)! الشعار بقي شاهداً تهكمياً على مغذّي الشعارات، في بلد اتخم بالشعارات، والأوسمة التي هي بدورها كانت شعارات، والناس(المعسكرين المجيشين) حملة شعارات بدورهم، ووطن انخسف تحت وطأة الشعارات، وبدا الرمز: السخرية المركبة في تاريخ أريد له أن يكون شعاراتياً، والمكتوب المدعوك هو نفسه كان شبيه شعارمهلهل، ولعله في بقائه هكذا، لإثبات بؤس التاريخ المصنوع شعاراتياً، ولأن الأثرالشعاراتي المعدي، لايمحى دفعة واحدة. فنحن هنا بصدد (مرض فقدان المناعة المكتسب)، أي الشعور بالعافية الفعلية، اللاشعاراتية، والتي لاتتفعل، إلا بعد مقاومة ذاتية من الداخل، ومقابل حقيقي. ومايجري في العراق من حالات زلزلة، كنوع من

تأكيد الحنين إلى قائد الأمة الشعاراتي المخلوع، يعززما ذهبنا إليه.
الذين تم استيطانهم هنا(أم علي أن أقول: إسكانهم؟)، من قبل الحكومات العراقية السابقة، وخاتمتها غير المشرّفة تاريخياً، في بعثية صدام(المهيب) النافقة، وبطانته المسيئة إلى تاريخ كامل ممهور باسم العراق، كان عليهم أن يدفعوا ضريبة التحول، إلى ما يشبه فئران تجارب النظام ومفترسة، وينسلخوا كلياً عن إنسيتهم. هكذا ترسم الحكومات سياساتها، وهكذا تتجلى الجغرافيا محمولة بأوزارها، في كيفية إدارة البلاد، والتحكم بمصائرساكنيها.
فالذين رأيناهم بالعين المجردة، سواء كانوا قريباً من الطريق العام البادي البؤس تعبيداً، وهم في بيوت طينية، أوخوص بأحجام مختلفة، وقد تبدت السقوف القصبية مرفوعة على أعمدة خشبية أو طينية مائلة، أو بعيداً عنه، في بيوت متفاوتة الأحجام وطرز البناء، حتى مسافة كيلومترات عدة، وكأنها بنيت على عجل، أفصحت عن مفارقات، تخص المقيمين في المكان، باعتبارهم حديثي العهد به، وكانت المفارقات الأكثرلفتاً للأ نظار، متمثلة في القرى التي مررنا بها، تلك التي بنيت بقرارات حزبية بعثية قيادية عليا، وقد استقدمت أعداداً غفيرة من العرب، إذ ظهرت مقفرة، مهجورة، وقد رفرف على أعلى بناية في كل قرية مستحدثة العلم الكردي ، ورؤي مقيمون حديثو العهد بالمكان ، قيل لنا أنهم أكراد، بل كانوا هم لاغيرهم، فالعلم دال عليهم، وقد عادوا إلى حيث كانوا في الأساس، بعد دحر نظام صدام،(أعني الذين بقوا على قيد الحياة)...
لست هنا في عارض ما يسمى بـ(الاتجاه المعاكس)، لست متهكماً على من كانوا هنا من العرب، وقد جيء بهم بقرارسلطوي طاغية ، لتعريب المنطقة كاملة، وبالقوة الفارطة، بقدر ما أنا بصدد النتائج الوخيمة المترتبة على كل قرار طائش، تتخذه سلطة استحواذية، تعسفية، تمارس تقسيمات قوموية عنصرية للجغرافيا، وتفضيلاً اعتبارياً موجهاً لجنس على آخر، دون التفكير البتة فيما يمكن أن يحصل لاحقاً، كماهو الوضع العراقي ، وفي المحيط الجغرافي الكردستاني، وبنوع من الصلف الذي لايرد، ولا يناقش . فالبلبلة الجغرافية، وحالة الزعزعة الديموغرافية، عبر استئصالات سكانية معينة بدقة(الكرد في عمومهم)، عن سابق تصور وتصميم، بوصف الأرض المملوكة عربية منذ الأزل، ومن سكنها مملوك جنباً إلى جنب مع الأرض تلك، فيتم التصرف بالاثنين، كحق لايعترض عليه، كل ذلك، بسبب سياسات ضيقة الأفق، شرنقية، تدفع الشعوب في النهاية فاتورتها الكارثية، أي تكون هي الخاسرة بروحها، أعني الأفراد الذين تماهوا ويتماهون مع أي قرارتسطي استئصالي، كالذي عهدناه بدءاً من النصف الثاني، من القرن المنصرم من تاريخ العراق الدموي، وهو تاريخ اعتبره الكثيرمن منظري القومية العربية، ورموزها ومداحيهاالعفلقيين، وإن لم يسموا تمام التسمية: نهاية التاريخ العربي في البوابة الشرقية.
تنقسم الذاكرة على نفسها، تتبدد في عراء السلطة العارية في الأصل، وتنتقم من حامليها، بنهشهم من الداخل، وقد تفرقوا أيدي سبأ، كما هو/هي حال الذين استوطنوا القرى المعتبرة نموذجية، بوصفها مكرمات صدام ، وهبات البعث العتيد، في فردوس العرب المنتظر، وهي قرى، لاتخطئها العين الناظرة، حيث تمتد متلاصقة، كما لو أنها ثكنات عسكرية متكاتفة(هي معسكرات الفتح، كما يبدو!)، والذين تأرشفت خاناتهم الاعتبارية، استحالوا عساكر محاربين متقدمين، ومجيشين من الداخل، وقد تم تسليحهم، وتبغيض الآخرين. هكذا تم استعداء الجغرافيا وإغراقها بدماء الضحايا، في مذبح القومجية الذي يغطي حدود العراق كلها، وفي الجغرافيا الكردية خصوصاً، وحقن التاريخ نفسه بكل الصور والشعارات التي تخرج العربي من حيّز التاريخ، وفي الوقت نفسه ترتقي به، وقد تجسد في القدوة المثلى والخرافية: صدام حسين. هكذا يدفع الطغاة بشعوب كاملة إلى محرقة صنعها وهم المعتقد، ووهم الأصل المزيف طبعاً. وحدها الأرض تشهد على ما ذهبنا إليه، رغم أن "حنظلة" العربي القومجي لم يصح من غفلته بعد،لأن المكان لازال يؤسره ، بوصفه مالكه الوحيد الأوحد، لهذا يخسر التاريخ أكثركلما تأخرفي استعادة وعيه.

6- " ياشراعاً في نهر دجلة بادي كم وكم كماً باغتتك الأعادي"

كم كانت المسافة التي قطعناها بدءاً من (استراحة انتظار الآخرين) كما سمَيتها، وانتهاء بنهر دجلة، الحد الفاصل كما تبدى لي بين نقطة وأخرى؟ لقد كانت مسافة طويلة بامتياز، اعتقدتها تجاوزت المائة كيلومتراً، لابل وأكثر من ذلك، عندما نقدر ماقطعناه نفسياً، وقد بدا الزمن غاية في التخلخل. فمن جهة كانت متابعة ما يقع في محيط النظر، وبفضول طفلي، تلغي الشعورالهندسي بمايقع في محيط النظرذاك الذي يشدَد على توقيف الزمن لاشعورياً بغية استجلاء أو استقصاء الخراب الكامن في الأعماق الأرضية، وحيث المكان البادي التمزق من جهة أخرى، لأسباب مذكورة، يفضي إلى أكثر من معاناة استثنائية، تستحضررموزها وضحاياها وشهودها وكتبتها، فالزمن يكاد يعود بالمرء القهقرى متجاوباً مع الحالة النفسية، وكأن ارتحالاً يتم في داخل المكان المذكور: المستباح بجلاء، والذي يفصح عن زمنه الخاص به، فلا يعود للزمن المعتاد بالتالي، حضوره المعرف به حسابياً، وإنما تبدو ذاكرة القراءة والصورة المرئية والمتخيلة، نقاط اسناد واستناد، في مسعى اكتشافي مضاعف، لإعادة تركيب المبعثر هنا. ومن جهة ثالثة، كان ضغط الزمن يترادف مع الحركة الشاقة والمتعبة في الطريق السيء، والذي يعطي صورة فعلية عن مدى التنكيل بالمكان الموهوب بثرواته: باطناً وظاهراً، إذ التمعين في الموجودات لزمن طويل يضغط على الجسد، ويعيده إلى ما انطلق منه، ليتأكد من حقيقة الجهد المبذول زمنياً. فالقرى الطارئة بتركيباتها الدخيلة على المكان أو المقحمة فيه، وشعاراتها التي هي ترجمان عملي لغرزها في المنطقة هذه،، والمواقع المختارة ... تخرج المرء من التاريخ المقحم عليه بدوره، وتدخله في تاريخ القوة وسياساتهاالنافذة والالتفافية، وقد بلغت في عجرفتها الحد الذي لاحد بعده، من خلال ممارسة غلَ تاريخي، اجتماعي، سياسي، عقائدي، عنصري، وفق مبدأ، هو الأخير في قائمة المبادىء التصفوية لـ"الآخر": اقتل، أو شتَت المقيم في المكان(الكردي دائماً هو المقصود هنا)، وحل محله في كل شيء. هكذا اعتمدت سياسة تعريب ربيعة الموقرة(أعني التي مررنا بها وقطعناها، وليست وحدها المعنية بما ذهبت إليه في سياسة التعريب الوبائية الجائحة)!وهكذا بدا الزمن الذي عشته في مستوى التخريب المنظم للجغرافيا وأهلها الكرد، وبدوت أنا، في بعض الحالات ، في الحد الأدنى من الشعورالواعي بالثقافة التي امتلكتها. إذ أن الهمجية المدربة والمحددة بأسمائها، في نموذجها البعثي الصدامي العفلقي، وبالعين المجردة، تعيد المرء إلى عصر البدائيات، واعتمادالصراخ والجسد بغرائزه : القيمة الوحيدة المعتمدة في التعامل مع الخارج، مع الآخرين، وأعتقد جازماً أن النظام البعثي الصدامي المعفلق السيء الصيت، لم يرجع رموزه المعتمدة في تصفية الكرد خصوصاً، وعربه وأعرابه المعتمدين الذين كانوا مطاياه وضحاياه في النهاية، إلى اعتماد أساليب بدائية همجية فقط وكفى، بقدر ما حول كل الثقافة المكتسبة التي عرف بها العراق حديثاً وعلى أصعدة مختلفة، إلى أكثر الأدوات مساعدة على تغذية وتقوية الهمجية تلك. هكذا تقضي الهمجية على معتمديها، ولكن بعد أن تشوه آليات العمل بـ(موجات إلفا) الإنسية!

أثارني منظر النهرمن بعيد، نهر التاريخ التليد، حيث من الجهتين، لاح لي العديد ممن يقصدونه ، بغية الترويح عن النفس، وثمة سيارات كانت أشبه بمرايا، وقد عكست ضوء الشمس في جهات عدة، وهي تفصح عن جدتها. كان المشهد أقرب إلى الصمت إيمائياً، فهم في الأغلب، كانوا يتحركون سريعاً، ينتقلون من طرف إلى آخر، بعبَارة تشكل الجسر المتحرك في النقطة تلك(وتسمى عند الكرد ممن كانوا يعملون عليها بـ dobê) ، وهي تدار بقوة محرك ديزل، كماشاهدته عن قرب، وقد كان هناك أكثر من عبارة، يمكن لأي منها حمل سيارة صغيرة، وبعض الركاب، وعبارة أكبرمن البقية، بوسعها حمل أكثر من سيارة متوسطة الحجم، وهي في مجموعها لاعلاقة لها بهندسة المكان، إنما بهندسة الحاجة، وطارئيتهاإلى حين.

وعندما أقول (طارئيتها)، فأنا على وعي تام بدلالاتها. إذ أن كل مايقع في محيط النظر، يمكن تفسيره أوتدبيره أوتقديره (طارئياً)، طالما أن النظام المعتمد في تدشين وتسوية العلاقات مع الآخرين(مع شعب بكامله)، مع وجود تفاوت كبير في النظرإلى مكونات وأطياف هذا الشعب، اعتبرويعتبرممن يسعون تحت يافطة (المقاومة)، ولا أقول أكثر من ذلك، في وعي ترهيب الآخرين، أن ذلك هو الاسلوب الأمثل تاريخياً في بناء الدولة العروبوية العصرية، كون الأعداء بكل تلويناتهم داخلاً وخارجاً، يتربصون بهم الدوائر، فالطارئية إذاً ضرورة بعثية قوموية ، كفلسفة فرضتها خصوصيات الواقع المعاش وضرورات المكان أو

الجهة المتمثلة في حراس البوابة الشرقية(كما عرَف بهم هكذا ، واستغباء الغير، لأنها تستدعي اليقظة والحذر. الطارىء وعي المسؤولية بتفرد؟!

لست بصدد عمل جردة كاملة بمن كانوا هناك، وأين كانت وجهتهم، وماهي ماركة سيارة كل منهم..الخ، فكل مسعاي المختصر، هو رؤية المفارقات المكانية باستمرار، هو البحث في الجاري التعتيم عليه، والدخول في حوارصامت، و هو يفضي إلى كتابة، لها موقعها، وقد أضفت على المكان بعداً آخر، مغايراً لماهو عليه.

يعرف نهر دجلة باسمه العريق، كما أسلفت! إنه النهر الكبير،الميمون، الشاهد على تشكل حضارات ، على بقائها، واندثار الكثيرين ممن كانوا معروفين بها، أو تداخل أسمائهم عبرها، إلى حد ممارسة الدس والتلفيق، لإبراز طابع حضارة أكثر عبر أسماء منتقاة، وتسييد تاريخ من نوع خاص، لعبت سياسات الأنظمة المتعاقبة في المنطقة كلها، وليس في العراق فقط، دوراً كبيراً وفظيعاً في محاولة توجيه دفة التاريخ خارج سياقاته الطبيعية، وأشدد هنا على التاريخ الكردي، الذي يجري التعتيم عليه، وتبديده، طالما أن جغرافيته ممثل فيها، وطالما أن الكرد يجاهدون ما وسعهم جهدهم النظري والعملي، في إثبات حقيقتهم التاريخية والجغرافية معاً كغيرهم طبعاً، فالحاضر بليغ بشهادته هنا.

دجلة !هو أحد أنهار الجنة، كما تقول الميثولوجيا الاسلامية، فهو معرب بدوره ومؤسلم. إنها الميثولوجيا التي تشكلت عقب الانتشار الاسلامي، بالقوة في المنطقة، وبين الكرد خصوصاً، لأسباب لاداعي لذكرها(يكفي الرجوع إلى الأدبيات العربية الاسلامية التاريخية لمعرفة ذلك)، إذ ما أشبه اليوم بالأمس في الكثير مما يمكن عرضه واستعراضه، فالذين يتبركون ويتباركون بأسماء أسلافهم، من ذوي النعمة (في الفتح المعتبر)، وقد أطلقوا أسماءهم المعتبرة الضادية، على أمكنة كثيرة وصلوا إليها ودانت لهم، وعلى ذراري من قتلوهم بوصفهم كفاراً، ولم يستسلموا لهم، واعتبروا الأرض غنيمة حرب، وهبها الله لهم(هكذا يمكن قراءة سورة "التوبة" حرفياً، وأردفها بقراءة سورة"الأنفال" المعتبرة راهناً بذاكرتها المولفة عروبوياً، رغم أنها تسبقها في الترتيب)، هم أنفسهم يؤكدون ثبات التاريخ، إذ يسعون إلى التشبه بأولئك، وكأن الممارسات التي بذلت في العسف المكاني والسكاني الكردي تحديداً هنا، سنَة جهادية متبعة، وإدخال نهر دجلة في الجنة الاسلامية(وليس سواها) بعد أسطرته، يساق في المنحى المذكور.

لكن الناظر نظرة حياد، يلاحظ جيداً، أن إفقار المكان، لا يعادله إفقار آخر، غيرإفقار تاريخه المحلي، ممثلاً بالذين كانوا فيه أصلاً، حتى بالنسبة للنهر، تبدو الشهادة المكانية صارخة: شح وجود الشجر(بسبب استمرارأعمال"الفتح/الذبح" الصدامي قبل سواه)، إذ لايعقل أن نهراً من أنهار الجنة، ويكون موصوفاً باعتداد، يتجلى في مثل هذا البؤس، ولاحقاً يكون نهراً، ماؤه: خمر غيرمسكرة وحليب مغذ، ومنتجع للجنتيين والحور العين، وموطن أشجارتثمر بدورها ما تشتهيه أنفس الجنتيين، حتى الحور العين بالمقابل!

لايظنن أحد أنني أتهكم هنا! إنني أشدد على ماقيل، وتم تثبيته، ومنه وإليه أيمم وجهي المعرفي، وأناقش. أين ذهب الشجر؟ لضرورة أمنية طبعاً، وحتى لايستفاد منه في أي شيء، إنه في معرض شبهة، من جهة إمكانية التسترعلى المقيمين في المكان، أو دعمهم بصورة ما، وحتى النهر في خضرته الداكنة، يبدو شديد الوهن، هو نهر بعيد عن التخديم(كيف وهو مشبوه؟)، فقط رؤي على مبعدة أمتار معدودات، ركائراسمنتية عالية، كان من المتوقع أن تكون مشروع بناء جسر،إلا أن الركائز لم تكتمل، لقد بدت مناظر تجريدية، سريالية تماماً، ولغزية في الوقت نفسه.إن اقتلاع الذاكرة عمل يتجاوب تماماً مع إجراء تغييرعنفي في المكان الذي يشكل مسرحاً لها.

كل شيء بحسبان! لابد من نزف واستنزاف المنطقة بما فيها وما عليها، بكل الوسائل، مع إهمالها، حتى لاتكون ذات يوم، قاعدة انطلاق عملية لتطويرالمكان. لكأن المكان خير شاهد على غربة المعنيين به بالقوة.

والمفارقة الكبرى، تكمن في أولئك الذين لازالوا يشدَدون على أصالة وتأصيل(عروبة) المكان تاريخياً، ويجري كل هذا الحقد المكاني. نعم أقول : الحقد المكاني! فالأمكنة في الميثولوجيا الاسلامية متفاوتة القيمة(أحيل القارىء إلى مدونة المسعودي "ت 346ه" المؤرخ العربي الاسلامي الكبير، المسماة (مروج الذهب) لمعرفة ذلك)، إن الأمكنة الأكثرمقتاً هي التي تبدو غريبة بأهلها، وهنا يلتقي المكان وأهلوه في خانة

تقييم أخلاقية واحدة(سفلية بالتأكيد)، وعبرممارسات تطهيركاملة مثاب عليهاعالياً، ولعل السياسات المعتمدة من قبل جلاوزة المركزفي النيل من السكان الأصليين، ومن المكان نفسه، تفي لمعرفة نوع المعتقد المعمول به لتحقيق ذلك.

هل أمارس حقداً قومياً مضاداً؟ لا أحقد على أحد، لست حاقداً على أي كان،أقولها دون استثناء حتى لوكان من نوع(حفظه الله ورعاه:صدام حسين، الذي يستحيل ذكره وتذكره دون الشعوربالاختلال البنيوي في العدالة الكونية الإلهية، حين التذكيربفظائعه التي لاتتطلب شهوداً لتأكيدها). وحدهم الضحايا قادرون على ممارسة الحقد إزاء جلاديهم ورمزهم الأكبرالمذكور، أو تحديد اسلوب الرد، ووحدهم أهل الضحايا قادرون من موقعهم على الإفصاح عن حقدهم الذي ترتب على العنف التصفوي الموجه ضدهم، في من أبيدوا، وتم تشتيتهم بدورهم، لست الدخيل لأتحدث باسمهم! إنني أتحدث عن الفعل الأخلاقي الذي يشكل العنوان العملي لأي كان ، في تعامله مع سواه، وما يفضي إليه من نتائج وخيمة زنيمة. صدام بكل مقلديه ومداحيه والمتماهين معه حتى الآن في الداخل وفي الجوار وفي جوار الجوار، لم يكن وحيد ذاته، لم يكن القائد المتفرد في التاريخ، وفي حياة شعب، لم تفق نخبته المعتبرة من غفلة التاريخ، لمعرفة حقيقة أعتبرها ساطعة، وهي أن ماجرى، يعيدنا إلى تاريخ معاش، وتربية معاشة، وفكر معاش، وعقيدة معاشة، ووقائع دموية حية في ذاكرة(الأمة) الممثلنة، بدءاً من موقعة(الجمل على الأقل) الداخلية، وانتهاء مؤقتاً بـ(الأنفال) المروعة، في الخارج، بضحاياها الكرد في المجمل، حيث تمجيد العنف مشهود له، وآمل أن تكون الأخيرة. هل أنا متحامل هنا؟.

ثمة ضرورة للتنقيب في بنية الثقافة المتداولة والسائدة، وصدام حسين، شكل حلقة من حلقاتها العملية، وهي ليست الحلقة الأخيرة كما أعتقد، إذ رؤية محلقة في المساحة الجغرافية والديموغرافية في المنطقة، ربما تري أن هناك احتمالاً لظهور حلقات أكثرسفكاً للدماء، وشغفاً بالمحيطين بهم، وقد تبددوا بطرق اصطناعية لاحقاً.

يبقى النهر، تاريخاًجارياً، وهو تاريخ مخيف، في بطئه، ودوامته، وتياراته المفاجئة، وخموده. إنها حالة الانتقال من طور إلى آخر بالمقابل، والعبور يتم عبره، وعلى قدر أهليه، قد يتحدد عطاؤه. ولكن دجلة هذا، ماالذي أعطي له، ليعطي الكثير مما عنده، وهو في رثاثته المركبة؟

هذا يتوقف على القادم من الأيام!قلت ذلك، وأنا أتفاءل بأخضره المتبقي، وأنا (رهين) عبَارته. يدي على قلبي.

7- المسير المختلف

في الوقت الذي استأثر النهرباهتماماتنا جميعاً، وبصور متفاوتة لبعض الوقت، كون المكان بتداعياته التاريخية، يفضي إلى عوامل مختلفة، يستشرف كل منا ما يعتقده ويعتبره عين الصواب التاريخي، وهو يقيم علاقة من نوع خاص بدوره بين التاريخ والجغرافيا، مسطراً إياها، وفق مقاييس ، يلعب الانتماء المكاني والرهان عليه دوراً كبيراً في ذلك، وبحسب الرؤية الثقافية: التاريخية، السياسية، الاجتماعية، الجمالية، الأدبية...الخ، كان في الطرف الآخر منه إجراءات أخرى تتم، من جهة المعنيين بأمننا، من أخوتنا الكرد. لقد حل آخرون محل الذين رافقونا، في الشوط الأول من الطريق الذي يشق جغرافيا هدرت قيمة بمعان شتى، ولعله كان الشوط الأكثر إقلاقاً لنا. هي الإحداثيات المكانية التي تذكر بالنظام السابق المقبور، أعلمتنا بذلك، ولم تكن طبعاً: الأكثررعباً بآثارها، وحده التوغل عميقاً في كردستان العراق، هو الذي يشي بجغرافيا الرعب المذكورة ومفاعيلها المكانية التي لاتمحى.

الذين (استلمونا) بدوا في هيئة مختلفة، فزيهم المرقط تجلى بلون الأرض الجامع بين الرمادي والأخضرالمائل إلى الغامق، فهو إذاً لون مركب، لايخفي فضيلة تمويه لابسه، إنهم تابعون لحكومة كردستان العراق، بيشمركيون. وهذه الكلمة التي تستثير البعض وربما الكثيرين، تستمد مشروعيتها من تاريخها، تاريخ تكوينها وتناميها كحقيقة معاشة، ممارسة، وليس افتراضية. (تعني البيشمركة: التضحية بالروح، المغوار، المقدام، المفتدي...الخ)، والبيشمركيون كانوا في واقعهم نتاج تاريخ دقيق، أو هم صنعوا تاريخهم

هذا، فالذي كان ينخرط في سلك البيشمركة، يعني أنه تخلى عن حياته السابقة، وأن نظره إلى الأمام يكون، وهو مهيأ للموت في أي لحظة، ولهذا، يتطلب، كما أعتقد، الحديث عن البيشمركة كمفهوم وتاريخ وعلاقة مكانية، وضع دراسة خاصة، مشبعة بالأبعاد القيمية والاجتماعية والنفسية والتربوية والثقافية الخاصة، إن تاريخهم في مواجهة تاريخ حافل بالرعب وأعمال الإبادة، تمثل في النظام العراقي وعساكره الصداميين وأزلامه بصورة خاصة، ومواجهة الأنظمة السابقة، محتفىً به هنا.

لقد كان هناك يقظة تامة في استطلاع المكان والجوار، وكذلك الطريق الذي كان يتصاعد بنا ويتهابط، يتحلزن، ويتكور، وينفتح مستلقياً بكامله منفتحاً إلى الأمام أحياناً إلى مسافة طويلة، ثم يبرزوكأنه مبتلع داخلاً ، من خلال التفافة جبلية، أو انعطافة حادة، أو صعود تسلقي، وانحدار ضاغط يرتدع بفم واسع الشدقين لواد يتمطى، في مشهد سينمائي، أعتقد أن كلاً منا، عاشه، وكأنه في أرجوجة تهادت بين الحين والآخر.

هل دخلنا العمق الكردستاني، أم فاتحتنا كردستان العراق ببعض جمالياتها الطبيعية، ومتغيراتها القسرية؟تلك الجماليات التي تبدو وكأنها تسعى إلى تجاوز(آفاتها) المبثوثة فيها، وممارسة حياتها كما كانت: كردستانية محضاً.

بدا الطريق، في حالات كثيرة، رغم ضيقه، أكثرأماناً، والمشاهد التي كانت تترى، عبر لقطات مقتبسة مختلسة، كنت أنا، كمحلق بروحي في المكان، شديد التمعين فيها، محاولاً أرشفتها بصرياً على الأقل، وهأنذا أستعيدها أم أعود إليها، أم أننا نمارس نوعاً من الاتفاق المرضي لطرفينا، في استعراض ماكان بطريقة إخراجية خاصة ؟

يشعر المرء بصلابة المكان، وذلك التنوع التضاريسي، إضافة إلى مسحة تبرز أو تخف أحياناً، من استعراض الطبيعة لودائعها، أو صوفيتها المجاهدة المعكوسة، وهي تتزيا بأخضرها المتعدد المقامات، في مساحات متفاوتة.

إذ لا يمكن للمرء أن يقطع تلك المسافة الطويلة ، غافلاً عما هو فيه، والتي تعتبرواقعة في محيط النظر، أو على مد النظر، أعني بها تمتد لمسافة كيلومترات عدة، ثم تطوى بتأثير من تلة تعترض الطريق ، أو واد يلزم بالانحراف، أو أي عائق طبيعي، بقدر ما يتطلب الوضع التنبه إلى وعورة أو حتى خطورة الطريق، ونحن نقذف بأجسادنا خلف نظراتنا، بحثاً عن المفارقات المكانية، ومدى قدرة الطبيعة، في إحداث التلوين الهندسي: ارتفاعاً وانخفاضاً، انطواء أو انبساطاً، استقامة محدودة أوانعطافاً. لابل بدت التفاوتات في المرتفعات والمنخفضات في مسيرنا المختلف أكثرلفتاً للنظر، حيث الصراع المكاني تجلى بين مرتفع وآخر، أومنخفض يوقع بالنظر دانياً وسواه، دون أن يكون ذلك بمعزل عن العلامات الطبيعية المتماوجة بحسب قدرة السوق على التثني أوالتحرك يمنة أو يسرة، وأعني بها الأشجار، وإن لم تكن كثيرة، كما هو متوقع بالنسبة لبيئة تنأى بنفسها عن أن تكون موازية لمستوى النظر، وكل ذلك يضفي على التجليات الطبيعية، ذلك البعد الطارىء والشفيف، أي الفني الاستثنائي، فلاشيء يمكن للابداع أن يكون محرضاً كالذي نتبصره، أو مفجراً للمكبوت، والشعوربلمسات ذلك الكائن الخارق واللامرئي في الطبيعة، من جهة الرؤية، عبر الفراغات المختلفة، فالتلوين التجسيمي يعيد الناظر إلى حالة من المغنطة الداخلية، حيث المكان وحده بمتوالياته المتفاوتة، من وهدة وتلة وقمة مغزلية وهضبة تشهق بالأرض عالياً، وواد وحفرة ومنخفس، يشد الأرض إلى الداخل، ليكون ويكوَن العمل السيمفوني الصامت والبليغ بصرياً فاعلاً فعله، إنها الطباقات الموسيقية الطابع تلك التي تستحضر الشيء ونقيضه، ويكون بمستطاع المرء الشعور بالامتلاء المكاني روحياً.

من الصعب الوقوف للتعليق على المرئي واللامرئي اللاحق تركيباً في إثره، أو تبادل الكلام مع المجاور، طالما التوحد مع التجليات الطبيعية مستمرعميقاً أو في الفضاء الرحب، وخصوصاً بالنسبة للقادم الجديد، والأكثر خصوصية هنا، إذا كان المكان المشكل مدى للنظر والتأمل، حامل تاريخ طاغية، ويتجسد في المتغيرات الممكن التعرف على أبعادها وغائياتها.

لقد كان يمكن تصور كيفية تلغيم المكان وتبديده أوالاستحواذ عليه بتلك القرى المعتبرة نموذجية، وقد توزعت في منبسطات أرضية عالية نسبياً، وأحياناًيبرز الطريق اللساني الشكل والممتد والمتقطع، أعلى من

مستوى هذه القرية المستحدثة، وقد تجلت بطابعها الاسمنتي والإطار الخدمي، دون أن تخفي قرابتها للمعسكر، بشكلها المشار إليه سابقاً أو لونها الواحد الموحد الأوحد، كما كان لون النظام في اعتماده العقائدي العروبوي العنصري تماماً، وانتشار محارس مختلفة، ومعسكرات تبدو ذات متانة في علو أسوارها، وآثار الشعارات القومية ونخويتها والعلم المجسد للقائد المهزوم بألوانه والعبارة التسويقية المجيّشة لوعي المأخوذين بسحر بيان القائد، وهي تعطي فكرة عن الخوف من المكان أكثر، ولكن الأهم من ذلك، عن الاغتصاب اللامحدود للجغرافيا، والإيقاع بالمكان والذين اعتقدوا في تجاوبهم الاستغوائي، أن دخولهم جنة الله، يكون عبرما تم إحلالهم فيه، كما نصت أدبيات حزب البعث العروبوي الصدامي وبطانته، في كيفية ابتلاع الجغرافيا واعتبارها مغانم(قائد الأمة)، واستئصال الأهلين الكرد.مفارقات تبطش بالمرء ممن يوازن بين وجوه منزاحة بآلة الموت الأكثرإرهاباً ووجوه مستقدمة، استأمنت على ما وصلت إليه، دون الشعور بهدر كرامة الانسان، والجامع المشترك كثيراً، وأعني به: الاسلام.

قد لايكون مجدياً الحديث عن الوقائع التي خلخلت المحيط الجغرافي من خلال مركزة السلطة، وتفريد الحاكم المؤله، ومنح صلاحيات لاحدود لها لمن يمثله، بخصوص اعتماد واختيار الطريقة الأنسب في التعامل مع الكرد، من جهة الأكثر فاعلية في تقليصهم العددي ، ومحاولة تبديدهم الأبدي ، حتى خارج كل مكان ألحق بالمشروع الاستيطاني، يبقى الحديث هنا أكثر نجاعة، أعني أكثر رفداً بالمفارقات المؤلمة تاريخياً، رغم أنني تناولته أو أثرته في أكثر من نقطة، وأعني بها عنصرية المكان بامتياز. الضرورة تحكم هنا!

هذه العنصرية، وحتى لايكون للكلام منحى إنشائي، وابتزازللمشاعر، يمكن التشديد على جملة الأفكار التي تشكل منظومة قيمية واحدة، وقد تكونت بعد دراسة وتمحيص، وتبيان ماهو عملي فيها، ومن هو المستفيد منها وجهته، فيأتي المكان من خلال تنوعه الديموغرافي، أو التحديد السكاني، من جهة العنصر وانتمائه، وبالتالي الإحالة إلى المكان الذي يخصه، فتكون بعثرة وجمهرة، لصالح القائم بتكوين وتغذية العنصرية المكانية تلك، بصور شتى.

من السهل التأكد من المفارقات المكانية- كما أسلفت- انطلاقاً من معايير السكن أو البناء، وطرق التأسيس والعلامات الفارقة.

فالقرى تبدو للناظر، وكأنها هي ذاتها مرابض متوثبة، ومراكز استطلاعية متقدمة ومسيطرة على الجوار، طالما أن اختيار المكان بغية التمركز فيه أواستيطانه، لايتم إلا بمسح جغرافي مترافق مع مسح سياسي أمني وتبيان الفعالية النافذة أو الضاربة لكل ذلك ، والقرى التي تنتمي في نسبها، كقرارموقع عليه إلى الحاكم الأوحد عروبياً في البلاد، تتجلى في غاية العجرفة المعمارية، إنها هي ذاتها أشبه بشريط سوري عال، وانفتاح بادي الخوف على جهة واحدة،، كما يستنتج من التكوين الهندسي، البيوت الاسمنتية كلها متشابهة، ثمة نمطية متكررة في الارتفاع والامتداد الطولي والعرضي والمنافذ الخارجية، والخزان المائي، تتقابل مع النمطية القاهرة ذات الدلالة المخيفة المتجسدة في المستوطنين، إلى درجة أن الناظريمكنه تصور حالة الاستنساخ العقائدية للجميع، لابل كان هناك توجُّه، حيث يشكلون كائناً واحداً، ليس من ناحية القوة الآئتلافية، وإنما من جهة الاختزال، ليكون الكائن المختزل هذا محكوماً بالأوامر، ولهذا، بقدر ما تبدو الصورة استحكامية، تتبدى في غاية الهشاشة، حتى بالنسبة للقرى، التي أوحت للمستقدمين إليها، أنها بوسعها أن تحميهم من عاديات الزمن (تحميهم من خوف ، وتأمنهم من جوع) في ملك صدامي لايبلى، برزت رثاثتها، طالما أن اختراق أي منها يعني اختراق الجميع، وأعتقد أن الهروب الجماعي للمستوطنين، بمجرد تناهي نبأ الهجوم على جلاوزة الدكتاتور ومرتزقته ، كما رأينا في مواقع بدت محصنة، إلى مسامعهم، حتى لاذوا بالفرار، مؤكدين ذلك الشعور في العمق ، وهوحالة الإلفة المستعصية بينهم وبين المكان، وأنهم كانوا غرباء عن المكان، وحتى بالنسبة للعسكرالخلبي من الداخل، الذي استشعرانقلاب المكان نفسه عليه، وانفجار الذاكرة المكبوتة، تلك التي تستعيد مالا يشرّف أحداً بخصوص طرق استئصال الكرد أكثر من غيرهم.

لقد كانت المواقع المستولى عليها استراتيجية، وهي تستشرف ماحولها، ولكن مافات المعنيين بها، في

مختلف تسمياتهم، هو نسيان الذاكرة المكانية، والخلوص إلى ذاكرة مستحدثة مستقبلية،غير مضمونة استمراراً، وهذه حقيقة، أعتقد أن من الضروري التفكيرفي حيويتها ومدلولها التاريخي. وإذ أقول ذلك، فبغية التفكير خارج ماهو نمطي وأمني مرحلي وتشنجي، من قبل من يعتقد أن الوضع ليس كذلك. ولكن الدرس العراقي(وأحدد: الصدامي العفلقي أكثرمن سواه) كان الأكثرفتنة وتأثيراً في منظري القومية العربية، وسدنة العروبة الصدامية الطابع، داخل العراق وخارجه، وهم مأخوذون بالجغرافية الكردستانية المكتسحة. لكن التاريخ له حكمته التي لا تثبت على حال، ولعل مجريات الأحداث، والعصف المكاني، أفصحا عن أن الرياح لاتأتي ، ولم تأت، باستمرار، كما اشتهت سفن صدام، ومن يراهن عليه. هذا هو المسير المختلف، في بعد حكماني من أبعاده الفذة التكوين.

8- أراض تنبسط أكثر

أمضينا بعض الوقت مأخوذين بالمفارقات التي أتحفتنا بها كردستاننا هذه، في ذلك التزاوج الموفق منذ لحظة تاريخية غير مدونة في سفر التكوين الكردستاني بدقة، عبر الانخطاف ببدعها العريقة، من واد فسيح ينغلق سريعاًعلى غفلة، ربما في لعبة (غميضة) خاصة، مرتطماً بجدارأو عائق طبيعي أوسواه، أو أكمة أو تلّة أوقمة تسابق جبلاً صاعداً في السماء، هو حاملها، كمن يريد الانفصال عن مكوّنه المادي، رغبة في التقارب أكثر، لتتوقف عند علو معين كرأس حربة، أوقاعدة مغزل مدببة، دون نسيان المنعطفات، كما هي وجوه التاريخ، ذلك التنويع في السلوك الطبيعي، ربماجاء لإمتاعنا بالتأكيد، وإثبات فذاذة الاختلاف في إدامة الدفق الجمالي، وليس الموزاييك الطبيعي رفاهية ممنوحة لجانب دون آخر، وإنما لوجود لغة مسطورة، لايدركها إلا المسكون بهالتها.

الشعور بإكسير الروح متجلَ هنا، وقد استحال الجسد أكثرهرمونية من الداخل، وخفة ومعايشة للمرئيات الدقيقة، حيث فاعلية الشعور، كانت أكثر من كونها شعوراً لحظياً، لقد كان كامناً مترقباً على طريقته، اللحظة التي يمكنه الانكشاف فيها، وليس الحديث عن التحفة الكردستانية هذه، تلك، إلا التعبيرالحي الممثّل له، ليس من باب المباهاة بالمكتشف، إذ كل الأرض أتخيلها في تنوعها التضاريسي، وأستشعر وجودي الإنسي فيها، طالما أنني مأخوذ منها وبها في الأصل، إنما للتركيز على الحالة التي يستحيل تجاهلها أو نفيها، وهي المعززة كردستانياً، والمحظورة مؤسساتياً بوصفها النفي الرسمي لمن يريدها خلاف الاسم، أعني أنه يبقيها، مثلما أنه يبتغيها: خرافة تاريخ، ولهذا فإن التأكيد على مفردة (كردستاننا)، وبهدوء من تأخذه نشوة المعرفة وحكمة اللحظة المؤاتية، هو إجراء طبيعي خاص بالذات ككردي، مثلما العربي ، في حقيقة أمره ، يفصح عن نشوة صوفية تتملكه، وهو يصف شعوره بالغبطة إذ يرى منظراً طبيعياً في الأردن، وهو يماني، أو في الكويت وهو سعودي، وحين تحلّق به خفة روحه الكبرى مع (بلاد العرب أوطاني..).

أتراني هنا مغامراً صوب متاهة، مجازفاً بالقول فيما لست أهلاً له؟ ولكنني أفصحت عنه، وهأنذا أسميه ثانية، ليس منافحة ايديولوجية، أولاستفزاز ما، وإنما تجسيد لواقعة في كردستاننا هذه، التي أعرف بها قبل أن أراها تماماً، كما يقول أحدهم : وهذه بالاسم عربستاننا، أو تركستاننا، أو فارستاننا.

خرجنا من وضع شعري لندخل في وضع نثري! فالأرض التي انبسطت أمامنا، أعني انفتحت كبحر، أفصحت عن فسحتها المترامية الأطراف نسبياً، عن تجاوزها للمرئي وإغراء له . صحيح أنها لم تخل من منخفضات ومنبسطات بدورها، ولكنها كانت محدودة، وسهلة الانحدار والارتقاء، والطريق الذي ينحرف بدوره، كان أميل إلى الامتداد. وهدوؤنا البيولوجي أثبت ذلك واقعاً.

ثمة وهاد تترى، تتوسطها منخفضات، تضفي على تداخلها مسحة من التوحد أو التناغم في تجميل المكان، حيث الأرض في الحالتين تبرز تماوجها، أو وحام حداثة عهدها باسمها مجدداً منذ سنوات عدة، في سهول تتخذ أشكالاً مختلفة مساحة وطبيعة، بينما خلفنا سلسلة المشاهد الجبلية القليلة الارتفاع، والوديان الشديدة الانحداروآثار قرى منكوبة، وسواها خلت من أهلها الدار، حيث لم تكن داراً مؤهلة لها في الأصل،

والنتوءات الصخرية، وتلك التجويفات التي لاحت لنا، وهي تشي بغموض تاريخ، بأشكال طيفية تلوذ بها، وهاهي الأرض وقد انفتحت على نسق طبيعي جديد، تفصح عن مواهب مختلفة، تنفتح لها قريحتها، حيث لا يعود المرء يفكربالأشكال السالفة الذكر، ولا بالأشباح الليلية وأشباهها، وإنما بتلك الشفافية التي لاتتطلب تدقيقاً على مدى كيلومترات عدة من الجهات كافة. أراض مفلوحة، وأخرى تنتظر ساعة الفلاحة، وهي مأخوذة بوهج الشمس المرتفعة في كبد السماء، وقد خفت حدتها، وصار بوسع الآرض أن تغري عين الناظر أكثر بتأملها، دون تظليل براحة يد، أوتصغيرزاوية الإبصار العينية واتجاهها، لكأن هناك مخططاً وقتياً في نوعية العلاقة بين الكائن والطبيعة.

ليست كردستان جبالاً فقط، هاهي الأرض تقول كلمتها، فالجبال التي يتم الحديث عنها، تمتد أكثر أمامنا، لابل تنتظر مرور وقت كاف لتعرَفنا بسيمائها المكانية، وأشكالها وأحجامها، ولو بالنظر، ولنتعرف عليها، ونحن نستحضر ماقيل فيها، ومايقال حتى الآن(لايمكن الفصل بين الكردي وجبله، أو بالعكس)، فالعلاقة ليست تمثيلاً أو مجازاً، إنما توضعات جغرافية مسكونة، أخذت مع الزمن ترتسم في ذاكرة كردها ثقافةً من نوع خاص .

كردستان أكثر من كونها جبالاً، لا جبلاً واحداً، ثمة توزيع لأمكنة متفاوتة في مشاهدها، إنها مدى سهلي بالمقابل، فالأرض التي ترى منبسطة، تترك لكردستان في مرجعيتها الاشتقاقية ذاكرتها الميثولوجية، سحرالأصول الأولى، ولكن دون أن تفرض بحدودها، التي تنفرش أمام جبالها، داعمة إياها، مثلما تلك تحوطها من جهات عدة، وتتقاسمها من الداخل بالمقابل، بنوع من التفرد اللغزي أحياناً.

في الطريق الذي سلكناه، وربما كان الأصح : الذي تحركنا في إثر من تقدمنا فيه، كان كل منا مأخوذاً بجانب معين من الأحاديث (الطرقية)، وقد تنوعت، حيث كان بإمكان أي كان ، أن يستثير سواه لبعض الوقت، أو يعلق على حديث عابر، أويقتضب في القول، تجاوباً مع الوضع الذي نحن فيه، تلك هي أهواء وميول بوسعها أن تكشف عن الكثير من الخبايا من خلال كلمات أو عبارات تطلق في الهواء، تعرّف بجوانب حياتية أو سلوكية خاصة بهذا أو ذاك من ركاب الحافلة المتوسطة الحجم، وليس بوسع أي كان الانفصال عن الآخرين طوال الطريق الذي يبدو مسابقاً إيانا، أو داخلاً في طراد، خصوصاً وأن المحج يتركز على الحوارأو التحاور. ولكن يمكن بالمقابل الاسترسال وراء المتخيل، وتتبع الطريق الطارد والمطرود ، وما يحف به من الجانبين، إلى درجة أن الانفتاح على الخارج من قبل أحدهم، ربما يعطي انطباعاً عن خاصية سلوكية معتبرة لايجوز الإساءة إليها، ولعل وجود حراسة تخصنا أمنياً، أمدتنا بطاقة مضاعفة، في أن يندفع كل منا نحو ما يشتهي، تاركاً جسده وديعة السيارة المندفعة، ولكن موضوع الخارج المرئي صاحب الامتياز الأول، في تنويع الأحاديث والكلمات.

تبدو الأراضي المتتابعة على مد النظر: حقولاً تتجاور، تتداخل، تتحاور بمكوناتها، تتخاطب في صمت، دون أن تغادر أماكنها، وهي تشكل لوحة واحدة، تضم المحصود والمفلوح والمنتظر الفلاحة والبور...، هكذا تجسد العناصر الأرضية أطرافاً تناظر ما كنا نعيشه بصور شتى.، وقد تجلت الأرض أكثر إشعاراً بالأمان، في الوقت الذي كنت أحاول مد النظر إلى أبعد مدى له، لهدف استطلاعي. لكن من ذا الذي بوسعه إثبات أن الأرض آمنة، وهي محاطة بكل متربص يبتغي النيل منها، بسنوح أو انتهازالفرصة؟ كيف يمكن التأكد أن هذه الأرض التي تمتد أمامي، والقصيل المتقصف والمستقيم، دال على حصاد حديث العهد، عصية على الاختراق أمنياً، وأخبار الذين يستهويهم العنف واشتهاء موت الآخرين دون تحديد الهوية، وخصوصاً من كان كردياً منهم، لاتنقطع؟ أوليس هؤلاء الذين يتقدمون موكبنا(لأن هناك أكثر من سيارة، من عدا سيارتنا)، ويتأخرون عنا، وهم أعين يقظة ، في طريقة سيرهم، وتفحص الطريق والجوار، ونحن نراهم قريبين منا ملء العين المجردة، يفصحون عن ذلك؟ ألا يقال : أهل مكة أدرى بشعابها؟ ولهذا يمكن نسج قول موازٍ: وأهل كردستان أدرى بواقع حالهم، بجبالهم وسهولهم ووديانهم وجهاتهم وخصومهم؟ الأعداء ماداموا موجودين بكل تشكيلاتهم: حدوديين وجدوديين وجنوديين ووفوديين ووقوديين...الخ، فإن حرمة المكان ، كما تسمى لا قائمة لها، إلا بوجود القائم على حراستها، ربما هكذا عرف الكردستانيون بكل انتماءاتهم حق المعرفة، ماذا يعني أن تكون داخل كردستان، ومنتمياً إليها، وأنت تشهر كردستانيتك، ومن داخلك الطبيعي،

إن جاز التعبير ، كما يشهر الآخرون : عربيتهم وفارسيتهم وتركيتهم دون اعتراض، وفي وسط، مازالت، وعلى أعلى المستويات، مفردة (الكردستانية) إشهاراً بالعنف، وتقليصاً لسلطة المذكورين : العربية والفارسية والتركية، وتهديداً بتفكيك السلطة تلك، وحدودها المعتبرة تاريخياً مقدسة؟

تأملت الأرض، وهي في انبساطها المذكور، وهي مزركشة في مواقع مختلفة بآبار نفطية، مدى الخطورة التي تتهددها، تخيلت الذين عبروها حديثاً، عندما كان الكردي حالة حظر يتم قمعه على إثرها، مأخوذاً بتهمة الانتماء الولادية (الفطرية)، كما هي الأرض التي انتهبت لأنها كردستانية، حتى وإن تمت بعثرتها وتقاسمها وتغيير أسماء معالمها، خلاف الأرض التي تقع خارج حدودها المعروفة من قبل الدوائر المحروسة، وكيف يسعون إلى التمكن منها، كيف كانت تدار. ترى أين حلوا واستحلوا الآن، وهاهي الأرض تستعيد جزئياً بعض بعض كرديتها المعتبرة، وبعض بعض كردستانيتها المفزعة لمن انتهبوها حتى الأمس القريب؟ تخيلت من تخيلوهم مالكي أو مستملكي الأرض هذه دفعة واحدة، وقد تطوَّبت باسمهم، ومن يتخيلون ماهم عليه، وماعليه تخيلاتهم من خلل في الواقع، وجنوح مسار، ومصير مستقبلي، وإيغال في معاداة الجغرافيا هذه، وتمسك بالتاريخ الذي دوّن بإسناد منهم، وإمضاء على فضائله الخاصة من قبلهم، ورعبهم في ومن رعب واقعهم الذي يستشعرونه إن انقلب عليهم المرجل التاريخي الشديد الغليان، بين الحين والآخر، وهم يتواصون بصبرنفسي محتكر ومقاس تاريخياً ، هو نفسه موهَم إياهم بدوام حسن الحال والأحوال، دون التفكير في تعبير ما يبقيهم أكثرأمناً وأماناً، لو انسجموا مع واقعهم الذي لا يتمثلهم فقط...

تأملت الطابور الطويل من الصهاريج التي تأتي من (تركيا راهنا) ، لتعبأ بترولاً(بنزيناً، مازوتاً..الخ)، من دهوك أو من الجوار أو سواها، حيث العدد تجاوز الألف، وعلى الأثرتساءلت: ماذا يعني أن تكون في كردستان، وأنت محاط بهذه المشاهد، ومشغول بمثل هذه الأسئلة الخاصة بمجريات أحداثها، وإمكانات الغنى الهائلة التي تستثير شهية وحمية الآخرين منذ القدم، وتمارس قيمومة التاريخ على الجغرافيا بطرق شتى، في ظل الإمكانات السالفة؟

كردستان المستقبل لازالت المشروع الأكثر خطورة، على الذين يراهنون على المكان، الذي لم يعد مجرد جغرافيا، وقد أحيلت إلى أسماء عربية وفارسية وتركية، وتأرشفت في دوائر شديدة الخصوصية ، تسمى بـ(الأمن القومي)، إذ التاريخ نفسه، في مستديم عهوده، بات حقيقة جغرافية مادية بالنسبة للمعنيين بها، وحتى الكرد في جهاتهم التي يعرفون بها، باتوا بدورهم مرصوصين بين مطرقة التاريخ الخارجية المداهمة، وسندان الجغرافيا الداخلي المولَف أو المصطنع، لكأن تعريف الكردي بكرديته، أو مجرد الحديث عن كرديته، استهلال لتثبيت الاسم الجغرافي الذي يعنيه، واستعجال بتثبيت الاسم على أرض الواقع.

في مشهد تكرر، لم يفتني بدلالته لاحقاً، إذ أننا عندما أردنا النزول، التماساً لراحة نسبية، ومن ثم المتابعة، ونحن على طريق دهوك، وتوقف الموكب، انتشرالحرس، وكأنهم يتهيأون لإطلاق النار، حيث شكلوا طوقاً، على مسافات متباعدة مدروسة تدربوا عليها. لم يكن هناك مايستدعي هذا الانتشار، وهذه الجاهزية اللافتة للنظر، فالأرض بمحيطها المنفتح على مسافات قصية، تبدو آمنة، والسيارات التي كانت تقطع الطريق جيئة وذهاباً، غالبيتها كانت تنتمي إلى دهوك وهولير، وحتى تلك التي تنتمي إلى سواها، كما تابعناها من خلال لوحاتها الأمامية والخلفية، كانت تخضع للتدقيق بالمقابل، فلماذا هذا الحذر المضاعف؟

كما أسلفت، وحده ابن المكان يعرف خصوصيات المكان، يعرف كردستانه، وماذا يعني أن تحميها بوصفك حارساً لها وليس عليها من الخارج، وأنت منتمٍ إليها وليس مقحماً فيها؟! وأنا أقول ذلك، تبدى التاريخ والجغرافيا متعاركين أكثر من أي وقت آخر، والحوار كان قليلاً بينهما وفي مشاهد إيمائية، حيث تجلى التاريخ متشنجاً حلباتياً كما عهدته هنا وهناك، بينما انبسطت الجغرافيا أكثر من ذي قبل وقد استفاقت من قيلولتها النسبية، رغم تحفظها وحذرها، والذين كانوا يحرسوننا، أكدوا ذلك ثانية وثالثة بجلاء.

9- شربت من ماء كردستان

هل يمكن للمرء التعبير بلغة العواطف؟ إلى أي درجة يستطيع معايشة عواطفه تلك، دون الدخول في حماها حتى لايكون مواطناً عواطفياً، يفقد لغة الاتصال السوية بالعالم من حوله؟ أي لغة هذه التي تكون مكانية، تشعر القلب بموقعه المعتبر، لها شرعيتها في تلوين الكتابة، دون أن ينغلق المرء على داخله، دون أن ينقسم على نفسه؟

ربما أكون صريحاً أكثرهنا مع نفسي، وليس مع أي كان، وفي هذا المكان/ النقطة/ الموقع بالذات، لضرورة اعتبارية يفترضها الموضوع نفسه، تلك الصراحة تتجسد في كون المرء يستحيل مواطناً كونياً لحظة الدخول في المشترك العالمي: أن تعلن عن حبك، أن تسميه، أن تدع المجاز جانباً، وأن تتخلى عن المقدمة الطللية، وتقول من أنت، ماتريد أن تقول، مالديك من هوىً من نوع خاص، تزداد بها انكشافاً، أعني مناعة ذات في بلاغة وضوحها.

فنحن بعد أن قطعنا مسافة طويلة نسبياً، وبعد أن علم الجميع أن ثمة ضرورة للتوقف في مكان ما، لنأخذ قسطاً من الراحة، والوقت أصيل، حيث الشمس بدت وكأنها في اعتدال حرارتها تدوشت ، وهاهي تشعرنا أو تعلمنا بنفاد وهجها المركز، حيث تنتشرفي مسافات متفاوتة: أجمات أو مشاهد خضرة في مساحات مختلفة، ومسيلات مائية، وقد مال الهواء نفسه إلى الاعتدال بدوره، متجاوباً مع الشمس. الحوارفعل كوني إذاً، ولكن طرق الحوار لامتناهية.

انعطفنا بعد عبورنا في طريق مستقيم مسطر، وبحاجز، تبين لنا أنه محمي من قبل البيشمركة، حيتنا عناصره، مثلما بادرنا بالسلام بحركة الأيدي. ثمة دقة في التفتيش، في التخطيط لبناء دولة تليق بشعب شب عن الطوق منذ زمان طويل، ولم يشب عن التطويق منذ قديم الأزمنة وحتى الآن، والبيشمركي يبدو أنه عنصر حماية واستتباب أمن في دولة طامحة لأن تكون في مستوى اسمها، وليس في إقطاعة، دولة تتحرك في إهاب دولة أخرى، رغم أنها تحافظ على هيبتها، كما تكون العلاقات في وبين دول كثيرة داخلاً وخارجاً، لهذا تجلى البيشمركي(حارس المكان) في الدولة الجديدة في عصريتها، مأخوذاً بفتنة مهمته، بكياسة الحراسة،لأنه لا يقاتل كما كان حتى قبل عقد ونيف، وإنما يمارس فعلاً مضاداً للقتل، لإبعاد : شبح حرب خاطفة، عمل إرهابي، إفشال مخطط يذكّر الآمنين الكرد ومن معهم من العرب والآشوريين والتركمان وغيرهم، أنهم أسرى وهم، لذا بقدر ما يكون منذوراً للسلم يكون محتاطاً لدرء أي خطر عكسي . أنا البيشمركي إذاً في الفعل الذي يقوم به! البيشمركي لي ، للعربي، للتركماني، للآشوري، هو أكثر من كونه كردياً، ليس الكردي وحده بيشمركي هنا كما هو معلوم، دعك من المفردة، ما يهم هو المعنى المعاش، هو فعل الكلمة، مآلها على أرض الواقع.

توقفنا ، كما أسلفنا، عند بئر ارتوازية، كانت تضخ ماء نقياً بمحرك يعمل على المازوت، وهي تروي مساحة أرضية محددة، احتوت خضرة وقطناً، وثمة أشجارحور باسقة ألفية الشكل، متناسقتها، فارعتها، بارعتها، متلاصقة، تسمح بالمرور فيما بينها، لكأنها تفصح عن انتشاء بالخضرة اليانعة التي تجلوها وتتموسق متألقة خلل الأوراق الممتدة أكفاً لمعانقة الهواء وإسعاد الناظرين إليها بصمت.

تلك هي استراحتنا، استظللنا بفيء الشجرالذي بدا شديد الامتنان لنا، كما هاتفني شعوري الداخلي، ونحن نترجل مأخوذين برطوبته المفتقدة خارجاً، وقد مارست تدليكاً سريعاً لأجسادنا هذه التي مالت إلى الانتعاش أكثر.

تقدمنا نحو بركة مائية مربعة الشكل لا تتجاوز في ارتفاعها عن الأرض المترين(كانت أقل من ذلك بالتأكيد، من خلال انحنائنا على ماء البركة الموجودة)، حيث الماء الصاعد من باطن الأرض، كان يودع في المربع الاسمنتي(البركة)، ليشكل مويجات سريعة هشة التكوين، وهي تزبد، ثم لايني الزبد هذا يتلاشى، ترتطم سريعاً بالجدران، لترتد، وتعيد حركتها المرسومة من جديد، إنها هنا ملتزمة بحدود قوتها الطبيعية، ثم يجد الماء المتجمع معبراً عبر فتحة معدة في البركة، لينساب سريعاً، ومن ثم تخف الحركة تلك، بعد أن يتجاوزالبقعة الاسمنتية خارج محيط البركة قليلاً، مغطياً الأرض، ووفق منسوب مبرمج له، في جدول ترابي مخطط له بدوره.

كان الماء بارداً نوعاً ما، ولربما كان أقل من ذلك، إن حرارة أجسادنا، وتعب الطريق، كان لهما دور في

تحديد درجة البرودة تلك، ونحن نرشرش على وجوهنا، بفرح داخلي، وكان لكل منا ما يخصه في الموقف ذاك.

لم يكن الاستسلام للماء، الذي كان يتقاطر من الوجوه، هو المشهد الذي يلخص ما كان، إن جدة المكان، كشفت عن حالة طقوسية. لقد كان هناك تناوب بين الاغتسال المتقطع وتفحص المكان والجوار إلى أبعد مدى ممكن.

هأنذا أشرب من ماء كردستان الطالع إلي من الأعماق(ولوعمق أمتار معدودات)، وبعد سنين طوال طوال !!!

هل كردستان هنا فقط؟ ألم أشرب ماء كردستانياً في أي مكان آخر؟ ماالذي يدفع بي إلى ذلك؟

ليست كردستان جهة واحدة، إنها جهات بليغة بأسمائها وفراهة مواقعها، لكن الشعور الذي يتلبسني في هذه النقطة بالذات، يتفسر تاريخياً، وانطلاقاً من أكثر من حالة نفسية، تتجسد في كوني تمنيت منذ زمان أن آتي إلى (هنا)، أن أعيش المكان في وسطه، هأنذا أتوسط كردستاناً، أنا مركزها، مثلما أنها تتمركز داخلي، لا حباً يعميني عن رؤية ما أنا فيه، ما عشته خارج نقطة وقوفي، وعلاقتي بمن أعرفهم في تعددية لغاتهم، وحتى الذين يتكلمون مثلي، وأنا معروف بالأصل كتحديد إثني، وإن لم يتدون ذلك في هويتي الرسمية، وإنما الحب الذي يعرّف بي، يحيلني المأخوذ بالآخرين، وأنا مسند إلى مكان أشدد على اسمه الممنوع من الصرف ، في قواعد الجغرافيا المؤرشفة سياسياً، أمنياً بدقة أكثر ، رغم إمكانية يسر العمل بها، كيف؟ عندما يتم التحررقليلاً قليلاً من الحب الآخر الذي أحذّر منه، الذي يحتكر المكان بمن فيه، وفق قواعد لغة متعالية، تصادر على المكان كاسم بدوره، ولهذا جاء تشديدي على فعل العاطفة، تلك التي توازن بين الأوطان والأمم، دون مصادرات جانبية.

وإنما الأمم (الأوطان) ما بقيت فإن هم ذهبت (أوطانهم ثاروا)

في المكان هذا بالذات، انبثق ذلك الشعور بوعي المكان الذي لاينفصل عني، ومن الداخل، مفصحاً عن البعد الرابع الذي يتعلق بموقع الشخص، بأهمية أن يسمي مكانه الذي يعنيه، طالما أنه يعنيه ويعانيه، وقد تبدى المكان مفتوحاً ، لكأن الكون كله بات منبسطاً، ليرى من الجهات كافة، ودفعة واحدة، وهو مقروء بعناوينه، التي تخص أجناسه وأقوامه وأممه، وكائناته الأخرى، وفي الوقت الذي تجلى لي أن روعة الحياة في ذلك التجاذب المكاني والأممي والأفرادي ضمناً، حيث بقدر ما يتناه المكان في أفراده، ويتناهي هؤلاء فيه، بقدر ما يستحيل المكان حالة لاتناه، بوصفه غنىً لامحدوداً، ويكون الواحد نفسه أكثر من تناهيه كفرد. هنا يكمن فعل الكون انسانياً.

شربت من ماء كردستان، ليس تفضيلاً لمائه على أي ماء آخر، وإنما للتأكيد على مدى الترابط بين ما يعيشه الفرد في داخله، وما يشده إلى ماحوله، وماالذي يبقيه مأخوذاً بفتنة مكان دون آخر، طالما أن الأمكنة الأخرى تتبدى بتقسيماتها من خلال المكان الذي تتعزز به. ألهذا يكون ويظل الكردي الفرد المعرف به منطقياً دون الآخرين من الآخرين، لأن لامكان يتفرد به؟ فيبقى المنفي حيثما كان، ومشكل حالة عجزوإقلاق لمنفيَه قبله، بوصفه مشكلته التي تتقدمه كما يدرك ذلك ، حتى لو كانت كردستانه هي المجال الأرضي الوحيد، مادامت منزوعة الاسم والإحداثيات الدالة عليها؟ ألهذا يغذي الماء الذي اغترفته من الأعماق ، وهو في شفافية نوعه، ذلك الشعور بالانتماء المكاني، وتأصيل فعل الولادة، كون الماء يحتفظ بخاصيته الميثولوجية (في البدء كان الماء)؟ ولهذا مجدداً، يمهد الماء المشروب لتكوين الذات ، وإن كانت موجودة، بتكوين أسمائها الخاصة.

ذات يوم ، ربما قبل ربع قرن، قال معين بسيسو (الاتحاد السوفييتي لي)، كان ذلك عندما كان الاتحاد السوفييتي ذاته، امبراطورية تضم أمماً وقوميات وأقواماً، وكان ذلك أيضاً اسم كتاب له صدر ثمئذ، تعبيراً عن شعوربالبعد الأممي الانساني الكامل للانسان، وفي حال كحالي، يكون الوضع مغايراً بشكل ما، فأن تكون كردستان لي، يعني، أن أكون الكردي، الذي كان رهين حالة النفي المبرمجة طوال قرون أو عهود، منفي لغات وحدود، وفي أرض هي ذاتها منفية عن اعتبارها الاسم المقموع، داخل كردستانه، وقد انتقل من حالة النفي الخاصة إلى التموضع في المكان الذي لم يبرحه، بعد أن كانت كردستاناً لغيري، وإلى الآن تعيش صراعاً ونزاعاً مع أسمائها الجهاتية، لتكون الجهات حدودها التي تعرف بها، وليس العكس. أهو جرم أن

يصرح المرء بما يكونه؟
بعيداً عن الاستعراض، حيث لم آت، لم أنتظر الوصول إلى هنا، لأعلن عن نفسي ، وحقيقة ما أكون بالطريقة السالفة الذكر، في نوع من حميَا القول، فكرديتي، مثلما هو انتمائي إلى المكان الذي ولدت فيه وترعرعت على مسافة تبعد، ربما أكثر من مئتي كيلومتراً ونيَف، ليست رهينة الطفرة الأدبية، لتقدمني للآخرين، بقدر ما هو الوضع الذي عشناه، والحالة التي شكلت ربما ، أحياناً، ما يسمى بـ(خارج السلسلة)، ولكنها حالة لاتكون غريبة عنها وظرفيتها المكانية، لأن المكان متفاوت في جماليات مواقعه، مختلف في تنوع تضاريسه، ولكن في مجموعه يبقى المكان الجامع الفرد في النهاية مثلما هو هكذا في البداية. إنها الفسحة المكانية ومؤثراتها التي تشكل المدخل الحي، لما يمكن البوح به، حيث ضغط التاريخ كان مشهوداً له، وأنا أتلذذ بنعومة وانسيابية الماء المتدفق، لكأن يداً طليقة أوأبدية ونابضة بالحياة، تدخلني في طقوس المسارة(الكردية هنا)، واستشعرت خفق الروح التليدة في الماء كردياً، وربما كانت الانسيابية تلك، التجلي الأفصح عن وضع مكبوت، أو جرى كبته، ثم تسمى حقيقةً.
وقد كانت الصورة الملتقطة، وهي الأولى التي تم التقاطها في كردستان العراق، محاولة امتلاك الزمن، والمحافظة على لحظته وقد جرى امتلاكها، لاستعادة نشوة الاكتشاف ، فيض الشعور المؤرشف، وقد كنا مجموعة ممن وجّهت إليها الدعوة للمشاركة في الملتقى، ولكن لقاء المكان يتخذ هنا بالنسبة لي، طابعاً أكثر من شخصي، إنه طابع شخصي جداً، حتى على صعيد وعي الذات للمكان ودلالاته، خصوصاً وأن التاريخ له براعته في تحويل النظرإلى نقاط استناد، تشفع للعين أكثرجغرافياً، لكي تمارس تنقيباً في العلاقات بين ماكان بالأمس القريب الرهيب، والآن المحرض على المكاشفة والملاطفة والمؤالفة، والأكثر من ذلك ، الصورة الأخرى التي التقطتها مع أحد المرافقين لنا من الحراس، وهويتبدى بزيه العسكري المموه، الذي وإن دفعني إلى أن أعبّر عن قلقي وامتعاضي كلما التقت عيناي رجلاً في زي عسكري، حتى وهويمثل دوراً عسكرياً على حلبة المسرح، لما للعسكري في تعددية مراتبه من سجل حافل غير مشرف على الصعد كافة، إلا أنه في الحالة تلك، وعندما في الحالة تلك، بدا ويبدو النقيض في الدلالة، لاختلاف الإحالة، إذ تلمست في المشهد والصورة، مايمكن أن يكونه الزي ومرتديه من جمالية تبعث على طلاقة الروح في محيطها، حيث يعود الرمز تابعاً للوظيفة أو الرهان المنوط به.
ولحظة مغادرة الزمان، كان المكان معي من ناحيتين: دخوله في الصورة الملتقطة، ودوامه متألقاً، وتأصيله في الذاكرة النفسية، من خلال ماتقدم، وفي الوقت الذي التفت إلى الوراء لا شعورياً، وكأن بي خوفاً ما على المكان نفسه، إلا أن هاتفاً جذبني إلى داخلي، لأستقر في كرسيَ، وقد امتد الطريق واسعاً أكثرمن ذي قبل.

10- هاهي دهوك إذاً!

تبدودهوك أرخبيلاً من اليابسة، بالنسبة لمن يعبرها سالكاً طريقهاالرئيس، وهي تمتد بين سلسلتين جبليتين، الأشبه بساعدي عملاق أسطوري متباعدين ومتناظرين، وتبدو السلسلة الجبلية (متين) كما قيل لي، أشبه بسورعريض القاعدة ، مزركش الجنبات والسفوح بالعديد من الأشجار(الصنوبر والبلوط والعرعروالدلب...)، وقد بدت في مجموعها صغيرة، متباعدة، كأنها منضغطة، متربعة ، منكمشة على نفسها، أميل إلى الأخضر الداكن والمغبر، طبعاً بالنسبة للقصيرة القريبة من الطريق العام، ولابد أن تكون كذلك، فالأشجار هذه، كما ذكرت سابقاً لم تكن استثناء من الفظائع المرتكبة بحق كل ما ينتمي إلى المحيط الكردستاني: أرضاً وسماء، وهي تفصح عن الكثير من مظاهر الوعي الحضاري المعكوس، كون الغطاء الشجري يشكل بعكس الجسد الانساني الذي تختلف النظرة إليه من الناحية الأخلاقية ، في نوعية اللباس الذي يرتديه، إذ الغطاء النباتي كلما ازداد كثافة وانتشاراً ، أو سربل ماحوله، دل على عافية الطبيعة وعملها الذاتي، وعلى التقدير الانساني واليد الماهرة في الترتيب والتشذيب، ولكن الشجر هنا، له تصنيف آخر كما

رأينـا، ومعاملـة مختلفـة، كمـا عرفنـا وأدركنـا حتـى قبـل دخولنـا فـي عمـق كردسـتان العـراق ، إذ الـضراوة المفترسة للغطاء النباتي كانت من الوضـوح بمكان إلـى درجـة أن المرء تـصدمه المشاهد المختزلـة والممثل فيها من الأشجار، تلك هي ثقافة الصحراء في أكثرحالاتها سوءاً واجتياحاً لثقافة الجبل المعاكسة لها فـي ثـراء مكوناتها الطبيعية وتوحيشها، وهي في الحالة المذكورة شكلت الحجاب الحاجز لمدينة لم تخف عراقتها، وبدا لكأن حرق وإتلاف الشجر تعبير جلي عن رغبة جارفة في جعل الطبيعة خلاف ماهي عليـه، إنهـا تعريـة لهـا، للجبل، بـوعي عدائي مـدروس ومقصود، وهـذا مـا تم علـى أرض الواقـع، ولـيس علـي فـي الحالـة تلـك ، أن أتحرى النصوص الأدبية والفنية التي أرخت لما تقدم ذكر، الوقـائع مقروءة بـصرياً. لالوم هنـا ولا تثريـب! فالذي حوّل بلده(إذا كان بلده حقاً!؟) إلى معرض للفتك به ، وتجريده من معالم الحياة كافة، وكردستان تتقدم هنا، مهيأ لأن يحيل الأخيرة خصوصـاً إلـى ماعرفت بـه مـن مـآس مكشوفة للعين، وأخـرى تحـت الأرض ، عصية على الحصر، وسواها تحفر آثارها المروعة في الجسد: قلباً وعقلاً.

السلسلة الجبلية تتكوع إلى الأمام لمسايرة المدينة ،كما يظهر، رغم أن العكس هـو الـصحيح تمامـاً، وقد انبسطت(أعني دهوك) في فسحة مستطيلة من الأرض، ليست متساوية الأبعاد، تجاوبـاً مـع الطبيعـة المكانيـة. فتلك السلسلتان اللتـان تحـصرانها فيمـا بينهمـا، لاتسمحان لهـا بالتوسـع الجـانبي، رغـم الـضغط النـصفي، كمـا لاحظت، لهذا كان عليها أن تستجيب للتحدي الطبيعي، لإرادة السلسلتين الجبليتين، وعبر طريق طويـل نـسبياً يقطعها، كما قلت، والطرق الأخرى تتوزع علـى الجـانبين، دون أن تخفـي ميلانهـا الواضـح(أي المدينـة) من لحظة الدخول إليها جهة اليمين.

هـاهي دهوك إذاً! دهـوك التليدة الـسعيدة الآن فـي هيئـة الوادعـة فـي مـنخفض طبيعـي، مستسلمة للفراغ المتشكل، ومأخوذة بالانفساح، وهـي تتمطـى، وهـي تـذكّر بتاريخهـا العريـق، منذ أيـام الآشـوريين، وتعرضـها لاكتـساح الغـزاة مـن الخـارج، فهـي معبرومـستراح، كمـا يبـدو. وأنـا فـي الحافلـة تخيلـت كـل هـؤلاء، والـذين تزعموهـا لاحقـاً مـن الأكـراد، فـي شيخان، وكذلك البادينـانيين،، تخيلـت تلـك الأصـداء المتـشابكة بـين قديمها وحديثها، بين كارثيتها في عهد صدام المقبـور، ومـاهي عليـه الآن، وهـي تمـارس كرديتهـا فـي المكـان، أسوة بغيرها من المدن الأخرى في أي مكان فـي العـالم، المدينـة المتعـددة فـي أسمائهـا ومعانيهـا، وهـي تتـوزع بـين دهوك و(çahok)، وبين أن ترتبط بـشخص مـا، وسلوكه، أو تعنـي (القريـة الـصغيرة)، إنهـا فـي كـل حـال، استطاعت أن تـدخل التـاريخ، وإن بخل عليهـا، لأسباب لهاعلاقـة بانتمائهـا المكـاني وأهليهـا، ولكـن – أيـضاً- وجودها وديمومتهاالتاريخيين من خلال التـاريخ ، يـشفعان لهـا، مثلمـاأن معايشتها لسلسلة المـآسي الـتي ألمت بعراق الطـاغية المخلوع، وبكردستان العراق أكثر، ومعاناتها عبر ذلك، أضـفت عليهـا مـسحة مـن الطقوسـية المكانية وحتى الشعائرية، بوصف ما تعرضت له، كان أشبه بمذبح القرابين البشرية من نـوع خـاص (الكـرد أكثر)، وقد ألحق المكـان بهـم ، أو هـم ألحقوا بالمكـان، كمـا هـي الأعـراف القديمـة الـتي لاتفـصل بـين المكـان وساكنيه، أعني كما هو تفكير الذين يضفون قيمة اعتبارية مضاعفة متنامية على أفعالهم كلما كان هنـاك سفك دماء أكثر ، وتمثيل أكثر، تجاوباً مع العنف المتفشي في الذات.

المدينة التي تنفرش على مدى النظر، وقد تجلت بيوتها المتلاصقة، والمتباعدة أحيانـاً، مأخوذة بالجغرافيا في مساحتها الممتدة، وهـي فـي معظمهـا مـن طـابق واحـد، وليست الوحيدة فـي هـذه الـصفة،إنما فـي سـواها، وحتـى فـي العـراق، لكـأن البيت العراقـي، أو الكردسـتاني هنـا، يستجيب لتقديرات نفسية، تأصـلت فـي ثقافـة تاريخية لا تخفي أبعادها الاجتماعية والتربويـة، وحتـى الفلـسفية المكانيـة، وهـي أن تكـون أحاديـة الطـابق، أن تكون كما لو أنها الخيام أو بيوت الشعر، تلك التي تسكنها عائلات، كل منهـا تتميـز باستقلاليتها داخل خيمتها مثلاً، وقد تحولـت إلـى بيت اسمنتي أو حجـري وغيره، وإن كانـت العلاقـات مـن طـرف آخـر تـشدها إلـى خصوصيتها المعروفة بها في تركيبتها العشائرية نسبياً، كما هو معلوم، وإن كان الانفتـاح متجـل فـي الـروابط الاجتماعية عبر مفهوم المدينة، إلا أن ذلك لا يلغي ذلك الحنين إلـى الاسـتقلالية الـتي تجلوهـا جغرافيـة البيت الطابقي الواحد أكثر، رغم أن التربة القاسية تتحمل البيوت الطابقية ، ولكن ذلك يتطلب الكثـير مـن المقومـات الثقافية داخل المدينة كمفهوم حديث أكثر من ذي قبل، ولأن (الكرم الطبيعي) لازال مؤهلاً للـسكن الطـابقي

الوحيد، أعني مستجيباً للنزعة الاستقلالية أكثر.

دهوك استقبلتنا بوجه هاش باش، ونحن ندخلها، حيث تجلى المدخل رحباً، وقد دققت كثيراً في المدخل، لمعاينة الوعي المديني. لقد كان من النظافة إلى درجة أنني لم أعثر على أكياس نايلون ، تطرحها- عادة- المدن التي ننتمي إليها على أطرافها، وهي تتطاير في الهواء، أو تتعثر بين نباتات شوكية كالخرنوب، أو تلتف حول أحجار متناثرة أو سواها، إضافة إلى أكياس ورقية يقذف بها في محيط المدينة أو في الأطراف، بمجرد تفريغها من محتوياتها، لكنني عبثاً حاولت الإطالة قليلاً في تحري المكان، والذي لفت نظري في البداية هو أحد مرافقينا.

كان ذلك الانطباع السعيد، والباعث على الفرح الداخلي، على مدى الاهتمام بالبيئة، بوصفه امتداداً لوعي شامل.

ومن جهة أخرى، فإن دهوك المستلقية تحت الشمس ، والهواء كان يتخلل المكان، لم تخف هدوءها ونحن نعبرها، لقد كانت في بيوتها بالطريقة الموصوفة أكثر التصاقاً بالأرض، وشعوراً بالراحة، لكأن التفكير بالبيوت الطابقية حتى الآن، لم يحن بعد، وكما يجب، لكأن هاتف لاشعورأهلها، ينذرهم بين الحين والآخر بذلك، ربما تعبيراً عن خوف من أكثر من مجهول ، ليس بالامكان غض النظر عنه ، أوالاستخفاف بخطورته، كما تقول وقائع التاريخ.

ومثلما هو الدخول في دهوك المستلقية في المهد المصنَع طبيعياً، هكذا يكون الخروج من جهة الانصدام بمأساة الطبيعية ، ونحن نعاين تلك الأشجار المتناثرة، التي نمت بعد حين، لكأنها انبثقت من الرماد الذي خلفته حرائق الغابات المولفة، طيور فينيكس حقيقية هذه المرة، وهي تفصح عن استمرارية الحياة بأهلها المستحقين لها، ولكن دون أن تخفي ماعليه ذاكرتها من تشظ وافتئات، حيث كان المشهد الطبيعي لسان الطبيعة الصريح الفصيح الذي يدلي بشهادة الطبيعة/ المكان، وتتالي الأحداث الجسام، وفي العمق ثمة استعراض سريع كما هو الفيلم السينمائي التسجيلي، لأولئك الذين كانوا هنا ، في المكان، في الجوار، في الأطراف، داخل دهوك أو خارجها، لافرق! ففي الحالات جميعاً، كان ثمة الرجال الجوّف المسكونون برعب الآخرالمرتسم صدامياً، وهم يشدَدون على الأحياء دون استثناء، وفي صراع الحياة بكل فظاظتها وتناقضاتها، والموت في مفارقاته، حيث لم يعد الكائن مميزاً باسمه، أو بطوله، أو تحديد جنسه، بقدر ما كانت سمة أو صفة الكردي تطاله، وتعرضه لموت عنصري، لادخل لله البتة فيه، وإن لاسمه حضوراً اقحامياً، فالشجر يكون كردياً، وعامة النباتات كردية، والكائن الحيواني بكل تصنيفاته كردي بالمقابل، والجماد نفسه، يتلبس حالة إرواحية، فيغدو كردياً، وإلا فكيف يمكن تفسيرالوباء الجائح الفظيع الذي اجتاح كردستاناً بأكملها؟ وفي المقابل ، كيف يمكن تفسيربقاء الطبيعة، والمدن قائمة، لم تفارقها الحياة في النهاية؟

يمكن الحديث طويلاً عن المدن وكيفية قيامها بالمقاومة، كيف تستحيل حجارة المكان ذاتها إلى عناصر مقاومة(ألم يتحدث بابلو نيرودا عن حجارة تشيلي، حجارة السماء؟)؟ وكيف يغدو الشجر ذاته فعل مقاومة وتجديد لها؟

هذه ليست بلاغة الأدب قطعاً، وإنما محاولة لتوضيح تقريبي للشعور الذي يتعلق بماهية الطبيعة، بشأن الانسان فيها، وكيفية تواصله معها، في الحالات الاستثنائية التي يشكل التوحد معها، الفعل الأكثركمالاً في إثبات الحياة.

لا أستطيع أن أتحدث عما كان يعتمل في نفوس الآخرين معي في الحافلة، من مشاعر وتداعيات أفكار، حيث المكان الواحد، ينقسم على نفسه، ويتلون تاريخياً، ويبقى في الحالة التي أسهبت في وصفها قليلاً، ذلك التنوع، إذ ربما يكون لديهم ماهو أكثر تركيزاً في المسار المرسوم، ويكون عالمهم التخيلي أكثر توسعاً وعمقاًأو مادون ماذكرت، حيث تتجاذب وتتداخل وتتواجه أمكنة كثيرة في حوارصامت، تتجاوز المكان المرئي، وما تناولته كان خاصاً بي ليس تمايزاً ، إنما للإفصاح عما يمكن للمكان أن يمارس من تصدعات، وإرباكات وتحدَ للذات الثقافية، والانتماء المكاني، والمعتقد الشخصي، واللغة المنطوقة، خصوصاً وأن المكان هو واحد إذا حررناه من الحدود التي تقطع فيه، ولكم أتمنى أن أقرأ ذات يوم بعضاً مما كان يشغل هؤلاء نفسياً في وضع كالذي عشته.

وأنا أخرج من دهوك، أو تجتاز السيارة حدود دهوك، وقد استكانت في مهدها الطبيعي، شعرت أنها كبرت أكثر معي، حيث المهد كان أكبرمن كونه مهداً، وهو يعلوباضطراد، في الوقت الذي كانت السلسلتان الجبليتان توسعان ساحتهما، فلا يبقى سوى الطريق الذي تلوى يمنة ويسرة، ونحن نتحرك صوب هولير هذه المرة.

11- مساء النور في هولير

المدن ذات العراقة التاريخية ، مهما كان موقع أي منها بدايةً، هي كالأحلام! لاتبدو أنها تقدّم للمرء، أو للزائر إليها ما يبحث عنهاكما يشتهي، فهي باستمرار تتقدم بما هوظاهرفيها، بينما تحتفظ بأسرار تواريخها السابقة، بما يجعلها أهلاً للسرطيّ السر، لتكون جاذبة شغّالة للأذهان، وبالمقابل، فإن ما يشد الناظرإليها، هو سحرهاهذا المركّب تاريخياً، ما تضنُّ به على معاينها، وتُوغل في السر الذي يمنحها هيبتها، عدا عن عنصر التحدي الذي تشكله المدينة، بوصفها كانت وتكون، أي تقع بين حدود فسيحة لماض تليد، وحدود معاشة، يقف عليها الزائر الجديد، وهنا ما عليه إلا أن يعيش بدوره حالة المقارنة ، أن يتلمس ماهو عليه في علاقته الحديثة بها، أن يكون هو المأخوذ بالمدينة، في ما يعرفه عنها، وفي ما هو مقيَّم فيها. المدن بدورها مواقف قائمة.

وفي الوقت الذي أفصحتُ عن شعور لي، ونحن نعبر القرية الصغيرة- الكبيرة(دهوك)، وصفة الشعور ذاك، فإن الذي عشته، ونحن نقترب من هولير، كان أكثر تنوعاً، دون أن أمارس هنا تفضيلاً لمدينة على أخرى، فقط لأنها مدينة، وإنماتكون المدن كالكائنات الحية، حيث تتقدم كل مدينة بخصال خاصة بها، أو تُعرف بها، وتكون لها مكانتها المعتبرة، وهي في تصوري خصال تاريخية وثقافية واجتماعية وموقعية تشكل كلاً واحداً.

وهذه هولير، التي تنفتح أمامنا، أو وهي تفتح لنا أبوابها، وقد بانت الشمس مودّعة لنا، وهي تجرجرالبقية الباقية من ذؤاباتها المبعثرة من حولنا وأذيالها من خلفها على خلفية من أفق، كان يميل إلى الانطفاء في شعلته الكوكبية، بينما بالمقابل، بدت العتمة تمارس لعبتها في إكساء الطبيعة لونها الليلي المعتاد.

كان هناك ترافق بين ميل الشمس إلى المغيب، ودخولنا إلى هولير، والذي ضاعف شعورنا بالمفارقة، أي بتسارع نبض الليل فينا، هوأنوار هولير بالذات، فالأنوارالمزركشة للمدينة، أشعرتنا وكأن الليل قد تقدم بنا، وهي حالة تبدو شديدة الإلفة، تذكّر بالمدينة بالذات، ببعض من نفائس تاريخها المعتقدي، وأعني بذلك: الصراع المعروف بين الظلمة والنور، لابل والأثير من النفائس تلك، قبل أن تبرزالأديان السماوية الطابع، وهي تشدّد على مركزية النورأو فاعليته، إزاء الظلام، لكأن دخولنا هولير في الوقت ذاك، والذي جاء مصادفة، بدا مخططاً، لاستشعار المفارقة تلك، ولا غرابة في ذلك، طالما أن اسمها، كما تعرف به، يجلوها، ويعني، كما قيل لنا،(معبد الشمس)!

ها نحن إذاً ندخل معبد الشمس، أوننغمر بأنوار المدينة التليدة الحديثة، وقد خلّفنا الوشاح الليلي الكوني وراءنا، بينما تبدو هي مأخوذة بالكرم الطبيعي، حيث الأرض تنفتح دون حساب، وربما لهذا السبب تتجلى الشوارع، وللوهلة الأولى واسعة، والجهات كلها تنبسط لها، بعكس ما كنا رأيناه في دهوك، وكل ذلك يضفي على المدينة سيماء المكان المفتوح، وقيمة اعتبارية مضافة. إن الشعور بسخاء الهواء مترافق مع الوساعة المذكورة بالمقابل.

ليست هولير اسماً واحداً، إنها أسماء تترادف وتتسلسل، معبّرة بذلك عن خصوصيتها التاريخية، عن الأقوام التي سكنتها، والغزوات الخارجية التي اجتاحتها، والممارسات الفائقة البربرية التي تعرضت لها حديثاً، من قبل النظام البعثي الصدامي الفائق العنصرية، عبر محاولات مختلفة، لإخراجها من تاريخها الذي عُرفت بها، وإلباسها الثوب الضيّق، بكل دلالاته، ولأنها تحتل موقعاً ممتازاً جغرافياً، أعني مكانة استراتيجية، أعني عنصر فتنة وإغراء لتقويضها من الداخل، أعني ممارسة نزع ذاكرتها الكردية بصورة

رئيسة، أعني : عَربنتها تماماً.

التنوع الأسمائي امتيازتاريخي هنا، وشهادة لاتُدحض، في التعريف بمن كانوا وتدوّلوا وتحولوا، وكيف كانت لغاتهم ، وعلاماتهم، واختلطت لغاتهم، أو تمايزت، ثم بقيت لغة المكان بأهليه، مهما بدت أثرياتها تاريخياً.

ولهذا يمكن قراءة(أوربيلوم- اربيلا- اربلا- اربا ايلا- اربيل- ارويل – اوربل- اربائيلو- هوربيل- هولير...الخ)، تلك هي أسماؤها، أو ذاك هو اسمها الذي لم ينسلخ عنهاولا انسلخت عنه، فالخانة واحدة مكانياً، والذين نطقوا الاسم أو تهجُّوه بصيغ مختلفة، كانوا يتجاوبون مع المكان، أعني كان المكان هو الحكم الفصل، مع تحولات الأزمنة. هكذا نقرأ(هاهنا-الآلهة الأربعة، معبد الشمس..الخ) وهي المعاني الدالة عليها، وهي أولاً وأخيراً: الصك التاريخي الذي يؤكد عراقتها في المنطقة.

أتخيل سريعاً أولئك الذين تصادت أصواتهم فيها، ثم تبدَّدت لاحقاً مع الزمن ، وبقيت أصوات الذين ظلوا كما كانت إرادتهم في أن يكونوا فيها، وتتسلسل أجيالهم، هاهم السومريون، الآشوريون، الحوريون، الميتانيون، الميديون، الكاشيون، اليونانيون، الأرمن، الرومان، الفرس، العرب، العثمانيون، الانكليز..هاهم، كما كانوا الكرد!

هذا التحقيب التاريخي (الكرونولوجي) المديد يخرج عن طور التاريخ، يتجاوزه، بوصفه فاره التاريخ ، إذ لم يدوَّن إلا في الحيّز الذي أمكن تقريبه واعتباره المطلوب، فثمة ما ينتظرالتدوين والتثبيت والبحث والتحري، طالما أن تاريخه يتجاوز العشرة آلاف عام. وأن أتحدث بالطريقة هذه، فلأنني أفصح عن وضع اعتباري لمدينة تشكل استثناء سلبياً موجَّهاً للمدن المنسية في التاريخ قصداً، حيث التعتيم سياسة مكانية يمضي عليها تاريخ سائد تعسفي في الصميم، حتى وهي تحت اليد(القانصة) لها وفق أخلاقية الحقد المدروس، لكأن التحري فيها، يستشرف ما هو قائم فيها، ولم يُسمَّ جوراً، أعني ما يشير إلى هوية الذات الأصيلة المتأصلة : الكردية خصوصاً هنا.

هذه العراقة التاريخية التي تتجاوز العشرة آلاف عام، تضفي عليها مسحة جلية من الكبرياء واقعاً، ونِدّية في الحضور التاريخي إلى جانب مدن أخرى مشهود لها بالتباهي التاريخي ، تكون بغداد حديثة العهد والشقيقة الصغرى لها، إذا ذكرنا نينوى، بابل ، تدمر، دمشق، البتراء، صيدا..الخ، وفي هذا المنحى تكون هوليرالحلَّة الاسمية المفعّلة تاريخياً، رغم كل المحاولات التي مورست لجعلها خلاف اسمها هذا(أحيل القارىء هنا إلى كتاب (تاريخ أربيل) لـ" زبير بلال اسماعيل" رغم قدمه النسبي).

أستحضر الصورة الثقافية لجغرافيّنا العتيد ياقوت الحموي ت626ه/1228م، وذلك في كتابه المشهور(معجم البلدان) وتحديداً المجلد الأول، وهو يتحدث عن أربيل، كما لوأنها حديثة العهد، كما لوأنهاحاضرة اسلامية، مثلها مثل الكوفة والبصرة أو القاهرة...الخ، كما لوأنه في حديثه المستطرق إلى أسماء المدن في المنطقة ، منتمٍ إلى مدرسة المنظّرين القومويين العرب حديثاً، عندما يسعى إلى مقاربة الاسم، بوصفه الاسم العربي المستحدث، وهي محاولة تفصح عن حراك ثقافي عقيدي يحيل إلى الأصل، حيث النظر إلى العالم الجغرافي والديموغرافي يتشكل وفق لغة ضادية موجَّهة، وأنا إذ أتحدث بالطريقة هذه، فسعيي هو تفكيك البنيان الثقافي لتاريخ كان، ولم ينفصل عما جاء في إثره على مستويات عدة: سياسية واجتماعية وأمنية وإثنية، وليس لأن الحاضر المعاش هو الذي يدفع بي إلى الإسقاطات التي هي آفة آفات الفكرالشمولي الدوغمائي في أي ثقافة أحادية الجانب تماماً.

فهو كما تصرَّف اللغوي" ابن منظور" في (لسان العرب) وغيره ، في النظر إلى الكرد كمفردة ، باعتبارها مستمدة من الطرد(اكردوهن: اطردوهن)، في تركيب تاريخي مؤسطر، يعرّب أربيل، حيث يقيدها بالحركات ومن ثم بالتهجئة بروكوستياً، لتناسب التوليف الثقافي المرغوب فيه حينذاك، وفي الحالة هذه تكون من (الربل- الريبال) ، وفي الحالتين، يحضر النبات أو الشجر، وليس أي شيء آخر، أي أن الاسم هو في حقيقته عربي، ولهذا أُلغي التاريخ السابق، أي أن هولير:التنوع الثقافي، والحضور الكردي الغالب في عهود تاريخية مختلفة، غير موجودة البتة، وكل ذلك يضفي شرعة التصرف بالاسم، وفي الآن عينه تجريده من علامته

الفارقة والقائمة .

والأكثر لفتاً للنظر، حين يتحدث عن أهلها، بوصفهم أكراداً لكنهم استعربوا. هكذا ببساطة، ودون التأكيد من راويته، أو المتابعة، إمعاناً في التوليف والتجيير التاريخيين. فاللغة بدورها تمارس هنا استبدادها، لكأن الذين يسكنونها الآن لاعلاقة لهم بمن كانوا، مثلما يجري التحوير في تثقيف المكان حيث يقيم الكردي ويعيش ، باعتباره النازح من مكان آخر، والطامح في سواه ، وكأن كردي اليوم لا علاقة له بكردي الامس(المستعرب) ياقوتياً، ويبقى المتحدث هنا في لغته الضادية (كمثال درسي) المعنيَّ بالحقيقة، ولكن كما رُسم لها.

في الاسم(هولير) لم أجد الكردي وهو يكرّدها كما كان ابن منظور وغيره، لقد كان الاسم في تحقيبه اللغوي، أي في بعده الاشتقاقي(الإيتمولوجي)، لم يقل عن أن هولير اسم كردي، بقدر ما برز الاسم في أمميته اللغوية، إن جاز التعبير، ومن خلال تنوع الصياغات له، وكل ذلك يعرّف به واسع الحيلة والوسيلة في البقاء فعلاً.

ليس في هوليرمايغري للبقاء فيها، لرؤيتها دون وضع اليد على القلب، كما هي حال معظم المدن الكردية، وهي تداري وتواسي ضحاياها وأحياءها معاً، مع فارق في عمق المأساة، وعمق الجراح ، والمستباح من الأهل والخلان والمكان، وهوليرمشهود لها بـ(كراماتها)، وهي تعزز حضورها التاريخي الكردي، بضحاياها، وسمة الأحقاد التي وجّهت ضدها باعتبارها الحامل الجغرافي والرمزالتاريخي لجغرافية كردية، في مساحتها الواسعة النطاق كمحافظة، حيث تتجاوز مساحة لبنان مجتمعة(أكثر من خمسة عشرألف كيلومتراً مربعاً)، وهي مساحة كافية للتفكير في قدراتها المكانية وتوضعها الرحب. لا أشير فقط إلى بارزانيّها الكبيرونجابته، لاأتحدث عن آلاف بارزانييها المجردين من جنسية الحياة والمعلوم حتى الآن، من قبل النظام العفلقي المنهار، وإنما أشير إلى ضحاياها الذين ينتمون إليها، ويلتقون فيها(يتهولرون) كرداً وآشوريين وعرباً وتركماناً كذلك وسواهم، وإن كانوا من خارجها(أشير هنا إلى مأساتهافي 1شباط 2004)، ولهذا تستحق أن تكون متميزة بمعبد شمسها، أن ترفل بنورها، وإن كان الظلام غير بعيد عنها، حيث لا أمارس تجييشاً لذاكرة المنتمين إليها خصوصاً، وإنما أركّز على ما يجب الوقوف عنده.

إذ أن ما أعتقد هو أن صاحب الكلمة، يتحمل المسؤولية التاريخية، في وعيه بالتاريخ كمعايشة مأسوية بالدرجة الأولى، أنّى كان وعاش، في لحظات كهذه،ضرورة أن يسمي ما يجب تسميته، أعني كيف يُصار إلى نهب المكان بمن فيه ، واستباحة كائناته، أي شعب كان، وقبل أيٍّ كان، شعبه ومن صنّف شعبه وجزءاً منه، رغبة في البقاء الانساني أكثر.

هولير بمفارقاتها هذه، وهي تجمع بين جبالها(بيرمام، قره جوغ، سفين، شيرين، هندرين، برادوست..) وأنهارها(بزابيها، روبار، كَلي علي بك..)، وسهولها، وأشباح الموت التي هددتها طوال عصور التاريخ، لازالت مخلصة لتاريخها المعتقدي على أرض الواقع، في تجاذبها بين النور الذي تنشده، ليصعد بها عالياً، والظلام الذي يسعى إلى التعتيم عليها، وهي تعيش نهضتها الكردية.

ما تلمسناه من خلال تماوج النور المنبعث من المصابيح أو النيونات الكهربائية على أعمدة عالية في الشارع الطويل الذي مررنا فيه، وفي أكثر من انعطافة، وعبر واجهات المحلات والمؤسسات والدوائر وسواها، كان يعرّف بذلك، ويؤكده. فالكردية كلغة، وهي مقروءة بحروف عربية ، وأحياناً باللاتينية، ورفرفة العلم الكردستاني وحده لاغيره ، طالما لم يجر تحديد لعلم عراقي جديد ، يشير إلى مرحلة جديدة، أفصحتا(معاً) بجلاء عن الاندفاع صوب المستقبل ، قبل أن نخرج منها، ليستقبلنا الليل خارجاً، ولكن دون أن نفقد(دون أن أفقد) ذلك الشعوربالنور الذي بدا، يتقدم الحافلة التي تقلّنا، لا أعني أضواءها الأمامية، وإنما أضواء هوليربالذات ، ونحن ، وكما قيل لنا، نتحرك في الطريق صوب أوتيل (خان زاده) : محطتنا الأخيرة!

12- يا أوتيل خان زاده

مثلما تستقبلك المدن الكبيرة، أو تكون في انتظارك، تتملكك حالة ذهنية ونفسية لا تخفي رهبة وفتنة معايشة الاسم، ومثلما يكون الدخول في حمّى الحلم الكبير، ذاك الذي يقرّب الحالم من وقائع انخطافية، هكذا يكون الاستيقاظ ضاغطاً على جسد صاحبه، أو لحظة اليقظة المفاجئة ، كون الحلم ينشّط الكثير مما هو غافٍ من قوى الحالم. هكذا كان الدخول في هولير والخروج منهامع فارق ملحوظ في التصور والتخيل في كل منهما، رغم الإرهاق الذي بدونا عليه، حيث لم يكن بوسع أي منّا انكاره، في الوقت الذي كنّانتبعهم ونتتبّعهم (أعني الذين كانوا يدققون في الطريق وما يحفُّ به من الجهتين وما هو أبعد من ذلك). فالمدينة التي عبرناها، لم نعبرها بوصفها أي مدينة بدورها وكفى، إنما هي أكثر من مدينة استثنائية بمعان شتى، أترك المجال واسعاً لفراسة القارىء ونباهته في استقصاء المقصود، لقد كانت مرئية في الذاكرة، نتتبعها بطرق شتى، وها هي العين المجردة وإياها داخلتان في مشهد حركي واحد(لقد بزغ الحوار مجدداً)، ولهذا فإن الشعوريعانق مجمل القوى النفسية، ونحن نستسلم لليل خارجَها، نستشعر لسعةً من برودة منعشة، من خلال ضغط المحيط الخارجي، الأمر الذي دفع بالبعض منا إلى تخفيف نشاط المكيف الهوائي ، أو توقيفه، ونحن نرتقي طريقاً أونسلك طريقاً، بينما رويداً رويداً بدت في الخارج أكمات أو هضاب وكأنها سنامات جبال أسطورية، تحدق فينا، أو تومض عالياً، وقد حملت هوادج أكثر أسطورية مشتعلة ومتلألئة نجومية ، بينما هي في حقيقتها مصابيح بعيدة تغمز لنا على طريقتها دون انتظار أي رد فعل منا، تخص أماكن مأهولة، أو مصايف جبلية.

إلى أين اتجه طريقنا؟

كنا نعتقد أن نُزلنا قريب، ولذلك فإن الطريق الذي انفتح أمامنا، وبدا ممتداً لاحقاً يسوطه الضوء المندفع من واجهة الحافلة الأمامية ، وكأنه ينبئنا أن ما نحن نتفكره، لم يحن وقته بعد، خصوصاً وأننا لم نتبين ما يجعلنا مشددين على يقيننا هذا. وأعتقد جازماً أن تململاً ما، تجلى، في تمتمات البعض منا، أو في تعليقات مقتضبة ، أو من خلال وجوه لم تخف تبرمها بالمسافة المضافة هذه، وأنا كنت واحداً من هؤلاء. ولعل الذي أذكى هذا الشعور، وبالدرجة الأولى، هوما قيل لنا عن أننا سنحط الرحال في هولير، دون أن نتساءل: وفي أي مكان منها؟ داخلاً أم في محيطها؟ ولهذا، وكما يبدو جلياً، فإن المسافة التي قطعناها بعد خروجنا من هولير، استشعرناها وكأنها عبء غير محتسب ، لم نحتط له، وبدا تعب الطريق الطويل نسبياً مركّزاً ومأخوذاً به في الملحق التالي ، ولعل الذين اشرأبت أعناقهم أكثر، وكنت أحدهم، وهي تستطلع الطريق وتتساءل عن المكان المعلوم، أفصحوا عن ذلك.

كان ثمة من يعرف المكان معنا، ومن هولير بالذات(إن لم تخنّي الذاكرة)، ويبتسم إثر كل سؤال . ولا أستطيع تحديد من كان البادىء بالكلام المنتظر، وهو يرفع صوته: لقد اقتربنا ياشباب، انظروا جيداً: ذاك هو فندقنا.

كانت أنواره تشعشع من بعيد نسبياً، وتجلى وكأنه مصوَّر في إحدى حكايات سندباد، في ارتفاعه المرئي ومن خلال مستوى الطريق الذي نسلكه، وكلما اقتربنا، كان يزداد واقعية وبروز معالم أوتفاصيل ، وقد ركّزنا عليه أنظارنا، وعندما اقتربنا أكثر، وشعرنا وكأننا تجاوزناه، قيل لنا: سوف ننعطف ، لنرتقي إليه صُعداً. كان يتربع على هضبة، هي بدورها كانت تتربع على قاعدة أرضية صلبة، وعلى يسارنا، ونحن نتحرك نحوه، وفي الوقت نفسه، لاح في علوه المضاف إلى الهضبة المرتفعة، في هيئة من أخذته النشوة بالمكان والتعالي على الجوارومن في الجوار كذلك، حتى لوكانوا نزلاءه، أو هكذا يخيَّل للناظر إليه، وخصوصاً في الليل ، بوحدته البليغة، إذ لم يكن في الجوار مبنى آخر، وكل ذلك أضفى عليه مهابة مكان متمايز، ماعدا ما ذكرنا قبل قليل.

هذا هو إذاً أوتيل خان زاده، كما علمنا قبل الوصول! وعندما وصلنا، من باب التأكيد ، ونحن نرمقه في الأسفل، وهو في استطالته مأخوذاً بأضوائه الوامضة المزركشة له، كجنرال مثقل بنياشينه.

ولعل الذي ضاعف من هيبة المكان، واستراتيجية الأوتيل، هو أننا لحظة اقترابنا من المدخل الذي يقودنا إليه، وجود حراس شديدي الحذر والتنبه، بلباسهم الذي يمتزج فيه الرمادي والأخضرالمضروب بالشمس .

كان علينا أن ننزل ، لاستكمال الإجراءات ، وقد اعتقدت في البداية أنهم أمريكان، من خلال قيافاتهم وسحنتهم، ولكنهم كانوا عناصر من البيشمركة في زيّهم الجديد . حيث بدت إجراءات التفتيش دقيقة، شملتنا وشملت هوياتنا وحقائبنا، وكذلك المحافظ اليدوية والسمسونايتات بالمقابل ، وفي الوقت نفسه فقد أخضعوا السيارات التي تقلنا بدورها لإجراءات تفتيش فائقة، ليس بالعين المجردة فقط ، وهم داخلها، وإنما باستعمال الجهاز الذي يكشف عن أي طارىء، وعنَى ذلك أن الوصول إلى الأوتيل ليس بالأمر السهل، كما يمكن لأي كان أن يفكر خلاف ذلك.

أعتقد أن اللحظة لم تكن اعتباطية! فالزمن الذي استشعرناه غير محسوب ، باعتبارنا كنا نتابع ما كان يحصل، كان من جهة أخرى شبيه الرصاص لوطأته، إلا أنه أزاح الكثير مما كنا نعتقده بخصوص المكان الذي جئنا إليه ، حيث اعتبرالتشديد في الحراسة والتفتيش ضرورة لازمة، واحترازياً في آن، وبملامح حيادية تماماً.

أمضينا بعض الوقت في الموقع المذكور، وانتظرنا إشارة الدخول بسياراتنا، حيث فتح باب حديدي شبكي ، وفي الطرف الآخر، كان هناك عناصر آخرون، في الجهة الأخرى يتابعون المشهد دون تمحيص، لأنهم في حالة راحة، وبدافع فضولي كما يظهر. وعندما دخلنا حرم الأوتيل(إن جاز التعبير)، بدا الأخيرأكثر قرباً منا، ونحن نصعد إليه، في خط حلزوني، إذ كان من الصعوية بمكان الوصول مباشرة، فالعملية كانت تشبه من يريد تسلق جبل ما، حيث الإرتقاء نفسه كان صعباً، وخصوصاً لحظة اقترابنا منه ، ومن ثم استوت الأرض ، ونحن على مبعدة عدة أمتار من مدخله الرئيس. بالنسبة لأمكنة غير مألوفة ، يكون التعامل بالنظرمشفوعاً بطقوسية معينة، إذ أننا لحظة نزولنا ألقينا نظرة بانورامية على أوتيل خان زاده، والذي تعرّفنا عليه فيما بعد.

لقد كان مذكّراً إيانا بالهرم الخوفوي، إنه العفريت الإسمنتي البللوري الذي خرج من قمقمه الهضبي ، وبقوة هندسية، واتجه نحو الشمس وإن كان فيه ميلان نحو الجنوب . ترى هل كان الباني زرادشتي المذهب، مراعياً العلاقة القوية بين الاسم التليد لهولير(معبد الشمس)، وهذا البناء الفخم الذي يتلقى قبل أي كان في محيطه، النفَس الباكرللشمس وهي خارجة من قمقمها الكوني، كما تبدو للعين المباشرة؟ هل كان للبعد الجمالي والمعتقدي دور تمت مراعاته في عملية اختيار المكان ، وطريقة البناء والمواد الداخلة في البناء أيضاً؟ أعتقد ذلك، وإن لم يُحدد فعلاً!

فهو في شكله المتطاول والمستطيل المستقبل للقبلة، كما يقال، وللشرق، حيث يُرى مصيف صلاح الدين في الليل خصوصاً، متربعاً على جبل بيرمام، كما يلاحظ(يكاد يتوسطهما)، كما خيّل إلي، من الأمام كان حالة مزج بين اللون الداكن نسبياً وتلك الواجهات البللورية لغرفه، بينما في الخلف، فثمة مايبهر صراحة، إذ تسنده قاعدة عريضة، نازلة من الأعلى إلى الأسفل ، كأن هناك كائناًخفياً يريد ارتقاءه، وكلما نزلت أرضاً بدت أعرض، متباهية ببللوريتها الغالبة ، بينما في الأسفل، فقد نما عشب اصطناعي، غطى النصف الآخر من الهضبة المكورة، والتي تنتهي بعد مسافة عدة عشرات من الأمتار، كما هو شكل الحوت البحري الأسطوري.

ومن جهة الشرق بدت تلة صغيرة مقلمة، أومقصوصة الرأس، حيث لاحت ساحة اسمنتية مخططة، قيل لنا إنها كانت مهبط طائرة الهليوكوبتر، إذ الذين سكنوا الأوتيل في البداية كانوا ضباطاً وجنوداً أمريكاناً.

وتبين أن اسم الأوتيل له علاقة بأميرة كردية لها صيتها التاريخي في المنطقة، حيث عيّن المكان الذي عاشت فيه على بعد مسافة مرئية من الجهة الخلفية للأوتيل، وكانت شخصيتها التاريخية قوية، وحسنة السمعة.

وقد بني الأوتيل سنة2001، ودشّن سنة 2003، والجهة التي قامت ببنائه شركة تركية، وبتصميم أكثر من مهندس تركي وغيره، ويتألف من طوابق ستة، ومن ثمانين غرفة، وهو لما يكتمل بعد، كما أعلمني المدير العام له ولغيره (فندق شيراتون الفخم بدوره في هولير، وهولبناني، وأمريكي الجنسية، في مقتبل العمر كما توحي قسمات وجهه، بدا متواضعاً، راغباً في إعطاء أفضل صورة عما يقوم به، بأسرع وقت،

كرجل عملي. ولعل وضعه تحت الخدمة جاء لضرورات ظرفية بالفعل، ويتضح هذا جلياً عند النظر في المستجدات الراهنة، وفي ذلك المكان بالذات ، بعيداً عن هولير(قرابة عشرين كيلومتراً)، وحيث الشعور بالأمان يكون أكثرطبعاً.

هذا الشعورتملّكنا ونحن نتهيأ لدخول الأوتيل، إذ كان هناك عناصر حراسة بيشمركيون، وهم يحيطون بالأوتيل، ومتمركزون في مواقع محددة في ساحته، وقد تقدموا منا، وهم يطلبون بأدب ملحوظ، بضرورة تفتيشنا من جديد، والذي كان يُفتَّش يدخل من الباب البللوري الواسع، والمتناسب مع أبهة الأوتيل، ليستقبله بهوه الواسع ، وفي منتصفه كان أكثر من مصعد كهربائي، إضافة إلى قسم الاستعلامات وتسجيل النزلاء.

ولعل الاقتراب من الحالة التي تهيّء المرء للراحة بعد بذل مجهود كبير وملحوظ، يضاعف الشعوربالتعب، ربما لأنه لاشعورياً يمتلك الرغبة في التعويض، لا بل وطلباً عليه بالمقابل، وهذا ما تأكد ونحن نسأل عن غرفنا التي من المفترض أنها حدّدت لنا، غير أن الوضع مختلف هنا، إذ كان علينا أن نعرف ماإذا كانت البطاقات التي تحمل أسماء المدعوين بالفعل جاهزة أم لا، ليتم تلافي أي نقص وارد إثرئذ، وهذا ما لاحظناه بالفعل، حيث أمضينا بعض الوقت، ليعرف كل منا بطاقته المعلقة بشريط مميز بلونه، بحسب المهمة التي أوكلت للمشارك، وقد حال العدد الكبير من المدعوين، دون الوصول إلى بطاقاتنابالصورة التي تمنيناها، رغم أن فضولاً معيناً استبد بالبعض منا ، وهو يدقق في قائمة الأسماء الكثيرة : العربية والكردية ، خارج حدود كردستان والبلاد العربية كذلك، وقلت حينها: لوأن العدد الضخم هذا حضر، فأي أوتيل يمكنه استيعابه؟ سؤال سرعان ما تبدد، إذ لابد أن إجراءات المكان المطلوب قد اتخذت بالتأكيد، ولا أعتقد أن ذلك يحتاج إلى ما يؤكده.

غير أن الموضوع لم يكن ، من جهة أخرى، بالصورة المثالية التي يمكن توقعها، فالذين وصلوا حتى وقتذاك، وهم يسعون سريعاً إلى الحصول على غرف خاصة بهم، وقد نال منهم تعب الطريق والجوع على قدم المساواة ما نال، وبذلت محاولات لتأمين ما يلزم، تبيَّن أن المكان أضيق من أن يستوعب قائمة الواصلين حتى اللحظة تلك، الأمرالذي أثار حفيظة البعض منا، إن لم يكن معظمنا، خصوصاً، حين عرضت علينا إدارة الأوتيل ، كحل اضطراري ، وهو أن تخصَّص غرفة لكل شخصين، مع العلم أن الغرفة الواحدة تتضمن سريراً واحداً عريضاً كما لاحظنا، والمقترح هذا الذي بدء بتنفيذه ، وليس بمناقشته طبعاً، قوبل بالاعتراض من قبل البعض تالياً، ولكننا ارتأينا أن نستجيب لمراعاة مقتضى الحال على مضض ، وهذا ما تم فعلاً ، رغم أن كثيرين جاؤوا بعد ذلك، وحصل كل منهم على غرفة خاصة به، وتم تحويل البعض الآخر إلى أوتيل شيراتون الحديث التدشين بدوره في هولير، ويبدو أنهم خططوا منذ البداية لما قاموا به لاحقاً، أي أن يقتصدوا في البداية، لمواجهة أي طارىء مكاني، حتى تتاح لهم حرية الحركة والتصرف بطريقة أفضل فيما بعد.

كانت تلك الملاحظة الأولى، المتعلقة بالمكان ، وكيفية التخطيط له، وما كان يجب القيام به مسبقاً دون فتح المجال لأي تعليق جانبي، وأعتقد أن الوضع هذا لم يُعتنَ به كما ينبغي، خصوصاً وأن كثيرين جاؤوا من أمكنة بعيدة ، وهم لم يأتوا فقط للمشاركة ، وإنما لينقلوا إلى مكان إقامتهم ما يشاهدونه بدقة، وهذه نقطة مهمة جداً دعائياً.

وبعيداً عن الاستعراض، واستثارة العواطف، بالنسبة لشخص مثلي (فيما يخصني)، لا يُخصص بالتأكيد في بيتي ، سرير لكل فرد من أفراد عائلتي، ويكون لكل فرد غرفته الخاصة، والأدوات الشخصية التي تعنيه ...الخ، إنما الوضع هنا مختلف، والذي دفع بنا (بي وبغيري طبعاً) إلى التجاوب ، هو أن الموضوع الذي جئنا من أجله أنسانا كليّاً فيما بعد ، ماكان يجب أن يكون ، بخصوص المكان ونوعية الخدمة الشخصية لضيوف دولة معتبرين بالتأكيد.

وهكذا تقاسم كل شخصين غرفة واحدة، وكان لموضوع الملتقى باعثه الفكه في توزيع الأشخاص ، وعلى سبيل المثال، فقد تقاسمنا أنا والصديق جهاد نصرة غرفة واحدة، وفي غرفة أخرى كان ابراهيم اليوسف وجورج كتن، وفي ثالثة مشعل التمو وأصلان عبد الكريم ...والموضوع لم يخل من تعليقات جانبية

طريفة، حيث لكل منا سلوكه المميَّز به فيما يتعلق بساعة النوم، وطريقة النوم، وما إذا كان يشخر أم لا، أو يفيق لاحقاً مبكراً، فكل الاعتبارات هذه، كانت مسماة، وجرى التحفظ على هذا الأساس أكثر. لكن ما جعلنا معاً بقي أكبر مما أُعتبرثانوياً حقاً.

إن المكان يفرض على المرء شروطه، أو يدفع به لأن يرتقي إلى مستواه ، وقد كان علينا أن نتصرف هكذا، حيث صعدنا إلى الغرفة المخصصة لنا، وقد سلم مفتاح وحيد لأحدنا ، وجاء المستجد الأول في عملية الانتظار. كان على الواحد أن يتدوش قبل الآخر، مختاراً الوقت المناسب بالمقابل، وحتى في عملية الذهاب إلى الحمام. لكن المتعة هي في أمور أخرى، في المناقشة حول قضايا مشتركة لايمكن التغاضي عنها، في أن تذهب مع آخرين أو وحدك إلى المطعم الذي يحتل القسم الغربي والأرضي من الأوتيل ، وبعد أن تقطع مسافة عشرين متراً على الأقل، لتدخل في المطعم الذي يتجاوب غالباً مع ميولك في تناول الطعام من جهة الأصناف التي تنوعت، وفي عملية اختيار الأطعمة ، وهي تنتقى، ويجري سكبها في آنية واسعة معدة لهذا الغرض، وحولك آخرون يتابعونك فيما تقوم به، يلبي طلباتك العديد من العاملين، وكل بحسب اختصاصه، حتى بالنسبة للفواكه والحلويات ، التي تؤكل بعد الانتهاء من تناول الطعام مباشرة، وفي الوقت نفسه، كان يمكن ملاحظة أهواء الذين يختارون الأصناف المشتهاة أحياناً دون التفكير في النتائج، أي فيما إذا كان بالامكان تناول كل ما تم اختياره بالفعل.

هنا يمكن القول أنه لايمكن التعليق على خدمات الأوتيل وأصناف الأطعمة العديدة فيه، بل ربما يمكن قول العكس، وهو أن البعض منا، وربما الكثيرون كانوا يحتارون في اختيارالصنف الموجود، ولو كانت الأصناف أقل بالتأكيد ، لما كان هناك تردد، ولكان الإقبال أكثر تركيزاً ، والشهية أكثر توجيهاً. هنا بامكان المرء الفضولي أن يكتب الكثير عما يتعلق بما أسميه بـ(سياسات البطون)، وارتباطها بسياسات العقول، وعلى أصعدة مختلفة.

ولعل اوتيل خان زاده قدَّم لي دعماً كبيراً في هذا المنحى معرفياً طبعاً، في تتبع سلوكيات الآخرين، وهم يتواجدون داخل المطعم، وعندما أتحدث كشخص، لا أعني أنني الوحيد الذي لاحظ، فثمة من كان يتصرف مثلي، ويسعى إلى استخلاص حقائق نفسية، تخص سواه، وقد أكون أحدهم، أو من بينهم.

13- الصباح المنتظر

الاستيقاظ الصباحي الباكر، في هذا المكان ، حيث استقبال بقايا نفحات الفجر، يلهم الذاكرة والجسد معاً بالتفتح، وكلٌ في مسار مختلف: الذاكرة وهي تنفتح على الكثير مما كان كامناً في خوابيها، في لحظة غير اعتيادية، والجسد وهو يستحم في برودة الصباح المنشّطة، وقد تلبَّسهاالأثير المدرَك في خفته المعهودة.

وأنا أطل من على شرفة الغرفة التي أنام فيها، تبدو الطبيعة بدورها وقد أطلت على ما يخصها من الداخل والخارج معاً. إذ أرمي بنظري تجاه الشرق، أو يشدني الشرق إليه، وبزاوية حادة، فيحدث اتصال أووصال حسي شعوري، بيني وبين الغلالات الأولى لذهب الصباح المذاب الملتهب والمتبخّر عالياً، من وراء جبل بيرمام الذي تلفَّع به، في لعبة الظل والنور، بينما بدت الشمس العفريت الصاعد من قمقمه ناري المشهد بصمت، كما ذكرت سابقاً، وقد تراءت على مقدمتها(لاخلفيتها) وهي تنزع عنها آخرالأوشحة الليلية، مجموعة رؤوس جبلية يانوسية الوجوه، والفندق بقاعدته الضخمة وواجهته البللورية يتلقى مباشرة دون استئذان أولى رسائل الصباح بدوره، بينما ثمة مجموعة عساكر مستلقون قريباً من الأوتيل، على عشب اصطناعي، تدثرهم بطانياتهم المزركشة، وثمة آخرون يمارسون دورهم المطلوب منهم في الحراسة، وليس هناك سوى العسكر، في ذلك الصباح الذي على تخومه يتبادل الليل والنهار المواقع كالعادة، ومن جهة الجنوب والغرب بدت مجموعة أكمات خياماً شبه دائرية تنغلق على أسرارها من الداخل.

ولأنني تحدثت عن الذاكرة، لابد أن أتوقف عن بعض فضائلها في التداعي! فقد تذكرت معنيين لكلمة هي واحدة حقيقةً، إنها tavik وtav ، الأولى تعني الشمس، حيث تستُعمل هكذا عند البعض منا، والثانية هنا تعني السحابة، والسحابة الماطرة غالباً، كما في قولنا **tav hat** ، أي جاءت السحابة الماطرة. العلاقة تبدو

قويـة بينهمـاإذاً، فالـشمس هـي المفعّلـة لليومي ، للمطـر. والـشروق فـي المفهـوم العملـي يفصح عـن خاصـية طبيعية، كما هو الغروب، وبصورة حسية، أعني شروق الشمس وغروبها، إذ أنها في واقعها الكوني لاشرق لها ولاغرب. تذكرت الزرادشتيين وموقفهم من الشمس، وعلاقة معتقداتهم بهـا، بالجبـال والـتلال البـارزة كمـا لـو أنهـا قبـب فعليـة تـضن بـداخلها علـى الخـارج وأهلـه . تـذكرت سلـسلة الكلمـات ذات الخانـة المـشتركة، أو الأصل المشترك:rok, roj, roz ، إنها في مجموعها تشير إلى الشمس والنهار واليوم، تذكرت jour ، وهـي تعني (يوم، نهار، ضوء) بالفرنسية، هي ذاتها كالمفردة الكردية، لكن ثمة قلباً في الحروف من جهة الترتيب تقريباً.

شدتني الطبيعة بمؤثراتها الصباحية، بعد أن تدوَّشتُ، وأمضيت بعض الوقت، فـي هـدوء محـرّض علـى الاسترسال وراء القوى النفسية وتـداعياتها، وتجلـى اليـوم الأول فـاعلاً بمنطلقاتـه الثابتـة ، وفـق قـانون خـاص بها.

حيث المشاهد الصباحية هذه ، شـكلت الخلفيـة الحيـة لمـا تـلا ذلـك، ونحـن نهـيّء أنفسنا، بعـد أن جـاوزت الساعة السابعة صباحاً، للنزول إلى المطعم، وقد كان علينا أن نستعجل الخطى قليلاً، كـون العـدد الـضخم مـن المدعوين، يفرض هيبته بالمقابل، وهذا ما تجلى في الذين رأيناهم سابقين إيانا. الأوقات هنا لابد من مراعاتها بدقة.

تنوعت الأصناف (الجبنة خاصة)، حيث كل شخص طليق في اختيار ما يريد والكمية التي يريد، ولست بصدد التعليق على هذا المنحى، إلا أنني أستطيع القول، أن نسبة لابأس بها، في إقبالها على الطعـام، وتحديداً فـي سلوكها المطعمـي(إن جـاز التعبيـر)، بـدت وكأنهـا جـاءت إلـى هـذا المكـان تلبيـة لـدعوى بطنيـة لـيس إلا، طوال أيام بقائنا هنا.

لقد كان علينا تناول الفطور، والاستعداد لاحقاً لدخول القاعة المخصصة لهذا الغرض، وهي تقـع شـمال الأوتيل، تفصلهما عن بعضهما بعضاً ساحة مستطيلة الشكل تقريبـاً، والقاعـة تلـك بنـاء طـابقي وحيـد، وتحتـل مـساحة واسـعة مـن الأرض، إذ أنهـا اسـتوعبت أكثـر مـن خمـسمائة شـخص، وكـان معظـم المتواجـدين ، أو المـدعوين مـن العـراقيين : العـرب والكـرد وغيـرهم، ولـوحظ بالمقابـل وجـود عـدد كبيـر نـسبياً مـن لابـسي العباءات والدشداشات ، وقد قدموا من مناطق عراقية متفرقة: من البصرة وبغداد والموصـل وغيرهـا ، وبـدا أن الاعتبارات العشائرية لها مكانتها في رموزها، وفي الوقت نفسه، فإن المشهد المرئي بيّن لنا إلـى أي مـدى لعب النظام المقبور دوره السلبي في نسف العراق كمجتمع مميَّز بمؤسساته وقوانينـه المدنيـة. وعـدا القاعـة المسماة، كـان هنـاك العديـد مـن الغـرف الملحقـة داخـلاً، حيـث أعـدت لنـشاطات كهـذه (اجتماعـات، حفـلات، مناسبات أخرى..)، وهذا ما لمسناه فترة وجودنا هناك.

لاحقاً كـان علينـا أن نمضي بعض الوقت، ريثمـا تحين الـساعة المحـددة، وبـدء النـشاط المـذكور، ولعـل اللقاءات الهامشية التي تتم ، وصـور التعـارف، والمناقـشات الجانبيـة غيرالمحتسبة، لهـا إغراءاتهـا، خـصوصاً وأن المدعوين يتقاطرون من جهات شتى، وأماكن متباعدة، وحدها نشاطات مـن النـوع المـذكور، تـؤثر فـي تحديـد حيويـة وهويـة الأشـخاص الـذين يُلتقـى بهـم، وهـذا مـا حـصل فعـلاً، فعـدا الـذين انطلقنـا معـاً، كـان ثمـة عديدون، سنحت لنا الفرصة بالتعارف أكثر وشخصياً، كما في حـال(فيـردا جميـل باشـا،عـارف جـابو، فرهـاد أحمد، عدنان حسين، أو كندال، د. بلقيس محمد، د. حافظ علواني...الخ)، فهؤلاء وغيرهم، كان يمكـن الـدخول معهم في أحاديث لا تعتبر جانبية كلياً، بقدر ما يتجذر الحديث في هموم حياتية مشتركة، ومـن النـواحي كافـة، لهذا كانت أيام الملتقى خصبة تماماً.

ولكن مهما يمكن القول عما ذكرت، فإن أي نشاط تتم الدعوة إليه، وعندما يتم الاستعداد له، يظل هو العنصر الاستقطابي الأكثر أولاً وأخيراً، لأنه هو الحافزعلى التفكير، وتفعيل ما هو مخطّط له، وجاري العمل به هنا.

وعلـى هـذا الأسـاس كـان انتظـار سـاعة الـدخول، صـباح الجمعـة فـي 17/9-2004، مـؤثراً مـن خـلال الحراسـة والتفتـيش الـدقيقين، ولا غرابـة فـي ذلـك، فثمـة مـسائل أمنيـة تراعـى هنـا، عـدا عـن وجـوداعتبـارات سياسية وإعلامية ودعائية لايمكن التقليل من أهميتها، وثمـة هـذا العـدد الكبيـر الـذي تقـاطر إلـى داخـل القاعـة،

والذي لفت الأنظار، وبدا كل منا معنياً أكثر بموضوعة الملتقى.
الكراسي المصفوفة في أنساق، ومعلومة بأسماء المدعوين، فرضت على المناخ طابعاً رسمياً أكثر، بغية الحفاظ على النظام، وليس لأن هناك تراتباً قيمياً معطى للمدعوين، إلا في حالات خاصة جداً لا مفر من العمل بها.
ربما كانت الساعة تقارب الحادية عشرة ، عندما تناهت أصوات داخل القاعة على مسامعنا، وكأن رفوف قطا حلقت عاليا معاً، حيث الجميع وقف مع تناهي الصوت. فقد كان القادم الأخ الرئيس مسعود البارزاني، بلباسه الكردي المعروف به، وكان على مقربة من الصف الذي ضمَّنا إليه، وبدا أكثر حضوراً بملامحه الكردية ، خارج الأضواء التلفزيونية، وهو يسلّم علينا، ليقتعد كرسياً كغيره من الكراسي في الصف الأمامي.
وعندما أقول الأخ الرئيس، فليس استعراضاً بلاغياً، أومجاملة، إنه الأخ في صفته الاعتبارية الانسانية والكردية عامة هكذا KAK MESûD ، وهو الرئيس لأنه تسنّم المنصب عن جدارة، ويستحقه، كما أعتقد.
ولعله في طريقته في تناول موضوعة معينة : دقيقة ومهمة ، يفصح عن جانب سلوكي مرئي، يتجلى في هدوئه، وربما في رغبة داخلية، ملخصها: تمنّيه في لو أن الموضوعة تلك، لم تصل إلى الحالة التي يتعرض لها، لما فيها من إشكالات، ولما تستثيره من حساسيات بالمقابل، فالكلمة الافتتاحية كانت له، وسط تصوير تلفزيوني، ومن قبل أكثر من قناة كردية وعربية محلية خاصة، حيث ارتجلها بعربيته المعهودة بمفاصلها، وهو يتأنّى كلما بدأ بتوضيح أو شرح فكرة جديدة ، في إطار الفكرة العامة التي تستأثر باهتمام الجميع وبمستويات مختلفة.
لا أستطيع ذكر ما تحدث عنه تماماً وبالتفصيل، وإنما أستطيع ذكر أهم الأفكار التي توقَّف عندها، وهي التي شكلت منذ زمن طويل الشغل الشاغل له ولسواه من المسؤولين الكرد(وأشير هنا إلى الأستاذ جلال الطالباني خصوصاً) حيث القضية واحدة.
ماهي أهم الأفكار الرئيسة، التي تخللت كلمته بوصفه راعي الملتقى؟
- العلاقات التاريخية المديدة والقوية، رغم كل صور الخلاف والاختلاف بين الكرد والعرب بوصفهم أهم قوميتين في العراق، دون نسيان الأخوة الآخرين وتمايزهم القومي : كما في حال الآشوريين والتركمان وغيرهم.
- الوضع الصعب الذي تعيشه منطقتنا، والمنطقة العربية عموماً والجوار، وبشكل خاص الوضع في العراق، وما يمكن القيام به ، درءاً لأي عاقبة وخيمة تنعكس سلباً على الجميع.
- الرغبة الجادة في البحث عن سبيل مشترك لعيش مشترك أكثر استقراراً.
- ماكان يمثله نظام صدام الآفل من خطر ليس على الكرد وحدهم ، وإنما على العرب كذلك ، وسائر القوميات الأخرى في العراق، وعلى دول الجوار.
- المحاولات المستمرة التي بذلتها القيادات الكردية في علاقتها بنظام بغداد المنهار، رغم المذابح المرتكبة أكثر بحق الكرد، والتي لم تجد نفعاً في ظل نظام دموي، معاد للجميع هنا.
- العلاقة مع الأمريكان ، التي ليست مصيرية، فما يهم هو سلامة العراق ، والمهم هنا أيضاً ضرورة الاعتراف بالكرد كقومية، وعلى أرض الواقع ، وليس على الورق فقط.
- التشديد على قضية كركوك، باعتبارها مدينة كردستانية، وتضم فئات المجتمع العراقي كافة، وهي النقطة التي شدد عليها في لقائه مع فضائية العربية في دمشق بتاريخ 17/10-2004.
هذه جملة الأفكار التي ركّزعليها الأخ الرئيس، وهي الأفكار التي تشغل ذهن كل معني بأمن المنطقة، في بلده وفي الجوار، ويشترك فيها السياسي مع المثقف ، مع الإعلامي، وعلى أصعدة مختلفة.
سأسعى في هذه النقطة إلى توضيح موقفي مما أنا فيه، وبخصوص ما سمعت وذكرت. ففي الوقت الذي أعرّف بنفسي باحثاً، كأي باحث له نظرته الثقافية تجاه قضايا عامة تشغل مجتمعه ككل، أجدني في حيّز مختلف لما يقوم به السياسي ، أو المسؤول السياسي. فـ(كاك : مسعود) في موقعه، كان يريد منا أن نعرف ما

يقوم به، ما هي المستجدات السياسية العراقية وعلى الصعيد الكردستاني، تلك كانت وجهة نظره التي شدَّد عليها.
ويمكن القول أن الذين تواجدوا في المكان كانوا مختلفين في مشاربهم، في وجهات نظرهم، وأعني بذلك: العرب والكرد، أو الكرد والعرب أكثر.
وثمة مفارقة التسمية وحدودها هنا، وهي أن الكثيرين ، انطلقوا من موقعين: عربي وكردي، أو كردي وعربي بالمقابل. فبالنسبة لي، لا أنسى أنني قطعت حدوداً لها اعتبارها السياسي، وأحمل هوية لها طابعها الاعتباري السياسي بدورها، حيث أُعرف بها، وأعتقد جازماً أن المثقف العربي ، أو المدعو العربي، ذهب إلى هولير بوصفه عربياً، وفي ذهنه مفهوم العربي بوساعة حدوده التي يعرّف بنفسه داخلها، وكأنه انتقل إلى هناك ليقول كلمته كعربي ، وله امتداد عربي عراقياً ، بغض النظر عن الروابط الأخرى : التاريخية المختلفة التي تقوم بينه وبين الكردي وغيره، وفي الحالة هذه، يبدو الكردي بالصورة تلك! إنه في الوقت الذي يحمل هويته القطرية (تحت راية الدولة التي تعنيه) ، فإن شعوره بكرديته، يتجذر في هذا المنحى بالذات، ولعل الكثير من اختلاف وجهات النظر تفصح عن حقيقتها بالطريقة هذه، وفي الحالة هذه يمكن التساؤل : ماالذي يدعونا إلى التلاقي والتحاور؟ إن هذا ينطبق على الدول ورموزها، وينطبق كذلك على المعنيين بالقضايا المشتركة، وعندما يُعرف كل منا بحدوده المميَّزة، فإن الكثير من الكلام المختلف الآخر، سيقال .
إنني مازلت أشدد على أن السياسي ، وهو يفكر بالقضايا العالقة، وهي ساخنة ، وكما سمعنا، مهما برزت بلاغتنا في صياغة الكلام، يبقى هناك قاسم مشترك، يخص موضوع الجغرافيا والإرث الثقافي المشترك، وحتى التاريخ الذي يذكّر بالكثير من الوجدانات اليومية والحياة التي امتزج فيها العربي والكردي والآشوري، وثمة ضرورة قصوى للتفكير بطريقة مختلفة، وهي التحدي الأكبر الذي يواجهه التحدي نفسه، تحدي موجَّه إلى الكردي وله، ولكنه تحدٍّ ، ليس بوسع أي مثقف، مهما ضؤل موقعه، تجاهله، وهنا، وعلى هذا يمكن التحاور بعمق أكثر.

14- أول الحوار، أول الصراخ- أ-

لايمكن هنا التعرض إلى كل ما قيل أو قرىء تالياً. كان ثمة كلمات كثيرة، تخص محافظ هولير، حيث قرأها مرحّباً بضيوف الملتقى، ومن ثم الاستاذ صلاح بدرالدين المسؤول عن تنظيم الملتقى، والذي أكَّد على العلاقة التاريخية القوية بين الكرد والعرب، إضافة ما جاء عبر الرسائل والبرقيات المرسلة(أشير إلى طرافة برقية محمد غانم ومفارقاتها الجميلة كما عُرف بها)، إذ أنها في مجموعها أكدت على أهمية الحواروأخلاقية الحوار، والدور الفاعل للقاءات من النوع المذكور، سواء في تقريب وجهات النظر وتعميقها، أو في التعريف بتلك المسائل والقضايا العالقة، التي تتطلب المزيد من الجهود المضنية والمرونة في الحوار في المجال المسمى، حيث تطييب الخواطر لايشكل مبدأ حوارياً، وكذلك إبراز متانة مايسمى بـ(الأخوة العربية الكردية) أو بالعكس، بينما في الجوار، لا بل في الأعماق النفسية، لابل في سياق الكلمات التي تُتلى يمكن تلمس الكثير من التوترات أو الشكوك أو التحفظات، التي يمكن تسميتها، إذ لايعني التركيز على الشراكة التاريخية ، أو المصير التاريخي المشترك، إلا الوجه الآخر والأهم والأكثر خطورة، وهو أن التاريخ المشار إليه مخادع ومخدوع، ففيه الكثير من الأمثلة الحية(وهل من مثال ميت؟) في مخادعته، تلك التي تؤكد حساسية الوقائع المتجددة بدلالاتها التاريخية فيما بينهما، ومخدوع ، عندما يحصل استغباء التاريخ نفسه، أو تجاهل وجهه المليء بالكدمات، إن جاز الوصف هنا.
إن كل الذين قدَّموا موضوعاتهم الرئيسة، أفصحوا عن تلك الضرورة التاريخية، وهي أن لابد من التحاور، أو التحول نحو حوار فعلي ، والتواصل معاً في بناء التاريخ كأخوة فعليين، وليس كأصدقاء فقط، وأن الأنظمة الدكتاتورية(نظام صدام المخلوع نموذجاً)، وكل نظام شبيه، لهما دور كبير وخطير، في نسف الروابط الأخوية، وتبقى الديمقراطية هي المحك في المنحى المذكور، بغض النظر عن التفاوت الملحوظ بين كلمة وأخرى.
ما قرأه الدكتورمنذر الفضل في (مستقبل العلاقات العربية الكردية...العراق نموذجاً)، وما تقدم به

الاستاذ صلاح بدر الدين في (نحو عقد سياسي جديد بين الكرد والعرب)، وما سمعناه من الدكتور عبد الحسين شعبان في (جدلية العلاقات العربية الكردية..تهديدات وتحديات)، وكذلك الاستاذ أكرم البني، حيث قرئت مادته بالنيابة عنه(رؤية عربية للقضية الكردية)، إضافة إلى مادة الدكتور شيرزاد نجار في (الحل الفدرالي للقضية الكردية مدخل جوهري لبناء جديد للدولة العراقية)، ومن ثم العدد الكبير نسبياً من المداخلات المقروءة والمرتجلة التي قدمت طوال جلسات ثلاث، حيث لا يمكنني أن أتوقف عندها ولو بالاسم خشية نسيان أسماء، لاحقَّ لي بعدم ذكرها، وقد جاءت متفاوتة، ولكنها عبَّرت عن أجواء حقيقية تسود لقاءات من النوع المذكور، حيث نشدان السلام والوئام والمحبة ...الخ، عناصر متكررة ومراهَن عليها. إنها كلمات داعية إلى السلام ، فلماذا الحروب إذاً، وكيف حدثت؟ وإلى المحبة والإخاء، فلماذا الكراهية والحقد ؟ وهما قائمان في بنية العلاقات الاجتماعية، وفي سياقات تاريخية مختلفة، وإلى العراق الموحد والاعتراف بالكرد كشعب وقومية في الغالب، فلماذا التخاصم والتنابذ والافتئات الاجتماعي العراقي العراقي، والعربي الكردي ، أو الكردي العربي، إذا أردناها قضية خلافية في ثنائيتها، وكيف جرى ويجرى هذا الرفض للتمايز، ومن وراءه؟...الخ.

في المكان المذكورتداخلت الكلمات، وتجلت المشاعر مدوزنة لها أكثر مما يجب، حيث أظهرت لنا(لي؟) حالة الفيض التي تميزت بها. فضاء القاعة شهد ترصيصاً للأصوات وهي تشدد على الأخوة العربية الكردية أو الكردية العربية(أذكر الحالتين في التركيب، توضيحاً للبعد القيمي، ومافي التقديم والتأخيرمن أثرة وإيثار معتبرين طبعاً)، المتابعة التي شهدت قوة الإصغاء لهؤلاء الذين حضروا إلى هذا المكان، دون نسيان تسمية حالة الملل أو التململ التي كانت تتجسد في الهمهمات وهي تتعالى بين الحين والآخر، لتغدو لغطاً، وإشادة بقدرات الذات المحدودة، كما تبيَّن ، وليس إشهاراً بها، كونها رسمت الحدود الفعلية، كما أعتقد، بين ماهو عليه الذين مثّلوها واقعاً، وما قدموا من أجله، ولهذا كان ثمة كلمات كثيرة، أم عديدة تُختصر(طبعاً من عدا الرئيسة)، وبرت فضيلة الصوت، واسترساله في جنبات القاعة، والطريقة المعتمدة، وأحياناً الصياغة، حالة لافتة للنظر، حيث السكون الذي ران، أعطى انطباعاً(أم فكرة؟) عن تنوع المدعوين والمشاركين.

لايمكن القول هنا، أن كل الذين حضروا، حملوا في جعبتهم تلك الزوادة الفكرية التي تشكل عصارة روحهم الحقيقية، وقد استحالت كلمات مسموعة بجلاء، أو أنهم حضروا لأنهم كانوا يريدون أكثر من الحضور، وهو أن يرتقوا بصفة الانسان الذي ينبض بالحياة المنشودة بين جنبيهم، لا أسمّي أحداً، إنما يمكن القول، أن ليس صحيحاً البتة ما يمكن لأحدهم أن يقول، وهو أن كل من جاء، تقدَّم بانطباع، وتأخر بسواه، بل ربما تعمَّق انطباعه الأول، أو تعدّل، وربما أمكن القول هنا بوضوح أكثروهو أن يكون العكس الكلي صحيحاً بالمقابل، وهو أن نسبة لافتة(كم؟) حضرت لا لتسمع ، لا لتنظر وتبصر، لا لتقيم علاقات مستقبلية، لا لتؤسس جديداً لها مع عالميها: الداخلي أولاً فالخارجي ثانياً، إنما لتزداد انغلاقاً على ذواتها. جاءت لتأخذ مكاناً، وتمارس استجماماً في المكان أياماً عدة، هي أيام الملتقى، ويكون هذا هو حضورها ومشاركتها في الملتقى.

وفي الوقت الذي أشير إلى نقطة شديدة الأهمية (على الأقل، في محاورة نفسي ولنفسي)، وهي أن ليس بالامكان تقييم كل الذين حضروا وقضوا أياماً عدة بلياليها(آكلين، شاربين، نائمين، متدّوشين، مفرفشين...الخ)، وهي صيغة قد تثير حفيظة البعض منهم، وربما أكثرمن ذلك، لكأني أتحدث هناعن أنهم لم يجدوا ما كان بوسعهم تحقيقه خلاف ما ذكرتُ، أي أنهم باختصار: باحثون عن الموائد! إلا أنني، ولأنني لا أسمي أحداً، لأن هناك ما هو أكثر من المسمى، والتسمية تعني التحديد، وثمة ما يتجاوزالعدد لو تم ذكره، أستطيع القول، أن ثمة اعتبارات ملحوظة في مناخ كالذي عشناه في الفترة المحددة، ومن بينها، أن نسبة لافتة وبجلاء، لم يكن لها أي علاقة بمفهوم الملتقى، والحراك الثقافي والاجتماعي للملتقى.

كان لحضورها اعتبارات أخرى، ومن بينها ضرورة تواجدها فقط، ولو بالصورة، وفي الحالة هذه، تكون الضرورة التي يجب علينا الالتزام بها، وهي مراعاة الضرورة الأولى، كما لو أنها قدمت ليس للحضور الرمزي، ومن خارج فعاليات الملتقى، كما هي الحال في أفلام تعرض من خارج المهرجان،

والأمر لا يزيد عن ذلك، وكان علينا ونحن نتابع ونشارك، مراعاة الحضور الرمزي، أعني العدد الكبير، بوصفه عدد الحضور الفعلي، كما لو أن المتواجدين جميعهم ، يفرضون حقيقتهم بوصفهم اعتباريين في الملتقى، وبالنسبة للذين شاركوا مشاركة فعلية، كما لو أنهم آذان لاتسمع فقط، وإنما تصغي، لا تنظر فقط، بل تبصر ما يجري، وكل ذلك كان له فعله النفسي والعقلي، من جهة مراعاة ما يمكن قوله، أو ما يجب قوله أكثر.

وبدت عبارة (الملتقى الثقافي) مادون اسمها، تطبيقاً لمجوعة حقائق لم تتجذر على أرض الواقع، وهذا يفصح عن أمور عدة، تتلخص المشاهد التي تثير القلق، أو تبعث الأسى في النفس، وخطورة الثقافة التي يشار إليها، ونحن(هكذا أقول هذه المرة) دونها مقاماً، أعني أنها لم تتحدد بوصفها المجال اللغوي والاجتماعي والسياسي المتمتع بخاصية التعددية في القوى المفعّلة لها، أعني الموسّعة لحدودها.

كان ثمة تقليص للبعد الثقافي ، لفاعلية التلقي، لفاعلية المرسل الثقافي، في الوقت الممنوح لمن يريد التكلم، وكأن المشارك القولي هنا، يقوم بدور مقروء ومخطَّط له مسبقاً، من خلال الضغط المفروض عليه، حيث الكم الكبير أعطى للملتقى طابعاً طقوسياً في الغالب، وبدا الذين نظّموا والذين حضروا بمختلف انتماءاتهم، مأخوذين بما كان يُراهَن عليه منذ البداية، وصار بوسع هذا أو ذاك أن يقول : لقد أُسقط في أيدينا...الخ.

لقد توجهنا بصفتنا مثقفين، ودخلنا بصفتنا ذوي توجهات سياسية، وخرجنا بصفتنا إعلاميين أكثر.

أهكذا كان المخطَّط والمستهدف من الملتقى؟

ليس ترسيماً على كل ما تقدَّم وتأخر في الملتقى، إنما ثمة حقيقة ملموسة، تتجسد في الوضع الخاص بالعراق ، ولكردستان العراق بالاسم، وهو وضع روعي تماماً، من الناحية الإعلامية والدعائية، وفي الحالة هذه فإن الثقافة التي عُرِفنا بها، وبها اندفعنا، كان عليها (ولضرورة ظرفية) مراعاة المستجد العراقي والكردستاني العراقي : السياسي والاجتماعي والنفسي، فتكون وسطاً في أفضل حالاتها تبعاً لماتم تأكيده آنفاً. هنا تختفي النظريات، تختفي الأقوال المأثورة لرجالات الثقافة، تختفي تفكيكات القول، لإخلاء المكان برمته لماهو منتظَر قوله، وهو: مناشدة النفوس أكثر من مخاطبة الرؤوس، تحريك المشاعر، وتطييب الخواطر، أكثر من اعتماد لغة التحليل العقلية، والدخول في مناقشات مختلفة..الخ.

ربما كنا مثاليين في فكرتنا وتوجهنا وجلوسنا وطلباتنا، وقد كان علينا الانصياع لمستجدات الواقع ، للطابع الظرفي، خصوصاً وأن عبارة(الصداقة الكردية العربية) التي خطّطت بالعربية والكردية بالحروف العربية بدورها، كانت أكثر من إعلام قولي، باعتبارها رهاناً على المشاعر وسبكها في قالب تاريخي ، لتجاوز أزمة، وتفهُّم وضع، وكان علينا إدراك واقع الحال بالفعل، وكان التمني والتشكي وجهين لعملة واحدة هي في حقيقتها : الملتقى، إذ أن معظم الذين أدلوا بدلوهم، أكدوا ما كان يجب عليهم تأكيده، كما لوحظ، وهو أننا مازلنا في حاجة إلى تقوية مشاعرنا وربما تطهير عواطفنا أكثر، بالقليل من لغة العقل، التي لم يحن أوانها كما ينبغي.

فوسط الثناءات المتبادلة، بين المثقفين ومن في عِدادهم، لايبدو الحوار مأخوذاً بصفته حواراً، وثمة قليلون استجابوا للغة الحوار، بوصفها تسمية للشيء باسمه، وفي الوقت الذي كانت الكلمات المسترسلة تتخذ مواقعها بنوع من الاستحياء ، وهي تتناول موضوعات مؤثرة، خشية إثارة مشاعر، هي في الأساس مستنفرة، أي وجدت حدود وحواجز، كان من الصعب إن لم يكن مستحيلاً الاقتراب منها، لكأننا تلاقينا، لكي لانفترق، وليت الوضع كان هكذا، تلاقينا لأننا لم نلتفت إلى الوراء، إذ كان (الأمام) هو رهاننا جميعاً، لكأن الماضي تم تنسيقه، واستعدَّت الذاكرات للآتي من جهة المستقبل، وهذا لم يكن كذلك صحيحاً.

تُرى هل كان ثمة خطورة في تناول الموضوعات الحساسة، وعلى أعلى المستويات ؟ على مستوى الشارع ، وفي البيت، وما يقال همساً، وفي الحلقات الضيقة؟ هل كان لاسم الملتقى وصفته التأثير السلبي ، لجعل المكان مكان أصدقاء، يعرفون بعضهم بعضاً، ويتواصلون مع بعضهم بعضاً ، حتى قبل أن يلتقوا في المكان المذكور؟ هل غلب الاسم التسمية؟ هل برزت كلمة(الصداقة) والتي أشارت إلى المستقبل، لا إلى

الماضي، وبدلاً من (الأخوة) التي راهن الكثيرون عليها، دون التدقيق في دلالاتها المثيرة، وكأن المتواجدين ورثة تاريخ مشترك ومناصفةً تماماً، لتختصر وتغيّر مسار ما كان يجب الخوض فيه بصراحة (الأصدقاء) أكثر؟

ألم يكن ذلك أول الحوار الذي ضاق بمعناه، وأول الصراخ الذي لم يُفصح عنه واقعاً؟

لقد كان الاستسلام للنوايا التي لم تُسمَّ في حدها الوسطي، أكثر بكثير من مواجهة النوايا تاريخياً وثقافياً.

ثمة محاذير إذاً، ثمة وقائع مهدّدة إذاً، ثمة تحفظات إذاً. الحوارلازال.. هناك إذاً!

14- أول الحوار ، أول الصراخ – ب –
إلى الشيخ " سعيد " ولكن...

أن يتم التأكيد على أن الفكرة التي تُطرَح للنقاش،لاتتطلب الحماس والوقت والجهد المخصَّص لها، على أكثر من صعيد، هوغاية في الإثارة والاستثارة، إذ لا أحد بوسعه نسيان أو تناسي المعاناة التي تسببها الفكرة تلك.

ما تبدَّى لي ومنذ اللحظات الأولى، هو التشديد من قبل كثيرين ، على ضرورة استبدال كلمة(الصداقة) التي تُذكر أو تقال في مجال علاقات بين أشخاص متباعدين، أو دول لاروابط مباشرة فيما بينها، بكلمة (الأخوة) التي تتحدد بوجود أفراد ينتمون إلى عالم واحد موحَّد من العلاقات التاريخية والاجتماعية والمعتقدية ، وحتى دول بوصفها تدور في الفلك نفسه ، ولأن أكثر من مصير مشترك في الصميم يجمعهم مع بعضهم بعضاً.

هذا ما تلمسته، ما سمعته مراراً، ما اعتبرته ليس البداية المشجعة، وإنما الحقيقة التي تثلج الصدور، في مجتمعنا، في بيئتنا، وهي المبتغاة، ولهذا كان أساي أكبر، ولهذا كان سخطي على ما أنا فيه مضاعفاً.

إذ ليس بوسع أي كان، التخلي عن غواية الفكرة الملحاحة، أو التحفظ عليها، إلا إذا كان من بين أهليها، أعني الذين يستشعرون أهميتها، وما إذا كانت بالفعل هكذا أم لا، ما إذا كان الواقع المعاش يمضي، أو يوقّع عليها بسهولة أم لا، ما إذا كنا ضليعين في تطرية أنفسنا كما هو المعتاد هنا وهناك.

لم يكن الوضع كما تم تصوره، كما أن محاولة لفت النظرإلى اعتماد الصفة المجاملاتية في مسائل أو قضايا لها عراقة تاريخية، وكأنها خلاف التعريف بها، تؤكد العكس تماماً.

لقد انتظرنا طويلاً البدء بالمناقشات أو المداخلات ! وعندما أقول هذا، فلأن المسافة الفاصلة بين الفترة الصباحية والأخرى المسائية، للدخول في الحوارات والمناقشات ، كانت ذات طابع نفسي، رغم أننا بذلنا جهداً مضاعفاً فترة الغداء، حيث حصلت فوضى نسبية، بسبب تزايد العدد المندفع نحو المطعم، والوقت محدَّد، إلى درجة أن إدارة المطعم اضطرت إلى فرض تنظيم على الآخرين الذين لم يدخلوا بعد لتناول ا الغداء، وكان لابد من الانتظار لبعض الوقت، مع ما رافق ذلك من شعور بالضيق النفسي ، والمطعم لم يستطع في الفترة تلك، الاستجابة لكل الأفواه المتواجدة، وبدا التململ واضحاً، امتد إلى الفترة المسائية كما لاحظنا ذلك، إلى درجة أن نسبة مرئية محسوبة، اضطرت إلىاستباق الوقت ليتسنى لها الدخول ، قبل أن تتعرض لضغوط نفسية أخرى، أولأنها استصعبت الوقوف والانتظار في طابور لم يكن يُخفى على أحد، ولعل تواجد كثيرين من المدعوين بأكثر من صفة، لحظة الافتتاح ، وفي اليوم الأول، ضاعف من مهام القائمين على تنظيم الملتقى، وأحرجهم تماماً.

ولكن لاحقاً بدت الأمور اعتيادية ، حيث قل عدد الموجودين، وهذا ما لمسناه بوضوح.

كان الحماس للمناقشات ملموساً، من خلال تسجيل الأسماء وتنوعها وحتى كثرتها، وعنى ذلك أن موضوع الملتقى هوالمهم أكثر، خصوصاً وأنه يتخذ صفة استثنائية موقعاً وتاريخاً.

كيف يمكن استعراض ما قيل، ويخص مفهوم الحوار، والبعد الثقافي للحوار نفسه؟

(كلنا حبايب!)، هكذا يمكن تلخيص معظم ما قيل، ليس هناك عداوات بين شعوب المنطقة، بين العرب والكرد(أسمّيهما بالاسم ، لأنهما الطرفان المعنيان بالموضوع هنا)، حيث أشير هنا إلى بعض ماورد في ورقة الدكتورشعبان. لاتوجد كراهية، لا أحقاد قائمة، لا حساسيات موجودة..الخ، العرب والكرد منذ مئات

السنين عاشوا أحباباً وأصحاباً، ودخلوا في علاقات مصاهرة ، وتحالفات ضد الأعداء القادمين من الخارج(الحروب الصليبية، دائماً تُذكر، والقائد الكردي البطل المسلم، كما هي العادة : صلاح الدين ..الخ)، إنها المفاصل الحيوية لمجمل ماكان يتردد، فالشعوب دائماً تكون مغدورة، والأنظمة دائماً تكون مسؤولة، ولأن التاريخ يكتبه الحكام ومن يتحدثون باسمهم، لذلك لا بد من وضع تاريخ آخر، ذاك هو تاريخ الشعوب.

قد أكون متجنياً إن أنا شددت على هذه النقطة، إن أنا تقدمت بفكرة مغايرة(بعض الشيء على الأقل)، بخصوص علاقات الأخوة المذكورة، وما يمكن البت فيه ، أو الفصل بين ما هو سياسي وثقافي.

السياسي له شأن مختلف، عندما يسعى إلى وضع تصورات مختلفة لما هو موجود، وهو يتحدث عما يشد العربي إلى الكردي، كمثال على التحاورالأخوي، لأنه يضع التاريخ أمامه، ويحاول تغيير مجراه، أو يدعو الآخرين إلى السير هكذا، ضداً على التاريخ السابق ، أعني التاريخ الذي كان يتحرك في ظل نظام قمعي دموي، وبدا الملتقى أقرب إلى الاحتفالية بهذه المناسبة، لم يكن هناك اعتراف بالعوائق كما هي موجودة في الواقع، لكأن النظام هو كل شيء، ولكن النظام الذي كان كل شيء انتهى برموزه الكبرى، وما زال هناك أكثر مما يمكن البحث فيه، والخوف منه، بوصفه أبعد من حقيقة وجود النظام، وإن كان هذا يتحمل مسؤولية كبيرة، في خلق وبث العداوات بين أبناء البلد الواحد، الشعب الواحد، القوميات المختلفة..ولكن زوال نظام ما، لايعني بسهولة زوال الذاكرة التي ركّبها للذين كانوا يتحدثون باسمه في المؤسسات والدوائرالخاصة والعامة، في القرى والبلدات التي صيرت مسيَّسة بدورها، فهؤلاء كثر، ولا بد من تعيينهم بأسمائهم، أو لا بد من المجاهرة بالحقائق التي تمارس سلطتها في النفوس خلاف ما يزعمه أصحابها.

أشير هنا إلى تنوع أعمال التخريب والقتل والاختطاف وتلك المنشورات والدعوات التي تشدد على ذلك، في الكثير من المدن العراقية، وتلك التي تهدر دم الكردي من قبل بعض أئمة المساجد(في الموصل مثلاً، حيث شُدّد على ذلك كثيراً)، على حجم الدمار الهائل والمرتبط بسياسة تتجاوز محيط السلطة الواحدة والنظام الواحد، إذ النظام انهار، والذين يخربون ويقتلون بطرق مروّعة موجودون في كل مكان في العراق.

ليس هذا تصعيداً بالموقف، وإنما محاولة مقاربة الخوف الموجود، والخطر الموجود، والعدد الهائل الذي ينشغل بالعنف ويبحث عن المزيد من الضحايا الكرد(خارج مناطقهم المرسومة، حيث يصعب عليهم الوصول إليهم)، وثمة مناطق عديدة شهدت أعمالاً من النوع المذكور، حيث الحكومة المركزية هي التي تتولى مسؤولية حفظ النظام، كما في الموصل وبغداد وكركوك.

لأتوقف عند مثال صارخ أثار بلبلة في القاعة، وما لها من مدلول، في هذا المنحى. ويتعلق بأحد المداخلين، الذي سجَّل اسمه مسبقاً،وبدا متوسط العمر، خفيف الذقن، واسمه الشيخ " سعيد"، بكلمته التي بدت استفزازية، وقد كانت هكذا بالفعل، إذ أنه أفصح عن حقيقة ما يفكر به(أم تُراه كان مدفوعاً من قبل جهة ما؟إذا انضوينا تحت راية تليدة، هي التخوين!)، وهو يشدد منذ البداية على أنه كردي، وكردي فقط، وليس عراقياً، حيث تعالت همهمات في القاعة إثر ذلك، ثم جاء القول الأكثر إثارة، وهو حديثه عن أن العرب لم يقدموا للكرد ما يبقيهم مخلصين للود المبذول من قبلهم، لقد باعوا الأمة العربية للصهاينة (وهذه عبارة مؤلمة وقاسية بالفعل، خصوصاً في تعميميتها)، وهنا حدث ما كان يتخوَّف منه، حيث تعالت أصوات الاحتجاج، وكلمات تقريع، ومحاولات انسحاب من القاعة من قبل الكثيرين، وطلب العديدين من المدعوين العرب بالرد عليه .

تمت محاولات تهدئة المتواجدين ظاهرياً دون تهدئة النفوس طبعاً، والذين استعجلوا في الرد وبالحاح لافت، وشددوا على الأخوة العربية الكردية، وعلى الآصرة الاسلامية، والمصير المشترك، ساهموا في تهدئة المواقف أكثر. أهو فعل ورد فعل؟

ما يمكن قوله هنا، هو عدم وجود من أيَّد الشيخ سعيد فيما ابتدأ به وأنهى به مداخلته، من بين المتواجدين الكرد، فهم أنفسهم لم يشأوا سماع كلمات كالتي قيلت وتردد صداها المرعب في أرجاء القاعة، وما يدل على ذلك ، هو أنه لم يرفع أيٌّ كان صوته مؤيّداً بصورة معينة ، ماذهب إليه المداخل المذكور.

وكان للمكان/ الموقع دوره المؤثر في مضاعفة التشنج عربياً، والتحفظ والتخوف من النتائج كردياً، وأعتقد أنه لو كان الملتقى في مكان آخر، غير الحدود الكردستانية المعلومة حتى الآن، لكان الوضع مختلفاً تماماً.

وفي الوقت الذي يُرفض فيه، أي اسلوب، أو صيغة كلامية من النوع السالف الذكر، سواء بمباشرتها أو تعميميتها الصادمة والاتهامية والتخوينية الحديث القاطعة، إلا أن حالة استثنائية كهذه تستدعي طرح أكثر من سؤال، ليس بغية إضفاء صفة تبريرية على ما قيل، وإنما لمقاربة الحالة، وكيفية تبلورها .

ترى ماالذي دفع بصاحب القول إلى أن يظهر بصوته الحاد، ونبرته الاتهامية؟ هلاّ تساءل أحدهم عن خلفية ما تحدث عنه وبه؟ ماذا كان وراءه ليقول كل ما أمكننا سماعه؟ أي مآس تجلت أمام ناظريه، في السنوات السابقة، أيام النظام المخلوع، حيث الذاكرة التاريخية لما تزل تنزف دماء، وتسبب آلاماً مبرّحة لأصحابها؟ وفي الحالة هذه : ألم يكن صريحاً مع نفسه أكثر من الكثيرين ، ممن ذهبوا بالقول بعيداً، وهم يستعرضون مآثر ماكان يُردّد سابقاً في(Her bijî her bijî her bijî Kurd û Ereb)؟ في الوقت الذي كانت الوقائع تؤكد مأسوية ما كان يجري . ترى هل كان الشيخ سعيد" شاذاً" فيما اعتبره حقيقة تقضُّ مضجعه؟ ألم يكن ما فاه به، العنصر الأهم من عناصر الحوار، هذا الذي يدفع بكل محاور إلى أن يقول ما عنده، وليس أن يبحث عن أهم النقاط التي تراهن على فاعلية المحبة والصداقة والأخوة، وهي تعاني من خلل ملحوظ؟

أشدد أكثر من مرة، على أنني(ومن هنا) وبعد مرور أكثر من شهرعلى الملتقى، لست مع الصيغة المطروحة ، ولا بمناخها الاتهامي اطلاقاً، لكن يبقى الجانب الرئيس في الموضوع، وهو: لماذا يتم تجاهل ذاكرة المأساة المروّعة كردياً، حتى من باب المؤاساة أو العزاء؟ ربما كان هناك سوء في التعبير، في كيفية الإيصال، وربما كان هناك رغبة في المعاتبة ولو أنها جاء ت قاسية، وفي جو بدا طقوسياً، حيث لم ينبرأي من الآخرين لتهدئته، لمؤاساته بعض الشيء. فكل ماجرى من آلام وموبقات وفظائع، يتحمل النظام السابق وحده مسؤوليته.

ترى ماذا كان يحصل لو(أقول" لو" هذه المشؤومة والمرذولة والمنبوذة!) ، لو أن أحد الأخوة العرب، أو الأصدقاء العرب، حاول تعديل، أو تلطيف المعنى، وأكّد فاعلية الاسلام عبر مفهوم (التسامح)، أن مارس نوعاً من النقد الذاتي، لأن ليس من المعقول أن كل الموبقات الواقعة، يكون النظام هو المسؤول عنها!؟

بقي الشيخ سعيد وحيد صدمته بما حصل، وما تجلى هو الحذر الذي يسم مواضيع من النوع الآنف الذكر؟

إن هذا يُبقي الإشكالية قائمة، ويجيّر الحوار كمفهوم، ولعلي إلى جانب آخرين، حيث تألمنا في الحالتين : فيما قاله الشيخ سعيد، وفيما قيل لاحقاً، آثرت وضع مجموعة الأسئلة والملاحظات التي دوَّنتها جانباً، بخصوص ما سمعته منذ البداية، أي ما يتعلق بورقة العمل المقدمة وسواها، واستحضرت عبارات جديدة، على خلفية ماجرى، ومتخلياً عن كلمتي المكتوبة كذلك، ويمكن إيراد ما ارتجلته هنا.

(أمسيتكم سعيدة

يبدو أن الجليد لم يذب بعد، فمن الملاحظ أننا نسعى إلى الاعتماد على مشاعرنا، وليس الارتقاء بأفكارنا، كما ترون،إنني أستميت في الدفاع عن كرديتي إزاء العربي، لكن لأثبت أنه عربي، وعندما أسعى إلى ذلك ، فلكي يعرف أنني كردي بالمقابل، فلا اتصال إن لم يحدث انفصال.

لكم نحن بعيدون عن الحوار! يعني ذلك، أن الموتى لازالوا خارج قبورهم، ليس لأنهم يريدون ألا يدفنوا، وإنما لأننا نرفض دفنهم، نبقيهم خارج قبورهم، نحوّلهم إلى عدة وعتاد لنا، كي نتحارب.

هكذا نحن! يفتننا الماضي، ومستقبلنا هو خلفنا، ولم نتحرر بعد من وطأة التاريخ، لنحسن التعامل مع الحاضر. كيف يمكن الحوارخلاف ذلك؟ لقد سعيت في مختلف دراساتي ومؤلفاتي إلى محاورة الذين كتبت عنهم، حيث لا أعتبر الآخرين الذين أعيش معهم، أو يعيشون معي منفصلين عني. أذكر هنا بما قاله غاندي العظيم: أنا هندوسي، مسلم ، مسيحي، يهودي..، وبوسعي أن أقول: أنا كردي ، عربي، آشوري، تركماني،

أرمني....الخ.

كلناعرب داخل القاعة هذه! إذ أننا نقرأ ونتحدث بالعربية جميعاً. ولكن انظروإلى العبارة المكتوبة عالياً(عاشت الصداقة الكردية – العربية) يليها(bijî dosta yetî Kurdî Erebî)، فهل قرأتم العبارة هذه، أما كان بالامكان خروج محاور/مداخل كردي، وقراءة مادته بالكردية، وترجمتها بالعربية، من باب إلفة اللغة على الأقل؟

كل اللغات عندي عذبة! العربية لغة جميلة،

mais la Français- exemple- est bonne lange
Lê zimanê kurdî jî xwşe

لهذا دعوني أستأنس بلغتي لبعض الوقت!

أشير هناإلى ما قاله الدكتور عبدالحسين شعبان، حول أن العرب والكرد لم يحصل بينهم تاريخياً أي خلاف، ولا تحارَبوا أبداً. ذلك قول يسرُّ الخاطر، ولكن هل حقاً كان الوضع كذلك؟ هل الأنظمة باستمرار مسؤولة عما يجري فيما الشعوب والأفراد؟ أحيل القارىء هنا إلى محمد أمين زكي في كتابه(خلاصة تاريخ الكرد وكردستان)، أوديفيد مكدول في كتابه (تاريخ الأكراد الحديث)، أم تُرى الدكتور يريد أن يقول أن الكل يخضع للواحد، وهذا يسود الكل، رغم أن ذلك لا يشكل قاعدة عامة، وأن هذه السيادة لم تمنع من الإطاحة به؟!

لقد جئنا من سورياعرباً وكرداً، وفي أذهاننا تصور مثالي عن المحاورين، عمن سنحاورهم، لذلك، رجائي، أن نرجع، وقد تجسَّدت أفضل صورة في أذهاننا. وشكراً.).

14- أول الحوار ، أول الصراخ – ج-

أي حوار نبدأ، أي حوارنسعى إليه؟

لاأعتقد أن مفردة (الحوار) عصية على فهم أي كان ، مهما كانت حصيلة معارفه ضئيلة، وربما كانت من بين أكثر المفردات اليومية والكتابية استعمالاً وتداولاً، إن لم تكن أكثرها فعلاً، حتى طي النصوص العلمية الخاصة بمؤلف وحيد، كونه يجري حواراً ضمنياً مع نفسه أو أفكاره ووقائع متصورة. لكن مايبدو واضحاً أن المفردة تستلزم أدواتها وأمثلتها وأرضيتها الكاملة لتؤكد مصداقية ما تبدأ به وتنزع إليه، في إطارالتسامح المرتبط حصراً بتوافر المجتمع المدني بمؤسساته المدشّنة والمحمية قانونياً فقط. والذي يهم هنا، هو الحوار المتعلق بين شخص وآخر، أو بين أشخاص كثر، كماهوحال الحوارات الجارية في ندوات ولقاءات كهذه. وحتى أجنِّب نفسي تهمة أستذية معينة أو ادِّعاء تعالمي ما، اسمحوا لي أن أسأل وأتساءل بداية: أليس الحوارقائماً على الحيرة، طالما أنه يدع كل طرف إزاء الآخرباحثاً عن السبل الكفيلة بإظهاره في صورة مثلى؟ إنها حيرة معرفية واعتبارية معاً، فلا حوار أصلاً لمن ينكر وجود عقد اجتماعي تواصلي نفسي تكافؤي من جهة القدرات الشخصية والمكانية، فأن نتحاور، هو أن يدرك كل منا أن لدى الآخر، مايفيده به، باعتباره نقصه الذي يتبصره عبره ، أويحرضه على المناقشة، والتغيير فيه ما أمكن نحو الأفضل، أن يقلقه ليثيره ، ويوسّع ويعمق حدوده القيمية دون خوف معين. أستميحكم العذر، إذا كان فيما قلت حتى الآن تحديداًشرطياً لما يجب العمل به هنا أو في أي مكان: مبتداه الحوار، ومنتهاه المزيد من الحوار، مادام كل منا بين الحوارين يستشعر حراك كائن إنساني مختلف يتنامى بين جنبيه، ويتجسد في الوسط المرئي حوارياً. غير أن بي وسواساً فكرياً يخص الحوارهذا بمتطلباته الزمانية والمكانية التي تستحضر التاريخ، يمكنني تسميتها باختصار.

أولاً، أتوقف عندالمعنيين بالحوار! ترى من نكون؟ مثقفين، كتاباً ذوي توجهات فكرانية أو عقائدية عامة وخاصة مختلفة؟ إن هذا جلي من خلال تنوع المدعوَين، ولأن الملتقى هذا، يشي بذلك بداهة.

ثانياً، ماذا نحمل؟ أفكاراً مشاريع فكرية، تصورات، مخططات تجمع بين النظري والعملي، وما فيها من إشكاليات، تمس مصادرها ومرجعياتها الاجتماعية والسياسية؟

ثالثـاً، وهذا هـوالأهم، كمـا أرى! مـاذا نمثّـل فـي مجموعنـا؟ مـن هـم مفوّضـونا لنـتكلم باسـمهم؟ أهـي الحكومـات، الأنظمــة، المؤسـسات وماتكونــه عمليـاً، جهـات معينـة تتمتـرس خلفنـا؟ أي حكومـة، مؤسـسة شخصانية تتمثل في أي منا، لنحسن تمثيلها، أو ندعي أننا نمثلها، ونمضي على مآلاتها؟ أي ظهير لنـا، نرتد إليه ونحن ندخل في المعتبر حواراً؟الدوائرالتي تحيط بالحوار هنامتداخلة ومتعددة.

لاأعتقد أن أياً منا لايحمل مجتمعاً معيناً في ذهنه، كما كان " بلزاك" الفرنسي يقول، ولكنه كتب روايات تـصادت لاحقـاًفي ضـوء ماعاشـه، وتخيَّلـه، أمـا نحـن، فهـل نـستطيع وضـع أفكـار يؤخـذ بهـا مـستقبلاً، هـذا المستقبل الذي خططت له حكومات وأنظمة وجيوش فاعلة ومتوثبة حتى الآن قريباً وبعيداً. لابل نحـن ننـشد حواراً بشأن المستقبل، إنما دون الانفصال عما نعيشه قطعياً؟ ومتى كـان المثقـف، أو مـن يـدرج فـي خانتـه، معنياً تماماً بمايقول، بما أنه يتحدث عمن يمثلهم بصورة ما ؟ متى كان مأخوذاً، بدقة، بما تتفتق عنـه قريحتـه؟ ليس الآن ، وإنما في مجمل مراحل التاريخ الذي ننتمي إليه بطرق مختلفة.

يبدو السياسي أكثر قدرة على الكلام، لالأنه يتقن الكلام، وإنما لأنه يعتبرويعتقد نفسه أكثـر أهليـة لـذلك ، وفق وسط حسابي اجتماعي ليس إلا، ويتبدى المثقف بالتالي مأخوذاً بالشبهات، أكثر ممـا يؤخـذ بأفكـاره التـي تعني المجتمع والسياسي ضمناً، وهذا ما يضفي علىالحوارطابعاً إشكالياً تماماًلاختلاف المواقع.

ويبـدو الحـوار أكثر إشكالياً كمفهوم،عندمايكون الموضـوع لـه طـابع تـاريخي مؤسـساتي، بينمـا الجغرافيـا تتمزق فينا وتمزقنا وتلوننا تاريخياً(هكذا أقول بلغة الجمع)، فأي حوارجائز هنـا، فـي ظـل الحـدود المرسـومة سياسياً وأمنياً؟ أهو حوار دعوة إلى اعتراف متبادل؟ لكن اعتراف من بمن، ومن قبل من إزاء من، عنـدما نتحدث عن السلطة بكل دلالاتها كتمثيل عملي؟ العربـي بـالكردي، بينمـا تتجلـى مفـردة(كردسـتان) فـي واعيـة العربي غالباً، من المحظورات، وخصوصاً في مجتمعه القطري التشكل وأقل من ذلك، بينمـا عبـارة (الـوطن العربـي) المـستخدمة ثابتـة مثبتـة، عنـد أكثريـة مـن غمـرتهم القطريـة بـسلطتها؟ أهـو إذاً اعتـراف تـسويفي، أم إرضـائي مؤقت، وبوصفه تسامحاًلايملك القدرة الدنيا في حق تمثيلـه، كونـه يتجـاوزه واقعـاً، تجاوبـاً مـع أفكـار تـشكل المدماك النظـري لهـذا الكاتـب العربـي أو الـسياسي العربـي المعنـي أو ذاك؟أليس التحديد الجهـاتي هنـا تحويـراً للجغرافيا باسم التاريخ، الذي يحيل شعباً بكاملـه إلـى جهـة جغرافيـة هـي ذاتهـا لاتمثلـه، إنمـا تتبـع مـن يـدعي تمثيلـه، والكاتـب المعنـي هنـا يتحـدث باسـمه، حتـى وإن صـارح بـذكر سـلبياته واقعـاً. أم هـو اعتـراف الكـردي بـالعربي؟ بكونـه المعـرف بـه وفـق ماتقدم(الأغلبـي، كمـاهي العـادة المتبعـة حتـى الآن كثيـراً)، إزاء الأقلوي، وما لهذا المفهوم من تقزيم للشخصية الكردية من تقزيم تاريخي، وتفتييت جغرافي.

ترى ماذايملك المحاور العربي هناليعطي بوصفه أهلاً للتفويض، إن أمكنـه ذلـك، بينمـا علـى مبعـدة منـه السياسي الرسمي جاهز للتقويض، طالما الحواريتنـاول النظـر إلـى ثنائيـة العلاقـات، ومـا يـشد طرفيهمـا إلـى بعضهما بعضاً: وداً لاصداً، وطواعية جغرافية موسومة لاكراهية تاريخ ملغوم؟ وبالمقابل مـاذا يملـك المحـاور الكردي بدوره ليعطي، وما إذا كان لديه مايمكن أن يعطيه أكثرمما أعطاه، بعد أن أصبح ومنذ عهـود طويلـة، وفـي وقتنا الراهن أكثر: المعرف بغيره لا بذاته : لغة ومؤسسات وحدوداً وقانوناً وهوية!

لقد كنت في معظم مؤلفاتي ودراساتي العربية، وأنا كـردي فـي الأصـل(دون منافحـة إثنيـة)، أعـيش حالـة حـوارليس مع الآخـر(العربـي) فـي التـاريخ، وإنمـا مـع كـل الـذين جـاورتهم وجـاوروني، حتـى وإن لـم أسـمّهم: عربـاً وغيـر عـرب طبعـاً، دون نـسيان مـا أنـا عليـه وفيـه، لـيس بوصـفي الكـردي ، وإنمـا المقـيم فـي جغرافيـا مدهشة بتنوعهـا الإثنـي، والمحـصور فـي تـاريخ أرعبنـي، وأنـا رحالـة فيـه، بمنطلقاتـه وحركاتـه الاجتماعيـة والاعتبارية، حاولت أن أكون أكثر من الكردي كباحث، أكثر من العربـي مـأخوذ بفتنـة التـاريخ المتحـرك بـين مائين، متجاهل غالباً لتلاطم وعتوَ أمواجه، ودون أن أعرَف بنفسي كردياًكنوع من الصلف القـومـوي، وغالبـاً مـا كـان حـواري مـع التـاريخ فـي عمومـه، يـتم بـالجغرافيا،لقد عشت حـوارات التـاريخ العربـي الاسـلامي بمللـه ونحله ، بفرقه(73) منذ بدايات الاسلام، بتحوير الجغرافيـا تاريخيـاً، وأعتقـد، هـل أقـول جازمـاً، أن لابـد للكـرد

فيها البتة، وبدا لي أن الذين عبَروا عن شكوكهم فيما كنت أقوم به، ولا أزال، إنما أرادوني ويريدونني محاوراً تاريخياً ووفق السائد غالباً، أكثر من ذلك، تجلت تهمة(الخارجي) تطالني على هذا الأساس: خارج التراث، خارج التاريخ، خارج الثقافة المعتبرة...الخ، إن كل ذلك يعيدنا إلى مقصودنا من الحوار الذي نريده، ومن نكون هؤلاء، فالتكافؤ الحواري يستوجب القوة المفعلة، تلك التي تتوزع إثنينياً، حيث يشعركل منا أن لدى الآخر ما يبحث عنه، ليقوى به أكثراعتبارياً، وليس لنفيه بوصفه نقيضه، والسلطة بوصفها إمكان القوة العملية التي تموقع الجميع وليس ببيدقتهم براغماتيكاً لصالح حامل لهامقحم على التاريخ بالذات، والحاق للجغرافيا بتاريخ يتمثله شخصياً، وعبر المتحدثين باسمه من الكتبة وسواهم.

لأنفي هنا، وداخل هذا المكان المرصود من الخارج المباشر، وهذا مراقب من خارج أبعد منه بدوره، إنما يمتلك الكثيرمن أدوات السلطة النافذة هنا، في رقعة أرض محظورة باسمها(كردستان)، وهي تؤكد خطورة الحواروأهميته في آن، وما يمكن أن يتم من تحويرجغرافي لصالح حوار تاريخي موجَه خارجاً، ونحن في أطيافنا المختلفة: كردياً- كردياً، عربياً-عربياً، عربياً- كردياً، كردياً- عربياً، وسواهما، مأخوذين بحوار لايخفي طابعاً مباراتياً: نلعب بالأفكار، ونرمي إلى تسجيل نقاط(أهداف) بالأفكار أو بطروحات معينة، لكن لاخارج من (الملعب) الحواري هذا، لا انتقال إلى أعلى، فالكأس للجميع، إن رمنا حواراً، رغم وجود تحويرات كثيرة معاشة، حيث نحاول أن نجسد في أنفسنا وعبر أفكارنا : الجمهور واللاعبين والحكام والأرضية. يبقى الأمل المهم والممكن، هو أن نتبارى على الأقل (بمتعة روحية)، وإن وجدت مفارقات، فليس ما يجعل الحوار حواراً مثل مفارقاته التي تمارس فيه تعقيماً وتطعيماً أفضل، وهي تضعنا هنيهات خارج التاريخ المتدامي، ويكون صدى الجغرافيا في تنوعها أمثولتنا ،أكثر من مدى التاريخ وأحبولته، بأمثلته التي تضيق على المكان، وأعتقد أن المكان الذي نحن فيه الآن، يسمى جغرافياً ويغني التاريخ بدوره. أتساءل نهايةً: هل مارست حقاًفي الحوار، أم تحويراً له؟ قبل أن أترك الجواب أو التعليق لمن يهمه أو يعنيه ذلك، استرجع ماكان يقوله "روسو" وهو: ليس بوسع المرء التمتع بذاته بعيداً عن الآخرين. فكيف الحال ونحن نتحاورجغرافياًبلغاتنا وأسمائنا وهوياتنا المختلفة واقعاً، رغم كل مناورات التاريخ هناوهناك؟

14- أول الحوار، أول الصراخ- د-

يبدوأن الصراخ هوالاحتجاج الرسمي والضمني على اللغة المعتمَدة، حين تعجز عن حل إشكاليتها على صعيد الواقع والممارسة اليومية، وفي الوقت نفسه، مسعىً بالتحول في اللغة نحو تركيب مغاير، خصوصاً حين تكون أداة قاهرة، أو تذكيراً بها. إنها هنا تتطهرنسبياً.

ولعل الملتقى المعروف باسمه، كان في الصميم حالة صراخ، اكثر مما هو حوار، أو التعبير بالصراخ، أكثر من أن يكون تعبيراً بالكلمات التي تسلّط الأضواء على تلك المشكلات التي تستحق المناقشة، بغية توسيع دائرة الحوار التي تدشن لعلاقات جديدة، كون غالبية الكلمات المسموعة، جسّدت وضعاً مباراتياً، من جهة الموضوعات التي استوجبت التسمية المباشرة، والأهداف المرجوَّة، والذين ساهموا في ذلك.

بدا الكرد وكأن الكرة في مرماهم! فمكان الملتقى يتوسط كردستانهم، وهو في أبهته الاستعراضية وفي فسحة مرئية ، جلي الاعتبار والدلالة، في حداثة سنه، وأعني به أوتيل خان زاده، ويشكل لسان حال قوة ونفوذ مستقبليين، والقائمون على إدارة الملتقى هم كرد بامتياز، هم كانوا أصحاب المبادرة، وهذا يعني بالتالي، أنهم الأكثر قدرة على التحرك واتخاذ الإجراءات الكفيلة بتذليل العوائق الموجودة ، والدخول في مرحلة جديدة، تخص العراق الجديد، ولهذا كانوا المعنيين أكثر من غيرهم سواء بالنقد أو الانتقاد، ولم يعد بإمكانهم أن يتحركوا أكثر من ذلك، وهنا تتجلى المسؤولية الكبرى والخطيرة، حيث الكردي بات حمَّال أسيته وأسية سواه، في منظور الأخوة والأصدقاء العرب الذين تواجدوا في الملتقى وكان لهم الحضور العددي الأكبر، وصار مطلوباً من الكردي أن يكون الأذن المصغية، أكثر من أن يكون اللسان المتحدث عن هموم واقعه وتاريخه الذي لما يزل ينزف الكثير من دماء ضحاياه، وفي هذه الحالة لم يعد الحوارالمنشود سوى

الصراخ المعكوس، فالعربي في الغالب تجلى الصارخ ، سواء كان صراخه معاناة من واقع معاش، وهي موجودة، أو حتى محاولة تحميل الكرد مسؤولية تاريخية أو بعضاً منها على الأقل، لأنهم اختاروا انفصالاً معيناً، ومنذ أكثر من عقد زمني، واستحال نقد أو لوم السلطة القائمة، في ظل الاضطراب الأمني، كما يسمى، نقداً غير مباشرللساسة الكرد، ولوماً كونهم تحركوا ويتحركون في الحدود التي يعتبرونها خاصة بهم كردستانياً، وربما كان لهذا التخصيص انعكاس سلبي على العراق ككل، وفي مطلق الأحوال، بات لزاماً عليهم أن يسمعوا صراخ من كان منتظراً منهم أن يحضروا، ليكونوا هم أكثرإصغاء لصراخ أكثر من ضحية تاريخ، حيث الحوار تاريخياً كان المضحّي بهم غالباً.

هذا ما استنتجته، استقرأت حالة (الغيرة) الظرفية التي يعيشها الكرد في مجملهم، دون لفت النظر إلى الوضع القلق والمثير للمخاوف، والمجهول مستقبلاً للكرد، حتى وهم يُبدون مستقرين، طالما التحديات تتركز عليهم داخلاً وخارجاً، وأنهم ليسوا في شهرعسل تاريخي، حتى والعراق في الطرف الآخر يتعرض لقلاقل ومشاهد تفجير وقتل يومية، لأن لاأحد يطالب البصري أو البغدادي أوالكربلائي بضرورة ترك بيته أو مدينته، كما كانت الممارسات تتم ضد الكردي، وكما يرى عديدون من ذوي الفكر القوموي العروبوي بضرورة إحلال العرب الذين استوطنوا كركوكاً مثلاً سابقاً، محل الكرد خصوصاً ومن ثم التركمان وغيرهم، عندما يتم إخراجهم ، ليحلوا هذه المرة محل الكرد المقيمين في بغداد، والذين سكنوها منذ مئات السنين، وليس بفعل استيطاني مماثل.

حتى في الحالة هذه، يمكن للكردي، لابل عليه، أن يتجرع الغصة تلو الأخرى، ألأنه تاريخياً يتحمل أكثر، أم لأنه اعتيد على ذلك؟ أهو عقد أم تعاقد أبدي لا مفرمن حمَّىعقدته؟ ألم يكن الملتقى في الوضع المذكور بدوره الصراخ الكردي المكتوم؟ رغم كل مظاهر الأبهة التي لا يمكن النيل منها على صعد مختلفة، في كرم الضيافة المتاحة بكل مستلزماتها الممكنة، رغم كل المآخذ المعتبرة وجيهة، طالما الظرف يحدد الكثير من الحالات التي يمكن البحث فيها، تلك التي تشي بسوء الأحوال، ولأن العملية ليست استعراض الكردي أمام الآخرين.

كان في الاعتراض المتكرر على ضرورة إحلال كلمة (الأخوّة) محل (الصداقة) من قبل العديد من المشاركين العرب، يحمل في طياته الكثير من الدلالات(تلاحظون أنني لم ولا ولن أتحدث عن الأسماء المشاركة لسبب سابق نوَّهت إليه، تلاحظون خلاف الكثير من الكتابات التي لا تخفي مناسبيتها الكريمة!؟ وهي تشدد على أي نشاط محدد بموضوعه والذين ساهموا فيه، ومن هم ، وماذا قالوا، وكيف كانت الردود...الخ، حيث أنني أشرت إلى أهم النقاط التي أُثيرت فقط، ولأن ما أثيره هنا، يشكل الوجه الآخر غير المرئي من الملتقى، وفي الوقت نفسه يعتبر نوعاً من المناقشة لما جرى ، لماكان يجب أن يتم)، الأخوَّة وليست الصداقة، هذا هو المطلوب إذاً!

لاتقوم الصداقة إلا بين أشخاص معتبرين، حيث العلاقات فيما بينهم عادية، ولكل منهم مساره الحياتي المختلف، ولا يتحدد عنوانه مباشرة، ولا موقعه قريباً، وكذلك يكون الاختلاف في المعتقد واللغة والمصير. فالصداقة تتجلى حالة مقاربة، وتقريب وجهات نظر، وفي الوقت نفسه قد تصل إلى مستوى التحالفات، وهي زمنية هنا، إنها التوقيع الثنائي أو المشترك على فعل أو عمل يجد الطرفان ما يجعلهما متقاربين قويين معاًتحت سقف عقد شراكة معين، وللظروف الدور الكبير، وكذلك لعبة العلاقات المحيطة وتوازناتها، والدول داخلة في هذا المنحى.

الأخوّة ليست كذلك! إنها تخص الداخل، والخارج نفسه يكون داخلاً هنا، كما نشهد ذلك في العبارات المتبادلة بين الساسة أو المسؤولين العرب في زياراتهم المتبادلة، بوصفهم أخوة، وأن الحدود استعمارية، وكما هي الحال بالنسبة للكردي الذي يلتقي غيره، حيث لا يكون للحدود التي تضمه أي اعتبار أو قيمة وجاهية، بالعكس، فثمة قيمة تحريضية تلغي المسافة والسياسة الفاصلتين بينهما وهما ينتميان إلى دولتين بعَّدتهما عن بعضهما بعضاً. وهنا تكون الملاحظة المطروحة مركَّبة، إذ يختلف الموقف من جهة القائل، فالكردي عندما يشدد على فاعلية الأخوة، فلأنه يدعو، وبوصفه الأخ المعتبر، إلى ضرورة تفحص ما كان،

وفي الوقت نفسه إلى توجيه النقد للذين يسيّرون المفردة هذه على هواهم، بينما يبقى هو(يوسف) التاريخي، على أقل تقدير، إضافة إلى أنه يدعو إلى ضرورة الاحتكام إلى الجغرافية، وتأكيد المصداقية في ممارسة فعل الأخوة، وليس باعتبارها مفردة محلّقة في الفضاء ، في فراغ هو التاريخ نفسه ذاك الذي لم يؤصّله البتة، كما تشهد على ذلك وقائعه الجمة، ويشكل قوله دعوة إلى تغييرما في النفس،إذا أُريد لها أن تكون في مستوى اسمها، وليس بوصفها استعراضاً جانبياً.

أما بخصوص العربي، فهو في موقفه ومن موقعه الاعتباري والسياسي والثقافي، حتى إذا بدا منزوع القوة المؤثرة، ولأنه معرَّف به عربياً، فإن فعل الخطاب متغيّر! إنه في تشديده المشار إليه، متحفّظ على المفهوم، إذ يتلمس فيه نزوعاً لدى الكردي إلى الاستقلالية، إلى التعريف بنفسه كائناً اعتبارياً يتحرك ضمن حدود خاصة به، ولغة تعرّف به، وثقافة يمكنه التواصل الاجتماعي والتاريخي من خلالها، وجملة صفات تبقيه متميزاً، ولهذا في الصفة المعلنة، يؤسس لعلاقات شراكة غير معهودة، بينما في (الأخوّة) فقد تنمحي العبارة بكل حمولاتها الرمزية، يختفي تقاسم الإرث المشترك، تختلف مواقع الأخوَة هنا، بحيث يمارس أخٌ ما السيطرة على البقية وتمثيلهم، أو يكون نوع من أنواع التآمر الساري المفعول بين مجموعة من الأخوة على حساب آخرين أو أحد الأخوة بحرمانه من الميراث، من حق تمثيل نفسه، كما يحصل هذا في(أرقى العائلات!؟)، والعائلات تستحيل هنا أقواماً، قوميات، دولاً، أوطاناً! حيث الأخوّة تكون مجازفة مبنى وهي تضحي بالمعنى، وهي تغيّب حقيقتها، ولا يعود بوسع أي كان (من الخارج) التدخل طالما أن ذلك صار عُرفاً ، والعرف صار هنا قانوناً، ولكنه القانون الذي يمثله الأخوة المتنفذون مع الزمن، والمفروض على المعتبر شكلياً الأخ المنبوذ واقعاً، كما يمكننا قراءة هذا التوجه في الأدبيات الاجتماعية والتاريخية الموجَّهة اسلامياً، حيثما وجد الكردي(حول ذلك ، سلواإذا شئتم مثلاً: القرضاوي ومن يفتي مثله إلى جانبه وفي الجوار الجغرافي والثقافي والمعتقدي الدوغمائي!)، ويظهر كل تعليق خارجي تدخلاً في شؤون الأخوة، حتى لوكان المعترض ، وهو الأخ المحروم من حقه الطبيعي ، بوصفه حالة جنحة ، ومروقاً من سياسة الأخوة العائلية، وتجاوباًمع الآخرين الذين يشكلون تمايزاً مضاداً لهم.

إنه يتلمس في الصداقة خروجاً من دائرة الاسم الخانق والمختنق، احتجاجاً واضحاً على سياسته، رفضاً لتاريخه غير المنصَف بالتأكيد، خطراً عليه، لأنه لم يعد بإمكانه ادّعاء تمثيله، أوممارسة الوصاية عليه، وتقليصاً لنفوذه ومصالحه، وفي الوقت نفسه إبرازاً لخروقاته ضد ماكان يدّعيه بوصفه الأخ، حيث الأخ يشدد على الرابطة النَسَبيَة الواحدة، في الدين أو غيره هنا، بينماالصديق فهو يشدد على الرابطة الاعتبارية المصانة، وهي قابلة كعقد للفسخ،الأخ وجود داخلي، خلاف الصديق فهو قادم من خارج البيت الواحد، وله اعتباره، شخصيته المميَّزة بعلاماتها الفارقة. ولهذا فإن الحوارالذي تم شهد بدايته عبر التسمية، وبدا الكردي فعل صراخ صديق في وجه من كان يعتبر نفسه الأخ دون أي التزام ملموس بحقيقته، ودعوة إلى استقلالية الشخصية بكل اعتباراتها التاريخية.

لأشيرإلى مثال حي، بخصوص ما تقدم، يتعلق بالجلسة(الأخوية) الخاصة مع الأخ الرئيس مسعود البارزاني، في اليوم الثاني من الملتقى مساء(أعني يوم السبت 18/9-2004)، حيث اختيرالبعض مناعرباً وكرداً، ليكون للحوارالمنشود بعد(أخوي) أكثر عمقاً، وكنت من بين هؤلاء، وفي إحدى قاعات الأوتيل، حول مائدة مستطيلة، شكلنا حولها حزاماً، إضافة إلى آخرين اقتعدوا كراس أخرى في الطرف الجنوبي من القاعة.

إن مجموعة الأسئلة التي طُرحت عليه، وكذلك الرغبات التي تَسمَّت، وهي في مجموعها تعلقت بالعراق والشأن العراقي، وما بين الكرد والعرب من علاقات تاريخية، أفصحت في مجموعها من ناحية، عن توسُّم الخير في الكرد، باعتبارهم يمثلون قوة لافتة اليوم، وأن بإمكانهم القيام بأكثر من دور يخص العراق أمناً وشعباً وقوة علاقات بين قومياته، ومن ناحية ثانية، عن خوف مما يمكن أن يحصل، فيما لو أن الكرد ركّزوا على شؤونهم الداخلية أكثر، أي فيما لو أن الأخ المضطهَد تاريخياً تمايز أكثر، وكان الإلحاح على الأسئلة العراقية والهموم العراقية تعبيراً عن الخوف المركب أو المزدوج : الخوف من وعلى المسار الذي يبدو عليه كرد العراق، بوصفهم معبّرين عن أنفسهم داخل كيان يعرَّف به مستقلاً، ومنذ أكثر من عقد زمني، دون أن

ألغي صفاء النية عند البعض منهم، وهم يؤكدون على مشروعية الاستقلال الكردي، وفي اختيار المصير المناسب تاريخياً.
وتجلت إجابات وتوضيحات الأخ الرئيس في إطار الهم العراقي عامة والكردستاني خاصة، ذكّرتنا بكلمته الافتتاحية تماماً، بوصفها الهم الأكبر الذي يشغل (الجميع)، وعلى مستويات عدة، هنا وهناك .
لن أورد ما تحدث به الاستاذ ابراهيم اليوسف ولاغيره، ولا أنا، بصدد الحالة العراقية والكردستانية وتداعياتها الزمكانية، سوى أننا قدّمنا أنفسنا من منظور ثقافي عام، سوى أننا لم نخف ما يمكن أن يكون السياسي متفاوتاً فينا، دون الخروج عما يخص الحوار العربي الكردي في الصميم، ويا له من حوارشائك/ شيّق معاً.
ويبقى علي أن أقول، وكما أكّدت منذ البداية، أن الأخ مسعود هذه المرة، كان في أعماقه يجسّد حالة صراخ حقيقية ومتألمة، على واقع لم يخطّط له هو، ولا كان المسؤول عن مآسيه هو، أو أي مسؤول كردي في الجوار.
لهذا، ولهذا فقط، ثمة ضرورة ملحة إلى تدشين لغة جديدة تماماً، في حوار منشود كردياً – عربياً!

15- عزيمة في حديقة مجلس الوزراء

تم إعلام مجموعة كبيرة من المدعوين، وخصوصاً الذين قدموا من خارج العراق، بأنهم معزومون في رئاسة مجلس الوزراء في هولير، وقد كان ذلك بعد الانتهاء من الجلسة الخاصة مع الأخ الرئيس مسعود البارزاني، أي تحديداً: مساء يوم السبت. لقد كانت فرصة مناسبة ومغرية للذهاب ليس إلى قلب هولير، ولا للتعرف على ماهية مأدبة العشاء(الرئاسية - الوزارية) المغرية طبعاً بمناخها الطقوسي بداية ونهاية وطبيعة علاقات مع المكان وأهليه! وإنما لمقاربة بصرية على الأقل، لمجلس الوزراء في هولير، والتعرف على المبنى الكبير الذي يضم المعنيين بالشأن الكردستاني انطلاقاً من هوليرتلك.، أضف إلى ذلك جاذبية الفكرة والتي تتعلق بالتعرف مباشرة عن قرب على مسؤولين عن الحكومة الكردية هناك، وإشباع الفضول المعرفي، ذاك الذي لا ينبني على حالة استغراب، أعني استثارةً إزاء ما هو عليه الكرد ومن يشاركونهم السلطة وإدارة حكومة الإقليم، بقدر ما يقوم على استشراف الرغبة العقلية، في رؤية البناء / الرمز، وكيف أن أي شعب يمكنه إدارة شؤونه الخاصة به، لو أنه أُعطي المجال والوقت، حيث الكرد كانوا في مختلف عهودهم، يتأطرون بسواهم قسراً، ويعرَّفون بأنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم، وإنما هم بحاجة إلى أن يمثّلوا، كما رُدِد ذلك ، كلما ذكروا، كونهم عاجزين عن القيام بمهام مؤسساتية، أي أنهم شعب الجغرافيا هنا وليس التاريخ، شعب البيولوجيا وليس السياسة!
فهو فضول معرفي مركّب إذاً، شخصي : نفسي وعقلي معاً، ولو أن ذلك يجري في فترة زمنية محسوبة.
لا أعلّق آمالاً عريضة على العزيمة هذه، كما يمكن للبعض أن يتصور، أو كما يمكن أن يتبادر ذلك إلى ذهن أي كان، إذ لا أحد يتجاهل البعد الرسمي، والطابع الإعلامي وحتى الدعائي لحالة كالتي نحن بصددها، ولهذا فأنا أقول مسبقاً ، وقبل أي تعليق أواستفسارحول ما تقدَّم، بأنني متحفظ تمام التحفظ على أي عزيمة (مؤسساتية) وتحت الأضواء مباشرة، حيث الكلمة ، أي كلمة، والحركة، أي حركة، محسوبتان، بوصفها أبعد من جهة الرهان عليها من كونها جلوساً إلى المأدبة وتناولاً لأطعمة، ربما لم أحلم بتذوقها،إلى جانب آخرين من أمثالي، وفي حضرة ساسة أو مسؤولين، معنيين بإدارة أمورغاية في الأهمية في الحكومة، وأنهم هم أنفسهم ربما(أقول مكرّراً ربما)لايعنيهم وجودي أو وجود غيري الشخصي، بقدر ما يهمهم ما أنا أفكر فيه، وما يمكن لتفكيري أن ينشغل به، من جهة المقدار والأهمية الممنوحين لي إثر ذلك، وما يكون عليه تقييمي لما يجري لاحقاً، فهي إذاً عزيمة مشروطة! هل هناك أكثر احتمالاً وأقصى مما يمكن توقعه من ذلك؟
وفي / وبهذا الصدد فإنني أستدعي إلى الذاكرة القريبة وليس البعيدة، الكثير من صور الولائم والعزائم التي تتم باسم الكتّاب والمثقفين هنا وهناك عربياً(طالما أنه المثال المهم هنا)، وفي مناسبات مختلفة لا تخلو هذه المرة، وبالتشديد(وفي هذا الوضع بالذات) من دوافع براغماتيكية غاية في التسييس الموجَّه (أعني

التكبيس! إن جازت العبارة)، وما يعقب ذلك، مثلماما يسبق ذلك من إعداد أوراق عمل ، وبيانات، وتشكيل لجان عمل، تعلن تضامنها مع الجهة الكريمة صاحبة الدعوة الرسمية، أعني الدولة بكل قيافتها...الخ، أي أن الدعوة إضافة إلى الوليمة مدفوعتا الثمن.

كل ذلك فكّرت فيه، ولا أعتقد أنني الوحيد في هذا المنحى الموسوم بالتأكيد، كما أنني لا أعتقد أن ثمة في الجوار المحلي والإقليمي والقاري وما هو أبعد منه، من لم يفكرفي ذلك، لحظة سماع أو قراءة الخبر بصورة ما، هذا معلوم وبدهي، تمَّ التذكير به للتشديد على الرابطة القوية بين الحراك الثقافي والسياسي، وفي ظرف كالذي نعيشه خصوصاً، ولهذا بادرت إلى التوقف عند هذه النقطة ومَفصَلتها نظراً لحساسيتها.

لأسأل وأتساءل بداية: ماذا تريد الحكومة المحلية هذه مني ككاتب؟ لتثبت كرمها، حسن ضيافتها، فعالية مدنيتها، تقديرها الكبير للكاتب؟ أم لتريني ضمناً بعض مظاهر هيبتهاوأبهتها؟ أم أنها عدا ما ذكرت، تريدالإيقاع بي، أو لتعلمني بما يمكن للكاتب أن ينعم به إعلامياً إذا تجاوب معها؟ هل هناك ما هو أكثر مما ذكرت؟

لأفترض أن الحكومة تستهدف تحقيق كل ما أثرته، لأقُل بأنها غير معنية بالكاتب بقدر ما يعنيها قلمه خصوصاً خارج البلاد، لأقل بأنها معنية بصوتها السياسي وليس الثقافي، وأن الثقافة لم تشب عن طوق السياسي حتى الآن، وأن ليس بوسع المثقف أن يدّعي تلك الاستقلالية التي يعتبرها ضرورة قصوى لكتابة ما يعتقده فعلياً..

ولكن كثيرين(لن أسميهم فَهُم كثر!)، ممن أعرفهم: كتاباً وذوي توجهات سياسية، كانوا معروفين بتوجهاتهم واتجاهاتهم المعتقدية حتى قبل أن يحضروا إلى هنا، وأن قبول الدعوة، لم يتم نظراً لتعارض مضمونها(السياسي الإعلامي حقيقةً) مع مضمون الفكرة التي يعمل عليها هذا الكاتب أوذاك، وأن التوجه بالتفكير إلى أقصى مدىً له ، من جهة فصل المقال فيما بين المثقف هنا والسياسي من اتصال مظلمةٌ للاثنين معاً، وجنوحاً في الخيال نفسه، وأن التحفظ على أي بادرة من أي جهة سياسية من أثريات الكثير من المؤسسات والجهات التي مارست طويلاً ذلك الحكرللكلمة واحتكارصوت المثقف نفسه، في فترة الحرب الباردة ولم تكن باردة حقاً.

هل كل ما تقدمت به، لإضفاء تبرير على ما أقدمت نحوه؟ لشرعنة المأدبة والجلوس إلى طاولة السياسي؟

ثمة مسافة باستمرار، قائمة يمكن للمثقف الاحتفاظ بها، كما يمكن للسياسي أن يحافظ عليها، رغم أنه يريد إلغاءها كثيراً، أوغالباً، كونه يتحرك على أرض الواقع تلك التي يتصورها ويخطط لها، ويهمه القدر الأكبر من الأصوات لتوطيد مركزه السياسي، إلا أن الفكرة لاتتأصل بمثل هذه الطريقة(إما- أو)، في لعبة لا تخلو من صراعية في المشهد الثقافي- السياسي، وأن المثقف ليس باستمرار ذلك الكائن الذي تسلمه أو تقذف به موجة لأخرى، وتغدو كل الموانئ التي تستقبله سياسية محضاً، دعائية خالصة.

ليس الموقف رهين اللحظة والتاريخ القريب، ليكون المرء رهينة كل هذه التوقعات/ التهيؤات، فثمة تاريخ أولاً وأخيراً يمكن أن يرسم المسافة المشار إليها، أن يعدّل في تلك المفاهيم القطعية ذات الماضي الأحادي الطرف.

ثمة قناعة بالخطوة، وليس رغبة في المائدة وما يمكن أن تحويه من أصناف المأكولات، ثمة صورة شخصية ماضية، من خلالها يمكن تحديد المسافة بين السياسي ورهانه والمثقف وحقيقة أفكاره.

ثمة من سعوا جاهدين إلى مرافقتنا، رغبة في العزيمة والأضواء الكاشفة في حديقة مجلس الوزراء ، حيث كان جلوسنا هناك وكذلك تناول العشاء، وبُذلت محاولات عديدة لهذا الغرض. وأنا إذ أقول هذا، فليس لذمهم مطلقاً وإنما لأن ذلك يمكن التعرض له لاحقاً في أكثر من مكان، وكأن العملية محاولة تأكيد قيمة شخصية ليس إلا.

يختلف الموقف أولاً من كل ما تقدم، لأن الجهة مختلفة تماماً، ولأن الذين قبلوا دعوة حضور الملتقى بداية،هم ربما معرَّضون لأكثر من سؤال أو مساءلة ، داخل مجتمعاتهم ودولهم، بسبب الموقف السياسي من

حقيقة ومدى مشروعية حكومة إقليم كردستان، وما يبقى ممكناً التشديد عليه، هو الجانب الشخصي، هو تاريخ المدعو، وما إذا كان في مستوى الدعوة المرسلة إليه، وكيفية حصوله عليها، وصفة الدعوة المرسلة ومتى وأين ..الخ، وهي أسئلة تتردد هناوهناك، أعني في منطقتنا بالذات وخارجاً مِن جهة مَن يعرف هؤلاء المدعوين بطرق رسمية أو دعوات تمَّ تأمينها لاحقاً بطرق مختلفة، ومن الذين حضروا وصِفتهم، ومن الذين وجّهت إليهم الدعوات ولم يحضروا، ولماذا لم يحضروا، ومن لم يتم تبليغهم مباشرة أو كلياً لأسباب ، أترك الاجتهاد في تسميتها لمن يعنيهم ذلك.

لهذا كان ذهابنا(أعني الذين همَّهم ذلك، وأنا من بينهم) تلبية لرغبة نفسية وعقلية، وتأكيداً للموقف الشخصي،

حيث كان من يحرس موكبنا إلى هناك، وكان في انتظارنا مسؤولون وسياسيون عديدون، وقد بدت حديقة مجلس وزراء كردستان في حكومة الإقليم وفي هولير، سابحة في الأضواءالحليبية، والأبنية الثلاثة المتجاورة للمجلس كانت في سيماء تجاورها لبعضها بعضاً وانتصابها في المكان علامة اقتدار، وشعرت وأنا أطأ العشب الطري وسط أشجارمنسقة بدقة ، وممرات هندسية مدروسة بدقة بدورها، تليق بحكومة حقيقية، بغبطة لازمنية، لم أستطع اخفاءها، وأنا أردد بيني وبين نفسي: ألا يستحقون ذلك؟(عنيت بذلك طبعاً الكرد).

كان هناك السيد" سركيس آغا جان" نائب رئيس مجلس الوزراء في حكومة الإقليم، والاستاذ "سامي شورش" وزير الثقافة، وآخرون لا تسعفني الذاكرة في إيراد أسمائهم، وقد مُدت الطاولات في مربعات يمتزج أو يتداخل فيها الأخضر العشبي الزاهي والأبيض المنبثق من أضواء تشع عالياً من أكثر من مكان.

لن أتحدث عن الفترة الزمنية التي أمضيناها هناك، ولا عن نوعية الطعام أو أصنافه هنا أو الفواكه وغيرها..الخ، إذ لست رحَّالة بطوطياً، لأدون مشاهداتي هكذا، ما يهمني هو اسلوب التعامل مع المدعوين، هو خاصية اللقاء، وأعتبر ذلك لقاءً لاعزيمة، تلك الروح المضيافية، وحالة الإلفة التي جسَّدها اللقاءالمذكور، فالاستاذ سركيس وكان إلى جانبه الاستاذ صلاح بدر الدين، بدا متجاوباً مع ضيوفه، في هدوئه وطريقة رده على استفسار ما، أوسؤال معين، بلهجته العراقية التي بدت ثقيلة نسبياً ، وهو نفسه صرَّح بذلك، أي أن العربية التي كان يتكلمها بطيئة، ولكنه كان طليقاً بالكردية هناك، وبلغته كذلك كآشوري، والمفارقة تكمن هنا، وخصوصاً بالنسبة لمن يتعود على وضع كهذا، إذ أن اتقان العربية ضرورة لازمة، ولكن حين تكون هي اللغة المطلوبة، وها هي الكردية هي اللغة المعتمدة. هكذا هو التاريخ إذاً!

ثمة مايجدر ذكره، وهوأن الموقف من اللغة لا يخلومن جانب سياسي وحتى شخصي ونفسي، أي عندما تكون مرتبطة بسلطة غاية في الجبروت ونفي الآخر، وأعني أن اللغة العربية في طابعها اللا مؤسساتي(أي ليتها عُرفت بمؤسساتيتها)، في صفتها الرعائية الممثّلة في من يوقع بها قراراته الخاصة، ويفرضها فرضاً رعائياً على الآخرين، بوصفها اللغة التي لا لغة سواها، كما هو بالذات بوصفه فريد دهره ووحيد عصره، حيث تفقد الكثير من فتنة التحدث بها، وعلى أكثر من صعيد. أهي شعوبية إذاً؟ لتكن شعوبية في كامل منظومتها العقيدية، طالما أن صاحبها يوضع في خندق الدفاع الأول عن نفسه رغماً عنه، وطالما أن الشعوبية، وخلاف ما دوَّنه كتبتها المجيّرون للتاريخ، شكلت الرد العملي على عنصرية تمثلت في اللغة وشملت مناحي الحياة كافة وإلى يومنا هذا في أمكنة مختلفة، ومحاولة لتهدئة غطرستها من الداخل واقعاً. أين هي الشعوبية إذاً؟

لم نخرج من حديقة مجلس وزراء حكومة كردستان، لم نغادر المجلس الموقر، وإنما بدا لنا التاريخ أكثر اعتدالاً،

وبدا الذين كلمونا باللغة التي تُعتبر شعوبية هنا وهناك، جديرين بالتاريخ في رقعته الجغرافية المرسومة.

16- جبالٌ، أي : فُلكٌ عائمة

الجبال تألف العشق الأخضر
وتشرب الطوفان

الجبال في هذا الشهر
تريد أن تتعرف على أبنائها
وحين تبعث الزمهريرخارجاً
تناديهم،
تعيّن لهم النياشين!

" شيركو بيكه س"

كان علينا صباح الأحد، في اليوم التالي، أن نهيّء أنفسنا، وبعد الفطور مباشرة ، بقطع مسافة طويلة لزيارة أكثر من موقع أثري، وأكثر من مكان يميّز الجغرافيا الكردستانية وتاريخها، ودون أن نعلم بالضبط ما هو الطريق الذي سنسلكه، حيث كان موكبنا طويلاً نسبياً، وفي الخلف والأمام، ثمة عناصر بيشمركة تحرسنا.

ولم يكن ذلك إلزامياً، ولكن رؤية الجغرافيا الكردستانية أو على الأقل معالم معينة فيها، تبقى مغرية بالخروج من الأوتيل، خصوصاً وأننا نبصر هذه المناطق للمرة الأولى، وهذا يعني أن ليس هناك من إغراء يعادل إغراء الخروج وتنُّفس التاريخ المنظورفي الخارج، ومتابعة أكثر الحوارات مأسوية وفظائعية بين التاريخ الذي سطّر عنفاً وغطرسةً، والجغرافيا التي انتهكت حرمةً، والمعالم الخاصة بها، وكيفية تعرُّضها للتشويه والتفتيت!

لم نلتفت إلى الوراء، نحن الذين انتظرنا هذا اليوم الموعود، كما هو مسجَّل في البرنامج، بقدرما كانت أعيننا مشدودة إلى الأمام، طالما أن هذا (الأمام) كان يعنينا في الصميم، حيث اكتشاف المكان لا يقل فاعلية معرفة ومصداقيتها، عن أي وثيقة يتقدم بها تاريخ ما، كون الزمان هنا، يتفسّر في إطارالجغرافيا، التي لطالما استبيحت، ورمُي إلى تفكيكها، وتركيبها بحيث لا تعود كما كانت في يوم ما، وإنما تغدو كما أُريد لها أن تكون.

كانت الحافلة التي أقلّتنا متوسطة الحجم، وكان ثمة حافلات بالحجم نفسه، ارتحنا لها، سوى أننا استشعرنا ضيقاً، بسبب عدم وجود ستائر تحجب عنا حرارة الشمس اللافحة الطافحة بعد حين، إلا أن إغراء البرنامج اليومي : البصري – الاكتشافي، أنسانا أهمية الستائر، ووهج الشمس وهو ينفذ عبر بللور الحافلة، ومن ثم شبكية العين.

كنا أنا وابراهيم اليوسف في مقعد واحد، وأعتقد أنه مثلي، أو أنا وإياه كانت تجمعنا شاعرية الرؤية المباشرة لما أردنا متابعته بصرياً، إضافة إلى أمور أخرى، لها علاقة بما هو مشترك، على أكثر من صعيد، كما هوحال غيرنا بالتأكيد!

هذا يعني أننا سنتعرف على الكثير مما هو منتظَروبالعين المجردة ، أو عبر الحواس التي لا تستنفد فاعليتها خصوصاً في وضع كالذي تلبَّسنا، هذا يعني أن الطريق مهما امتد أو تفرَّع ، سيكون مؤثراً. الطريق هو ذاته مختصرجغرافي، لأنه لن يكون المسافة المقطوعة ما بين نقطة وأخرى، أو (من – إلى)، إنما هوتفرُّع وتضلُّع في المكان، سطورالأرض الهندسية ومنحنياتها، وإن كان هناك نقلة أو انتقال، ورغم أننا سننطلق من نقطة محددة، تتمثل في الأوتيل، إلى نقطة محددة مجهولة بالنسبة إلينا، وسوف نعود إلى حيث كانت انطلاقتنا صباحاً. لكن الحالتين ليستا سواء من جهة التشابه أو التشبيه، فثمة توق في البداية، وتوق في النهاية، وتبقى البداية والنهايتان مجرد تسميتين لمكان واحد، طالما الشعور والمعايشة النفسية والتصورالعقلي، هي حالات مركبة مختلفة. وما يقال هنا ليس احتفاء بالمكان، أومعايشة شعورية لمكان تم

إغفاله مطوَّلاً فقط، رغم أن وضعاً كهذا قائم ومقيم في الذات، لكنه متجاوزلماهو شعري ونثري، إنه أبعد من حدود المستقصي الجغرافي أو رحّالته أو الأركيولوجي، لأن المكان من جهة التاريخ أوما عُني به تاريخياً وما لم يُعن به، مقروء بصور شتى ليست مستقطبة وجدانياً وكفى، بل مأسوي في عمومه، فثمة إذاً متابعة تمعين بصرية ، استحضار لتاريخ مدوَّن معاً في ظل ما يمكن تعيينه ، أو الوصول إليه، ثمة محاكمة رمزية للمكان وعبره معاً.

كانت الساعة قرابة الثامنة، لحظة انطلقنا من أمام الأوتيل، كما أتذكر، ونحن نستقل مجموعة سيارات متعددة الأحجام، وقد زوّدنا بالكثيرمن زجاجات الماء الصحية والصندويشات الخفيفة والفواكه، ثم انحدرنا لنرتقي لاحقاً.

وقد ارتقينا بالفعل طريقاً يقطع هضبة، حيث كانت واحدة، وها نحن نراها وقد شُقَّت، وبدا الطريق كأي طريق معبَّد بشكل جيد، ثم بدأت المنحدرات والمنخفضات أو بالعكس ، والمنعطفات والمنبسطات تتقاسم الطريق، لكن الغلبة كانت جلية للمنعطفات والمنخفضات والمنحدرات وعتباتها، كما تقول الطبيعة الكردستانية التي التقيناها ودخلناها وانغمرنا بتاريخها المكبوت كثيراً، والمتبركن أكثر، وكما عرَّفنا الطريق في امتداده المتعرج والمنفلت والمتوغل في أكثر من جهة، إلى درجة أن المرء يشعر وهو في السيارة أنه داخل دوامة ليست عمودية إنما أفقية، حيث ينفتح الطريق، ثم يتزكزك، ثم يتلهلج ثم يتمرجح، كأنه يدور حول لولب غير مرئي، ويعود إلى نقطة تمثل البداية وإن كنا نبصر الأشياء: القرى المتناثرة على جانبي الطريق (ويا لبؤس الأكثرية فيها)، تلك التي انفرطت، أو تناثرت على غير هدى، مأخوذة بمواقع مختارة أومحددة بحكم الظروف وقوانينها الفارضة، ومحلات الأجانس المتواضعة والفواكه والمشروبات الغازية، وصفائح البنزين(البيدونات)البلاستيكية : البرتقالية والكرزية وغيرها، المعروضة على قارعة الطريق، خلاصة وثمالة خيرات اُختلست أونُهبَت طويلاً ، وحرم الكرد منها حتى الآن، في الحد الأدنى مما يجب، أو حقيقة تاريخ (تبيدن) إن جاز التعبير، والتلال بكل توضعاتها، وقمم الجبال مع حاملاتها والسهوب أو السهول والبساتين المحصورة بين الجبال المتدوّمة من الجهات كافة ، وهي ترتد إلى الوراء، حيث كنا نحن نتجاوزها، لكأننا كنا نمارس معها لعبة الغمّيضة، أوأرادت ذلك، لكنها الطبيعة الكردستانية في العمق، في انفتاحها الممغَّص والخجول علينابمعان شتى.

الطريق الذي سلكناه، بعد أن قطعنا مسافة منه، بدا خلاف ما كنا تصورناه، خصوصاً حين انقلب فرعياً، أي تركنا الطريق الرئيس، وامتد أمامنا طريق آخر، تميَّز بلونه الاسفلتي المتآكل، حيث سواده تجلى شبة ممحو، زنجياً استوطنه بهق في وجهه، ولاحظنا التداخل القوي بين الطريق الذي سلكناه، وهو يضيق بنا تارة، وينحرف كل حين تارة أخرى، ويفاجئناأحياناً بمطباته، وأحياناً ثالثة، ينحرف آخر، ويظهر الترابي منه، وفي أكثر من نقطة، لأنه يتعرض للتعبيد أو التوسيع أوبناء جسر يقطعه..الخ، والقرى التي مررنا بها، قرى كثيرة توضعت على جانبيه، لم تخف مظاهر بؤسها، وكأنها عمّرت للتو، ودون أي تخطيط، خلت في غالبيتها من الأشجار، وقد أعطت الكثيرمقارنة بما سمعنا، في أبعادها التاريخية والاجتماعية، لقد أفصحت عن حقيقة ماعانته، لكأنها أبانت عما هي فيه، ومارست ثناء ذاتياً لأنهابرزت بالصورة تلك، هي وكل البيئة التي تمعَّنا فيها، والطبيعة التي استحالت شبيه رأس محلوق، أو أصيب بوباء الصلع، فالفظائع السابقة، كما عُلمنا، لما تزل تسرد حكاياتها بسيمائها الكردية، وفي الوقت نفسه تجري مقارنة سريعة بين هيئتها التي لم تستقم الحياة فيها، رغم ضراوة إرادة الحياة فيها، وما عاشته من خلال الأحداث التي لم تختف بآثارها من الداخل قبل الخارج، إضافة إلى ذلك المشهد التقريعي للذات، والتأنيبي للوجدان، ولكن ذات من ووجدان من؟ الذين يَمثلون أمام المحكمة جزئياً والذين لم يمثلوا بعد، والذين تواروا عن الأنظار، وربما يكونون قريباً منها، ينتظرون فرصة أخرى، إمعاناً في التشقي، وصل ما انقطع من الفظائع، أم الذين لم يتهيأوا بعد لمحاكمة وملاحقة الجمع الغفير من القتلة التاريخيين والمبارَكين هنا وهناك حتى اللحظة هذه، أم نحن بصورة ما، لأننا نمارس الفرجة ليس إلا؟ كل شيء هنا بحسبان رجيم كما يظهر، خلاف كل شيء في أمكنة كثيرة في العالم.

حتى أن الكثيرين ممن لمحناهم وتعرَّفنا عليهم عن بعد، ومن خلال النظر، كانوا يرمقوننا أويحدقون فيناتعبيراً عن تعارف لافت محكومين بوطأة تاريخه وعوائده الآلمة، وتارة أخرى يبدو الانكسارالنفسي على أشده، لكأنهم واقعون بين ماض يعانون المر بسببه، وهم يتنفسون طي ذاكرة تشدد على ماكان وصعوبة نسيانه، وحاضر مازال مفعماً بأشباح الماضي والذين يمارسون تجديداً لرموزه بطرق شتى، والمستقبل الذي لا يبدو كما يشتهي الساكن هناك، وهو المسكون بصراخ الذين لم يموتوا الموت الرحماني الغريبب عليهم، منذ زمان مديد.

أهي استثارة للعواطف؟ تخلٍّ عن لغة العقل كما يقال؟

إنني أصغي إلى الأمكنة المستباحة، الأمكنة التي فقدت أو أُفقدت علاماتها الفارقة، أعني ما يبقيها الأمكنة التي يحق لها التمايز، كما هي الكائنات الحية، كما هم البشر في أجناسهم وأعراقهم وانتماءاتهم، أن تبقى متغايرة، مثلما أصغي إلى بلاغة الأعماق اللجّية لمختلف الأمكنة، وخصوصاً في منطقتنا، هذه التي ابتليت بمرض مزمن ، هو الخوف من الأعماق، هو اعتبار الظاهر حقيقتهاالحقة، هو التعتيم على ما عداه باعتباره العدم أو اللاموجود، وتربية الذاكرة الجمعية على هذا الأساس، وهكذا هو التاريخ الذي يتلطى خلف الركام المتهاوي والمتجوف لوقائع تفنّد ما يعوّل عليه، وإذ أتابع الكامن في الأعماق، كنت في الوقت نفسه أمارس فراسة في المتحرك عيانياً، وما شاهدته، ما أمعنت فيه ، لا ينفصل عن سياسة التاريخ العرجاء وسدنته الذين يحيلون التاريخ إلى العدو الأول لهم، عندما يشدّدون على ما يدوّنونه بوصفه جوهر التاريخ، ويحيلون ما عداه(ويالهول ووساعة ماعداه هنا!) إلى التاريخ الملفوظ الممنوع من الصرف، الممنوع تداوله وتناوله أو اعتماده المرجع العلمي .. كما اعتاد ويعتاد تاريخياً(سفاحو الأمكنة) هنا وهناك، وهم يعتمدون على جيش لجب من الخدم والحشم : إعلامياً ودعائياً وسياسياً وأمنياً وتربوياً..الخ، لرهان على تاريخ مشروط هم أنفسهم ممثلوه وحراسه ودعاته والمعنيون الأول به .

جبال رواسٍ/ جبال فُلك راسيات! تلك هي الجبال الكردستانية، التي تشكل لغزاً تاريخياً جغرافي المنشأ!

يمكن للمرء الفاره المتخيَّل ، أن يعتبر أن الله عندما جعل الجبال رواس، بعد أن جعل الأرض مهاداً، ووزع الجبال ، منح كل بقاع الأرض جبالاً موزعة معروفة بأسمائها، وأبقى أغلبية الجبال، تلك التي لم تُسمَّ بعد، لا ليجعلها في المحيط الكردستاني أو الجغرافيا الكردستانية، وإنما ليجعل كردستاناً نفسها في معظمها جبالاً، تتكاثف وتتعاضد وتتداخل وتتماوج وتتسابق وتتنافس امتداداً واستعراضاً وتتصارع طولاً وعرضاً، تمارس تحديات متبادلة، تتحارب،أو لكأنها(بُثَّت) كردستانياً، وغرست في كردستان أكثر من غيرها، خشية أن تميد الأرض بأهلها تاريخياًإثر نوازلها، وحيث تبدو السهول أو السهوب أو الصدوع أو الفوالق أو الوديان الفاصلة فيما بينها ضحايا لها، هي ذاتها وقد اضمحلت أو تجندلت أرضاً، باعتبارها ملحقات بها، أو تتقدمها:محدودبة، لاطية، مزعنفة، مقرفصة، منمَّلة، شاردة تيه ما، أو مسحورة به، أوتتبدى في حالة توثب صوب مجهول معين، أو متربعة، أوخوفوية على طريقتها نحو أكثر من جهة، أوحانية على فراغ معين، أومرتدة إلى الوراء، أوفالجية في بعض مظاهرها، أومتطاولة ناطحة سحابية طبيعية، وقد اتخذت كل مشاهد الفن المعروفة: الطبيعية والتعبيرية والانطباعية والسوريالية والوحشية...الخ، ولكنها في مجموعها لا تقول إلا ذاتها المادية، لا تبدي إلا ما يبدو للمرء الناظر أنه حقيقتها العصية على التدبيروالمعاينة والمشافهة كردياً هنا، فاستحالت بالشكل المذكور.

ليس بالوسع التأمل طويلاً في كل الجبال في المجال الذي الذي حصرناه بأنظارنا، وهي تبدو وكأنها فُلك عائمة في محيط أو بحر غير مرئي ، تنتظر إشارة التحرك والإبحارالبري هذه المرة من ضفة، أو منار ما عالي الموقع بالتأكيد. جبال تكاد تتشابه، أعني تلك التي شاهدناها، ولكنها تتمايز ألواناً عن قرب، وتتجلى منحوتة، أو منضدة في بعض الحالات، ومنجَّرة أوحفَّت بقوى مجهولة، وقد اتخذت مشاهد غاية في السوريال، هي أكثر بلاغة من كاميرا المصورالطبيعي، وهي تصعد وتختفي وتبرز فجأة، وتنطوي على نفسها، أو تستطيل أو تشمخ فجأة، أو تنتصب، لكأنها حادية العيس، وهي الجبال الأخرى في مسيرها اللامنظور، حيث الكرة الأرضية تدور وتدور، وهي ترافقنا، هي ذاتها دون أن تثبت على حال، أو على

هيئة. ألهذا قيل فيها ما قيل ياترى ؟

أعتقد أن العلاقة القائمة بين الجبال هاتيك(لكثرتها) والكردي، لم تُدرَس كماتكون الدراسة، إنها تحير الدارس قبل الناظر، وكل نتيجة هي احتمال وليس حقيقة يُؤخذ بها، فهي في الوقت الذي فرضت على الكردي وبينه وبين الآخر(الكردي) تاريخياً ماكان يقال ولازال يقال حتى الآن كثيراً، ذلك الانفصال، والحيلولة دون تشكيل مشروع دولة، تبدو في الجانب الآخر، الملاذ الطبيعي الذي منح الكردي هذا بعضاً من الخصوصية في البقاء، ودوام العيش بصور شتى.

ليس على الجبال هذه من حرج، عندما يتأملها متابع أمرها، ذلك المزج بين ما هو تاريخي وأسطوري وخرافي وواقعي متواصل فيها، إنها لم تنفد قوةً، وهي كأنها تلخص ما يمكن أن يكونه الكردي، ما يمكن أن يكون موجوداً دون أن يكونه حقيقة مماثلة لغيره كغيره! هذا ما يمكن قوله، وما تَعِدُ به ربما يكون أكثر إمتاعاً وإغراء.

لقد أخذت منا(مني) معظم الوقت/ الانتباه/ التفكير، وعلاقتها ببقية العناصر الأخرى في الطبيعة، أدخلتني في الفضاء الأسطوري للمتخيل، رغم أنها كانت حقيقة معاشة حسياً وشعورياً. تصورت لو أن تلفريكات رُكّبت على قمم الجبال هذه، لاستطاع الكردي تحويل كردستانه إلى البلد المميَّز في عالم السياحة. التاريخ الكردي لهذا، تدشنه فضائل جباله المرئية تلك.

ثمة الكثيرمن الكنوز تنطوي هاتيك الجبال عليها. من لا يرى الجبال هذه، أولايحتسب لها، لايعرف الكردي ومن معه كما يجب، تلك هي الحكمة التي استخلصتها، وأنا مأخوذ بفتنة الجبال المتأرجحة أمام ناظري داخل الحافلة.

17- في ضيافة الرمز الحي!

أمضيت الكثيرمن الوقت مأخوذاً بالانجذاب بين الحالة الشعرية التي يمثلها الجبل، بصفته العامة، وفي سيمائه الكردية، حيث يلتصق الأفق به أو يتوارى خلفه مباشرة، أو يبدأ بالانكسار سريعاً وقريباً منه، وبالنسبة للنظر الذي يعادل في الواقع ماهو شفاهي في المرء، وهو يتلون بمايراه ويعيشه، ولهذا قيل عنه (أي الكردي) الكثيرمن ذلك التوحد الوجدي بينه وبين الجبل، ولم يفارق الفنان الكردي ولا الشاعر الكردي مخيلتي الثقافية: الأول يرد على الجبل بنايه Bi Billûra xwe متنقلاً مابين De lêlê de lolo بداية وموضوعه الذي يشغله في همه اليومي أو الظرفي نهاية، وهو يسرد على طريقته حكايته، هي تاريخه المميَّز، تاريخه الحدثي وهو مغنًّى : ألحاناً وكلمات، والثاني وهو يتماهى مع المغني أو هو نفسه يكونه بشكل ما، وقد كثّف الحالة الإبداعية عنده، لتدوم في الذاكرة الجماعية أكثر، تذكرت هنا(بل كان موجوداً معي) صوت شيركو بيكه س، وثمة الحالة النثرية التي يبدو الجبل وقد شبَّ عن الطوق، وقد أخذ أوصافه التي تعرّف به أكثر، عبر تدوين يشير إليه، والذي يتحدث عنه، والمفارقات القائمة بينهما، إذ لم يعد الكردي يُعرف بجبله فقط، إلا على سبيل المجاز، إلالأنه لا يُعرف إلا به، وفي هذا التحديد تضييق عليه، فهو لم يعد كائن الشفاهة، كائن الشعرالمتردد على طريقته، صاربامكانه أن ينثر كلماته، أن يحل في أي مكان، ويحتفظ بجبله كماهو وليس أن يتقدم به، إلا إذا أريد التذكير به ، ومن خلاله، تعبيراً عن حالة بقاء أو استمراية، ولم يعد كل مكان يقيم فيه موصوفاً جبلاً. لقد غدت حياته أكثر رحابة.

وأنا أسجل ما كنت أراه، ما كان يلفت نظري في الجهتين، وأمامي ببروزه، لمعاودته والتمعين فيه على أكثر من صعيد، وبين الحين والآخر، كان ثمة ما يغدو موضوعاً للتعليق عليه بيني وبين اليوسف، وفي بعض الأحيان نحن معاً والآخرين داخل الحافلة، ليرجع كل منا إلى ما يشغله على طريقته، حيث اليوسف نفسه كان مأخوذاً بحالته الشعرية، بعد انطلاقتنا بفترة لم تدم، على أثرها كان تجلي قصيدة شعرية في إهابه، عندما بلغنا مشارف قرية (بارزان). كلٌّمنا كان داخل كردستانه المشتركة، لكنه كان يحلل ويركب كردستانه الخاصة به.

جبال كثيرة خلّفناها وراءنا، أعني صافحناها بصرياً، واستحالت أسماء وتدوّنت داخلنا، وتأرشفت معان ودلالات، وصاحبتنا، وجبال تراءت عن قرب وعن بعد، وأخرى أبعد وأبعد لم نرها بعد، تتجاوز

حدودالسليمانية وحاج عمران في يوم ما، مترقَّب تماماً، تنتظر فرصة التدوين والتلوين، تلك كانت نزيلة مشاعرنا وأفكارنا. وبين الجبال أو برفقتها أنهارتلاقت، وشواهق جبالية، ووديان، وقرى ملتصقة بسفوح الجبال، وأخرى تتسلقها، وسواها تتوسط المسافة الفاصلة بينها وبين السهول أو السهوب القليلةالأنفاس على كل حال، ودغلات متعددة، ووجوه قرويين تشفع لنا بأعينها المهمازية، وهي تتابعنا لمسافة معينة، عبر موكب يلفت النظر. لكم كبرنا داخلها تاريخاً.

لم ننتبه كيف توقفت الحافلة بنا، بقدرما انتبهنا إلى صوت أحدهم: وصلنا ياشباب. تلك كانت قرية بارزان إذاً، تلك كانت المحطة الأولى التي خطّطت لنا للنزول فيها، وهي المحطة التي تتجاوز حدودها الجغرافية، مستقطبة أكثر من تاريخ بأكثر من لغة : محلياً واقليمياً وعالمياً، المحطة التي تُسمى كذلك تجاوزاً، لأنها شغلت كل معني بالسياسة والثورة والحرب والانتماء القومي والتاريخ، وعلى مدى عقود زمنية طويلة.

نحن في ضيافة الرمز الحي إذاً، أعني العظيم ملا مصطفى البارزاني، الرجل الذي شغل أذهان الكثيرين، وكُتب عنه ما كتب مشرقاً ومغرباً، وبات من المستحيل تجاهله ، بالنسبة لمن يريد تناول التاريخ الكردي الحديث، مهما كان حجم الخلاف أو الاختلاف، ومن المستحيل تجاهله لمن يريد دراسة الكردي في التعبير عن كرديته، عمَّن يكون انتماءً وخصوصية ذات، وتنوع علاقات أوطبيعتها، لقد كان ثمة نقلة من تاريخ لآخر كردياً.

يُلاحظ القارىء هنا، أنني لم أتحدث هنا عنه بإطناب، معتمداً الوصف والتوصيف، لم أطلق أحكاماً في هذا المنحى، سوى أنني أكّدت ، وهو تأكيد ليس وليد اللحظة، على اللحظة البارزانية في التاريخ الكردي، إذ أن الذين اتفقوا عليها أو اختلفوا أوتنوعت آراؤهم، اكّدوا على الحضور البارزاني الكبير في التاريخ: الكردي وفي تواريخ من حاربوه أو حاربهم، دون أن يخفوا شجاعة الرجل في بقائه رهين حبه الكبير: كردستان، أن يحترموا كردسانيته.

لم تكن قرية بارزان قرية لافتة للنظر، كما هي قرى الكثيرين ممن نعرفهم، وقد تعالت على غيرها من القرى الأخرى، وقد استحالت أكثر من كونها قرية، من خلال معالمها، بمداخلها ومخارجها، ومقبرتها.

كان هناك من في استقبالنا، وقد تقدمهم الشيخ عبدالله برزنجي الذي لا زال محافظاً علىحيوية لافتة، والمسؤول عن هذا الجانب في القرية، وثمة طريق يؤدي إلى مقبرة البارزاني التي بدت أكثر من متواضعة، لقد كان قبره داخل مستطيل مكون من غضار ناعم، يلفه سور واطىء من الأحجار، ومدخل،هوعبارة عن باب خشبي متواضع يمكن القفز من فوقه، ومن جهة اليمين عالياً ثمة مجموعة أشجار في نسق واحد ومتباعدة، كانت موجودة مسبقاً.

هناكان الذي كان، وكان الذي يكون الآن. هنا يرقد العظيم، أعني يحيا بجدارة.

تقدمنا منه لنحييه، وقد كان للتاريخ أكثر من مدخل يتجاوزالمدخل الخشبي والسورالحجري والغضارالمنثور، يتجاوزحقيقة ما يمكن للمرء أن يتداركه، في هذا المقام المحمود حقاً، المحمود بتاريخه الذي تنامى به.

كلمات عدة قيلت فيه، عنه. ابراهيم اليوسف، تميز بقصيدته التي أنجزها لحظة وصولنا، تجاوب معها مَن حوله، كان ثمة آخر، ألقى كلمة مؤثرة، ارتجلتُ كلمة بدوري، تحدثت فيها عن العلاقة بين الكردي وجبله، عن التحديات التي لا زال الكرد يواجهونها، الجغرافيا الكردستانية وتأثيرها في الآخرين، العظيم البارزاني كما سميته وتداخله مع الجبل، الفارق الكبير بين مايمكن للمرء أن يتخيله عن كردستان قبل رؤيته وبعد رؤيته لها ، الاستمراية في البقاء، طالما الجبل موجود، والكرد موجودون حتى الآن.

ما لفت نظري هو كلمة الاستاذ خليل ساسوني المحامي والشاعر، كنت خلفه مباشرة، وكان اليوسف بجانبي يساراً، وهو خلفه بدوره وأقرب إليه مني، حيث ارتجل كلمة بالعربية، تحدث فيها عن الصداقة أو الأخوة العربية الكردية، ومن النادرتحدثه بالطريقة هذه، أعني بالعربية تماماً، ويبدو أن المكان وخصوصية المتواجدين كان لهما دورفي ذلك، ومن ثم استأذن لإلقاء قصيدة له بالكردية، كانت مكتوبة على ورقة مُفوكسة، على الوجهين، وبحروف عربية متصلة، وأفصح في الثناء على البارزاني، في مديحه ومن معه.

حرَّك في داخلي ذكريات، هو وكل من يفكر على طريقته، في التعبير عما ذهب إليه، ماكان عليه موقفه سابقاً، ماكانت عليه قصيدته العكسية تماماً لقصيدته هذه وهي لم تكن جديدة، إذ كانت ترجع إلى عدة سنوات، كما كان التاريخ مدوَّناً. تُرى كيف يجمع هو وغيره بين النقيضين، بمثل هذه البساطة؟ كانت القصيدة مكتوبة بحروف عربية، وقد أثارت استغرابي. أين هي الحروف الكردية(اللاتينية)؟ أليست هذه جزءاً رئيساً من العلاقة مع ماهو كردي؟

في الطرف الأقصى: الزاوية الجنوبية كان يقف الاستاذ دحام عبدالفتاح، بعيداً عن الدخول في مجال التصوير، عن الجمع الغفير المتواجد، أثار وقوفه هناك .. هناك، أكثر من تساؤل لدي: لماذا وقوفه هناك؟ الموقف لا علاقة له بالتواضع. لماذا لم يلق كلمة؟ كان بامكانه لو أراد، لماذا لم يتم هذا؟ هذا يعود إلى مواقف سابقة بالمقابل.

أهي حالة فهلوة أم أستغباء، أم الحالتان معاً، وهما مشهود لهما في أكثر من مثال كردي مُعتمَد عليه!

رب متسائل يسأل: لماذا مثل هذا الإقحام، وربما التجني على الآخرين في مثل هذاالموقف المتحامل!؟

ولكن لماذا لايكون التعبيرعما حصل قائماً، وفي هذا المكان/ التاريخ؟ ونحن في ضيافة من قيل أو كتب فيه الكثير الكثير، وهو الأكثر مناسبة من أي مكان آخر، وهو الأحق من أي مكان آخر، لأنه يستوجب ذلك، حيث لا أمارس محاكمة لأي كان، وليس من حقي ذلك، إنما الحق في المساءلة، حول الازدواجية الصارخة في المواقف، حيث لم يكن هناك اعتراف بأخطاء واقعة، أوالتعبير عن الموقف الذي كان، والتشديد عليه، مهما كان تقييمه سلبياً، وليس الانتقال من وضع لآخر يعاكسه كلياً. أتحدث هنا عن التحول اللافت في المواقف، دون تعليق، وكأن شيئاً لم يكن، كأن لا أحد يمكنه أن يذكّر بما كان وبما يكون أو سيكون أو يستثار لاحقاً.

أن أكون مفصحاً عن خصامي، عن سلبيتي تجاه موقف، أفضل بكثير من أن أكون مزاوجاً بين مواقف غاية في التناقض والتعارض. كيف يمكنني كانسان، ككردي أن أكون صادقاً مع نفسي؟ تلك هي المسألة! هل من أخرى؟

ليس استقواء بأي كان ، وأنا أثير في السياق موضوعاً كهذا. أهو تشهير إذاً؟ لست في حِمى أي كان، كما أنني لا أجامل أيَّاً كان، ولا بطالب رضىً. أهي عيوب؟ فلتكن. ليهدِني عيوبي من يمكنه ذلك، وأنا في انتظارها.

ثمة صور كثيرة اُلتقطت، أردنا للمكان أن يكون معنا، أن نكون فيه، حتى ونحن مغادروه، حتى المكان الآخر الذي استضافونا فيه، وهويُشعرنا بخفة الهواء العليل، ويناعة الخضرة، ونحن نتفيأ في ظل الشجر وعريشة منصوبة، ونتجاذب أطراف الحديث . أشير هنا إلى الدكتورة بلقيس محمد، استاذة العلوم السياسية في جانعة بغداد،وهي تعبّرعن حبها للعراق ولبغداد المهدَّدة من قبل الارهابيين في المنطقة الخضراء إذ تسكن هناك، وهي تعلّم طلابها وطالباتها معنى أن يعيش المرء حياته ، وهو معرض لخطر الموت في أية لحظة، وحبها للكرد دون موارية، نقدها للمثقفين العرب ، أولئك الذين مدحوا صدام حسين نفاقاً أو تعبيراً عن وعي قوموي مروّع، كمافي حال محمد عابد الجابري، وكانت تلك من اللحظات الرائعة في المقام العليل الجميل، وقدأرشفتها في أكثر من صورة ملتقطة.

بقي علي أن أقول ما يجب قوله، وهو أنني احتفظت بعود من غصن شجرة رمان اقتطعته في قرية بارزان، بالإضافة إلى سكين صغيرة جيء بها مع الفواكه، وضعتها في محفظتي للذكرى، دون أن أعلم أحداً بذلك. والاثنان: العود المقتطع والسكين معلقان الآن إلى جانب صورة تذكارية تضمنا اثنينا أنا واليوسف، على الحائط المقابل للباب في مكتبتي، التقطتها لاحقاً من أمام مقبرة الأ يوبيين، ونحن نزور قلعة صلاح الدين الأيوبي.

18- في رحاب قلعة صلاح الدين التاريخية!

ربما أمضينا أكثر من نصف الوقت ، بغية الوصول إلى قلعة صلاح الدين الأيوبي، في منطقة دوين،

وقد سلكت بناالحافلة طريقاً نصف ترابي، قطع أكثر من واد ومنخفض وعر(ذكرني كثيراً بالتاريخ الذي نقرأه غالباً هنا وهناك)، دون نسيان المطبات التي تلخص معظم الطريق ذاك، حيث تكفلت بخضّنا، ورجرجرتنا لمسافة طويلة، بعد أن وقفنا لبعض الوقت، إذ قيل لنا بعد لأي، أننا سلكنا الطريق الخطأ، وبعد توقف لهذا السبب كان محسوباً علينا بالثواني، وتوتر داخلي، حيث كان من المفترض أن نقوم بزيارة إلى برلمان الإقليم مساء لاحقاً، وهذا لم يتحقق طبعاً، بسبب سوء الطريق، وضعف التخطيط الملحوظ كذلك، إلا أننا بعد وصولنا، نسينا جلَّ ملاحظاتنا التي سجلناهاعلى الرحلة إلى المكان هذا، فأن ترى القلعة المذكورة، هو بمثابة حصولك على مكافأة استثنائية.

مسيرنا شابه حكاية القلعة بالذات، شابه التاريخ المدوَّن، إذ القلعة النائية، والتي تبدو مهجورة، وهي تعلو قمة هضبة عالية، تسرد حكايتها بصمت، وهي إشكالية، من جهة تنوع مصادرها وما كتب عنها، وطريقنا يقابل فعل الوصول إلى الحقيقة التي تخص القلعة وصاحبها، يشكل مدخلاً للقلعة والبعد التركيبي ، ما هي عليه أو فيه، حيث لم نكن في هيئة شعراء المعلقات لنرثي المكان والزمان المكتوم المكبوت المبعثر داخله أو بين جنبيه، لنكون أطلاليين، خصوصاً وأننا نروم مستقبلاً، لعله يمنح الأصوات المتنحاة قهراً بعضاً من خصائل تسميتهاعلى الأقل، ولأننا ارتضينا البكاء الداخلي على طريقتنا، أعني الذين كانوا معلّقين بما كان وهيبة المتلوع وآفات التمثيل طويلاً، ولأننا، نحن المعنيين، نعيش أكثر من طلل دارس مدروس ومغيَّب في دواخلنا، فكان الصمت رواقنا المشترك، وربما أكثر من قيامة الأسئلة التي جيَّشها المكان وخزعبلات العابثين بتاريخه وامتداداته من هنا.

القلاع تنفتح على تاريخها الذي يميّزها، غيرأن ما يميزها لا يعادل تاريخها الخاص المكتوب والمتداول عنها.

تبدو القلاع حضارات متنوعة في أسماء ممثليها، وهي في الجانب هذا، كثيراً ما تتعرض للتحريف، لأنها تخضع للتصميت، بينما الذين يُعرفون بأنهم أصحابها، أعني ورثة غير شرعيين لها لاحقاً، يقطعون صلتها بمن كانوا رموزاً لها، وهي الحالة المألوفة في منطقتنا، امتداداً لأكثر من حالة أخرى مماثلة : سياسية وغيرها.

لا أتحدث عن صلاح الدين كقلعة، وقد بقي منها القليل القليل في ماديتها الظاهرة طبعاً، عبارة عن شواهد ممحوة اللغة، من خلال بعض حيطان أو جدران متداعية، وبرجين متقابلين مشرقاً ومغرباً، وفي الأعماق ثمة ماض يرجع إلى أكثر من ثمانية قرون يتحدث عما كان، ولكنه الحديث غير المترجم كما هو بلغته، في حدود امبراطورية كردية المنشأ والاعتبار، وإن سعى كثيرون من الكتاب خارج ماهو كردي، وضع تاريخ آخر أو نسب آخر، إنه الماضي الذي دوّن عنه ما هو محظور في أكثر من جهة. هكذا هي الأمكنة متفاوتة القيمة عبر الأسماء الممنوحة لها، وهكذا هي الأسماء، وهي تحيل الأمكنة إلى مرجعيات تتأصل بوصفها التاريخ الحي.

كما هو التعامل مع الناصر صلاح الدين، في الكثير من الأدبيات العربية الاسلامية، واعتباره البطل الاسلامي، أوالبطل العربي أحياناً، أوالبطل الاسلامي بجيشه المميَّز بغالبيته العربية، أوالمشكوك في انتمائه الاسلامي، وعدم صحة الكثير مما كُتب عنه، وخصوصاً في الأدبيات القوموية العربية الحديثة، لغايات تستهدف التقليل مما هو كردي، بعد تأكيد كرديته، ومن جهة أخرى، بعد المناقشات التي طاولت رموزاً تاريخية، والعلاقة القائمة بين ما قامت به، وما هو عليه وضع أولئك الذين تربطهم بها رابطة نسبية ملحوظة، كما في تواطئه مع الصليبيين أو حتى مع اليهود، وأن ما يجري اليوم في فلسطين، لم يكن إلا امتداداً لتخاذل الأيوبي، مع أعداء العروبة والاسلام، (سهيل زكار أكثر مَن يمثل هذا الاتجاه)، هكذا يتم العامل مع الحاضر، وفي مثل هذا الوقت أكثر من أي وقت آخر، إذ نتلمس مساع محمومة، لتأكيد عراقة المنطقة في تجليها العروبي ، وطارئية الكرد تاريخياً، إضافة إلى ذلك التصور الذي يظهر علمياً عند دراسة التاريخ الخاص بالصليبيين، وكيف أن العرب لم يصحوا بعد من عقدة التسمية، وحقيقة التاريخ الذي لم يتفهموه، بوصفه تاريخ الآخر: من غير جنسهم، أعني ليس عربياً في توجهاته، وضرورة التحرر من غواية

وعقدة التاريخ هذا وطريقة النظر المثالية إليه، كما في الربط بين حطين وأي معركة تحرر عربية اليوم، أو الناصر صلاح الدين وأي قائد عربي(مظفَّر!)، وهو تصوررغم وجاهته اللافتة، إلا أنه لايخفي موقفه المعتقدي التاريخي الحاسم والخلافي مع المرحلة في عمومها ومن يمثلها، وحتى سياسة الانتماء إلى الداخل في بعده العربي الواسع النطاق، والذي يشمل حتى مناطق الكرد بالمقابل(أشير هنا إلى كتاب أمين معلوف اللبناني المتفرنس: الحروب الصليبية كما رآها العرب، الترجمة العربية، بيروت، 1997، في الخاتمة).

قلعة صلاح الدين ليست ذاك الأثرالذي يمكن الاستئناس به إلا من جهة تعريضه المقصود للاتلاف في عهد النظام الآفل، لكأن البقايا الباقية، هي من باب العِبرة، لمن يريد اتعاظاً ممن ينسبون أنفسهم إلى التاريخ المعاش.

يمكن التحدث هنا عن المجتمع الأيوبي الكردي، عن الاسلام الذي جاء من الخارج ثم اكتسب خصوصية الداخل، من خلال عادات وتقاليد في المنطقة الكردية(في دوين(الثغرترجمة بالعربية) وما حولها)، والإسهاب في الحديث عن كردية صلاح الدين من خلال القلعة وبعدها الاجتماعي والثقافي، تلك التي كانت تطل على الشرق، وتستشرف الأفق الغربي، وفي الآن عينه تشد الشمال إلى الجنوب، عن الماضي الذي لم يمحه في طابعه المعتقداتي الكردي ، بقدر ما تجلى مأخوذاً بماكان وماهو كائن لحظة تثبيت الاسلام كدين ، ولكن بعد المزيد من المحاولات، ويمكن الحديث عن المقبرة الأيوبية كأفضل علامة ثقافياً فارقة للمكان، وهي محمولة بالشواهد الحجرية المحفورة والنافرة في آن، كما رأينا بالعين المجردة، وشكلت خلفية بارزة لصورة التقطتها، حيث الخنجر الكردي والسيف الكردي والشمس وهي تشع عالياً، وكل ذلك يعيد إلى أذهاننا ليس ماكان قبل ذلك، وإنما ماكان بوصفه : ما يكون، وما هو كائن، حيث نسمع من أفواه كثيرة تلك العبارة / القسم(Bi ûcax)، أي بـ(موقد النار) أو بـ(النار) اختصاراً، أو القسم المألوف كردياً والذي يخص الشمس، وحتى ضوء القمر، وكل ذلك تجسيد للروح النارية القرينة الجبلية!

يبقى الاهتمام بالقلعة هذه، جزءاً رئيساً من الاهتمام بالتاريخ، لابل هو التاريخ الأكثر إشكالية وحساسية بوجهيه المعلنين: دينياً وإثنياً، فعلى الصعيد الديني يبدو الاسلام العباءة الأكثر وساعة لضم واحتواء كل المنتمين إليه من الأمم والشعوب والقبائل، وكل ما تم تدوينه وتدشينه في التاريخ الاسلامي يظل الإرث المتنامي للمسلمين في مجموعهم، أي من حق أي مسلم الافتخاربما أنجزه وأبدع فيه مسلم آخرأنَّى كان. وعلى الصعيد الإثني، لم يكن في وسع الاسلام طوال عهوده ، رغم كل الدعوات والتأكيدات المتنوعة على وحدة الاسلام : شعوباً وأمماًوقبائل مختلفة، الذهاب بتأكيداته إلى الفعل الواقعي الذي يصادق عليها، وفي الحالة هذه ، بدا الشعارآخذاً برقاب الواقع والمنضوي تحت رايته بوصفه حقيقة، إذ أن جغرافية دارالاسلام(كما تحدث عنها عالم فذ هو اندريه ميكيل) بكل وساعتها وامتداداتها القارية الثلاث على الأقل: الآسيوية والإفريقية والأوربية، لا تفلح في إخفاء سياسة التفاوتات بين الأمكنة ودلالاتها قيمة ومقداراً، فالإعجاب نفسه خطاب يشي بالكثيرمن التمويه، وقراءة التاريخ حتى في لغته الأكثر اعتماداً لأكثر من سبب تاريخي: العربية بالتحديد تنبىء بذلك.

إن المرحلة الطويلة من الحروب المسماة بالحروب الصليبية، تتعلق بذلك التاريخ الذي انشحن بالكثير من المداهنات والمراهنات والتملق، بخصوص الذين كانوا رموزاً لها في الطرف الآخر الموازي لمن سُموا بالصليبيين، وكيفية تقييمهم وتناولهم بالبحث المشفوع بالوثائق والمقارنات فيما بينها، وفي صلب الاهتمام العلمي والأدبي والإثني يأتي الكرد، من خلال وطأة ايديولوجيا الحاضر الذي مضى عليه أكثر من قرن كامل، وليس سنوات عدة، وزائر كردستان: الأرض المحرمة، وليس الحرام، باسمها وضلوعها في الإثم الموجَّه إثر ذلك، لا بد أن يصدم بالمفارقة التاريخية الكبيرة، بظلال التاريخ في أكثرعصور التاريخ خطورة ووعورة مسلك بحثياً وحتى إحراجاً لمتقصّي الحقائق انطلاقاً من انتمائه القومي، أو الديني المختبَر ايديولوجياً، أوأفكاره التي تقوده في محيط الثقافة المشهود له بالكثير من اللاءات والممانعات ذات الصلة بالشأن القومي وحقوق الشعوب وكيفية توزعها وامتدادها في المنطقة.

بعثرة الكرد في المرحلة المذكورة عبر تضئيلهم أو أسلمتهم فقط أو صهرهم مع سواهم، ليس حباً في الدين الذي يوحّد ولا يفرق، خلاف ماتقوله وقائع التاريخ حقيقةً، وإنما في الحقيقة الأخرى غير المعلنة،

وعدم القدرة على نسيان أو تجاهل ما كانوا عليه، وأخيراً تقزيم دورهم وتخوينهم وقتذاك، كإجراء مقاوم وردعي(يمكن الرجوع هنا إلى كتاب عبدالخالق سرسام: صلاح الدين الأيوبي من جديد، فثمة الكثير مما يمكن اعتباره جديداً تاريخياً فيه)، والتفاف على الحقيقة نفسها، كما هو وضع الكرد حديثاً، وعند الإشارة إلى الآثارالدالة عليهم، كما في حال القلعة التي تمعنت ُفي وضعها وهي تنفتح على الجهات كافة، أعني أنها تشهد على خطورة الجهات عليها كاسم هذه المرة.

القلاع نصوص متفاوتة في قراءاتها وبالنسبة للذين يتداولونها، حيث يمكن التمييز بين قارىء للتسلية، وقارىء يختزل ما يقرأه، وقارىء ثالث شبه نادر، يسعى إلى تناول النص، أي نص، من جميع وجوهه، دون الإغلاق عليه، أعني أي قلعة في مختلف الجوانب المتعلقة بها.

هنا أعتقد أن القلعة التي وقفت إزاءها، وعبراسمهالما تزل بانتظار القارىء الثالث، الذي لم يتشكل واقعاً، ذاك القارىء الذي يخلص للجغرافيا قبل التاريخ، طالما الأخير في أفضل حالاته يُغمط الأولى الكثيرمن حقها، وهونفسه(أي التاريخ المتداول) يقول هذا.

19- منتجع الصوت الطليق

إن التوغل في الكائن بفضل الصوت لا يناقض متطلبات العالم. فالصوت هو الذي يسمح بتلبيتها بطريقة مناسبة. باتصالنا مع الكائن الذي في داخلنا، يصبح في إمكاننا إدراك العالم في جوهره .

وبفضل الصوت أيضاً، نسلّم بالظهور الفردي للحياة فوق- الطبيعة الموجودة في الجسد المادي .

" ساميا ساندري"

يبدوأن الترويح عن النفس، من خلال إقامة حفلة معينة، يختلط فيها الطرب بالغناء بالموسيقى بالرقص بالنكتة أحياناً، عقب القيام بأعمال معينة : جسدية أو ذهنية أو هما معاً، يشكل قاعدة عامة في حالات كثيرة، لكأن الأمثلة المذكورة تعرف قدرات وحاجات الجسد، دون التفكيرإلا ما ندر، في الجانب الآخر من الموضوع، وهوأن الترويح عن النفس ليس بالضرورة وفق ما هو متبَّع عامة، لكأن حالة الجدّية المستمرة غير ممكنة، إذ لا بد من وقت، يحرَّر فيه الجسد من قواعده أو ضوابطه، ليُشهَد له بالتنوع، وتجديد الطاقة بصورة أفضل.

هكذا يُختَتم برنامجنا/ ملتقانا، مساء الأحد19/9/2004، بحفلة عشاء وطرب، في ذات القاعة التي أمضينا جلسات ثلاثاً، ونحن نشدد على ما هو واقع، وعلى ما ينبغي أن يكون، وهاهو ملتقى في مشهد آخر!

ليس بوسع المرء الدوام في لون محدَّد، وبالوتيرة نفسها، الطرب كما يبدو خاصة جسدية مطلوبة تاريخياً.

إنها لمفارقة مذهلة، عندما يعلم المرء مدى المسافة الشاسعة بين ماكان عليه ما يسمى بـ(الطرب) اليوم، وهو يرتبط بالغناء والرقص وسماع الموسيقى، حيث الحالات هذه كانت تُدخِل المرء في جوٍّ من الطقوسية أو الشعائرية غاية في الجدية، خلاف الأيام الأخرى، كونه يمارس اتصالاً بالأسلاف، وبالطبيعة، وبالقوى الخفية، وهو بالمقابل كان يركّزكامل جهده ليكون الفرد المرغوب فيه، وما هو عليه طرب اليوم، بوصفه طرباً، بوصفه النقيض التام لما كان، حيث ينسلخ المرء عماهوجدي فيه، ليعيش بعضاً من خصوصيته أحياناً، وهو يقوم بحركات تكون محسوبة عليه في الحالات الاعتيادية، والأكثر لفتاً للنظر، هو في اتخاذ جدية في المناسبة المذكورة، فثمة مناخ اجتماعي يلتزم به المرء، بوصفه بعداً من أبعاد ثقافة المجتمع الجسدية العامة.

كان ذلك مساء، الساعة الثامنة، حيث رُتّبت الطاولات والكراسي، وبأحجام مختلفة، تتناسب والعدد المفترض للمعزومين، وحتى مقامات البعض منهم(حجز طاولات معينة، لها قيمة اعتبارية وموقعية مسبقاً)، وكانت المنصة الخشبية تواجه القاعة من الجهة الغربية، حيث وضِعت مجموعة من الآلات الموسيقية:

الإيقاعية والنفخية والوترية، وبدا أعضاء الفرقة الموسيقية بزيهم الموحد، من باب التمايز، حيث كان اختيارنا لطاولة قريبة من المنصة: ابراهيم اليوسف ومشعل التمو ونضال درويش وعارف جابووفرهاد أحمد، وحواس محمود، وأنا، حسب تذكري، وهنا يكون الاختيارمؤثراً في تحديد طبيعة العلاقة وظرفيتها، ومستجداتها، ومقدار التواصل مع الأنشطة المقدمة، ومناخات الحفل!

ثمة ما يمكن التوقف عنده، ولولبعض الوقت، وهوأن أجواء الحفلات، في صورتها العامة، تمنح المزيد من الفرص لذوي الفضول المعرفي، من اقتناص تلك اللحظات الفالتة(إن جاز التعبير) لمتابعة مجمل السلوكات العامة، من خلال تتبُّع طريقة ترتيب الطاولات، الموائد، الكراسي، اتجاهاتها، والذين يتحلقون حولها، ومالإذا كان هناك علاقات معينة سابقة تربطهم مع بعضهم بعضاً، وكيفية دردشتهم، أو تحاورهم مع بعضهم بعضاً، وكيفية تجاذبهم لأطراف الحديث، وكيفية عرض ملامحهم أو سيماء وجوههم للتغير، وأنظارهم هنا وهناك .. الخ.

خصوصاً وأن بعض العفوية الموجودة، أو التي تبصر طريقها إلى الخارج، تشكل مجالاً لايثمَّن من جهة الدلالة، لمعرفة ماعليه صاحبها، وهو يندمج مع حالة معينة، أوينجرف مع هوى معين مؤثر فيه، وفي الوقت نفسه، يمكن تتبع ذلك الطابع اللافت والتمثيلي أحياناً لمن يريد لفت النظر إليه، باعتباره رصيناًوجدياً حتى (هنا)!

وبشكل عام، فإن ما يثيرني، مثلما يثير غيري وبشكل مختلف طبعاً، هوإلى أي مدى يمكن لأحدنا أن يعيش ما يريد أن يعيشه باعتباره حقيقته من الداخل، متجاوباً مع ذاته، دون أي اعتبارلـ(مراقبة) خارجية.

نحن إذاً إزاء أكثر من شكل أو صورة للحوار أو التحاورالمتداخل، تكفل به العين وأحياناً الأذن في المتابعة.

إنها تناغمات النفوس والأجساد ولو إلى حين، والحفل نفسه يتمحور حول مفهوم حواري، وهو أن هناك من يمارس الطرب، من يعيشه، من يتابعه، من يغذيه، وهكذا بالنسبة للحاضرين أوالمتواجدين، فهم في الحقيقة يتحاورون وإن كانوا بعيدين عن بعضهم بعضاً، وذلك من خلال المتابعة، أو التواجد الكلي.

كُرم العديد من المثقفين العرب، ممن ناصرواالقضية الكردية، أو برزوا أصواتاً عالياً تندّد بالاستبداد بشكل عام، والعربي ضمناً بشكل خاص، وتدافع عن قضايا الديمقراطية، وحق الشعوب في الحياة الكريمة، والكرد يشكلون حالة مسمَّاة هنا، فكان هناك : الدكتورعبدالحسين شعبان، والدكتورمنذر الفضل، وعدنان حسين، والدكتورة بلقيس محمد، ومحمد غانم ، وحسيبة عبدالرحمن، وأصلان عبدالكريم، وجهاد نصرة، وأكرم البني، ونضال درويش... وهي خطوة يمكن لها أن تتفعل مستقبلاً من خلال متابعة هاتيك الأصوات وسواها، ومدى دوامها. ويمكن تخصيص جائزة دورية : سنوية أو كل فترة زمنية تُمنح لأي كان لقاء جهوده في العمل التأليفي، من الجهتين، أي لا يقتصر التكريم على طرف دون آخر، ذلك العمل المتعلق بنضالات الشعوب، وكيفية التعايش بصورة أفضل، وتعميق الصلات بدراسات تتناولها في مختلف جوانبها.

كان ذلك تأكيداً على الصوت والصوت الآخر، صوت الاختلاف، والذي يوسع حدود شخصية الانسان.

والصوت يتنوع، وبوسعه تعريف الانسان بنفسه، بحيوية الروح فيه، في أكثر من منحى، وما أعقب ذلك أكّده.

ثمة تأثير جلي للصوت، وهو يستقطب الآخرين، باعتباره يشكل لسان حال الصائت، إنه القوة الدافعة والمخاطبة للذين يصغون أو يقعون في محيطه،وعبر تفاوتات في درجة الإصغاء، أو مدى القابلية للصوت. ولكن ما يستوجب ذكره هو أن أكثرالناس اعتماداً على هذه العلاقة الصوتية، عندما تكون الشفاهة فاعلة، وأرضية التواصل الاجتماعية، يكونون الأكثر معايشة لسرّانية الصوت، وتأثراً برنينه وسحره الملموس من الداخل، ويبرز الكرد في هذا المنحى، ليس لأنهم، كغيرهم ظاهرة صوتية، كما قال أحدهم عن العرب، وإنما لأنهم لازالوا يراهنون على الصوت كمصير، كقوة تعبيروتحديد علاقة مع الآخرين، وحتى إثبات ذات، وتحدٍّ فعلي .

لهذا يطغى الصوت على ماعداه، ويُحَب سماع المرء مباشرة، أكثر من كونه كاتباً أو مقروءاً بوسيلة

مادية، ولهذا تتدخل علاقات كثيرة في الفرز بين الأصوات ومراتبيتها، وكيفية التفاعل معها، ويبقى الأكثر حقانية بالتأكيد عليه، هو سيادة عنصر الصوت الذي يمكنه استمالة أي كان دون التعريف بـه، أو فيمن يكون غالباً.

وهانحن(ثلتنا)ننفتح بأجسادنا ونفوسنا على تلك الأصوات التى تترى وتطرى وتغري بالتحليق معها أو فيها، طي التنوع الإيقاعي والمقاماتي اللافت، إلى درجة أن البعد الصوتي الذي تجاوز حدود أو فضاء القاعة كان شديد العمق، أو عميق التأثير، ومن خلال حالة المزج بين العربي والكردي.

أشير هنا إلى الثلاثي الضوئي النافذ: دلنياد، هوزان، آلان عمر، فهؤلاء اللواتي أسمعننا أصواتهن، حلّقن بنا في أكثر من اتجاه، وأشدد على دلنياد وهوزان بصورة رئيسة. فالبراعة الفنية لصوت كل منهما أثارت فينا فضولاً معرفياً لنتحدث ولو باختصار، ما يخص فتنة الصوت، وانبهار الجسد بالصوت الأنثوي. وأنا بدوري استرجعت مجمل ما قيل(برقياً) ماقيل في الصوت، ما مارسه الصوت تاريخياً من غواية وإغراء ملحوظين، ما جعل المصغي رهين متاهته، مستعداً لجنوح وقتي فجاءة، كرمى تموجات الصوت، استحضرت في ذهني السبب القوي الذي أحال صوت المرأة إلى عورة، منعها من رفع صوتها، خوف الرجل على أذنه، وبالتالي خوفه من الضلالة لضعفه، دون أن أخفي تقديري لصوت سعيد كاباري ببصيرته وهو يبث لواعجه بصوته المرنان في القاعة.

لاأخفي حفاوتي بالصوت، شعوري بخفة الكائن في داخلي، حيث الصوت يندّي القاعة، وفي الوقت نفسه، يسعى إلى تكوين اتحاد جسدياتي، بحيث لايعود هناك جسد وجسد، إنما أجساد في جسد واحد.

تخيلت ما كان عليه، وماهم عليه الذين يمنحون الصوت في مناسبات شعائرية قيمة استثنائية، يدخلون معاً في رحابة الصوت التي توسع المكان، لا بل وتحرر الجسد كثيراً من ماديته، ليُفصح كثيراً عما هو روحي.

كان ثمة رقص، تصفيق، غناء وموسيقى أكثر، ولم أخف مأأنا عليه من روعة الحواردون استئذان في الرقص، وأنا أستعيد الآخرين من الذين يصادقون الصوت عملياً، بالحركة الجسدية، للتوقيع على أكثر من لحظة زمنية فاعلة، وليس هناك ما هو فاعل أكثر مما نحن فيه، وأنا أعيش الشعور المضاعف بالصوت الكردي، الذي وإن لم يُفهم بمعناه، فقد كان يؤكد سلطته المرغوبة، وتلك حالة المعايشة الأكثر تاريخية، بالقرب من أوتيل خان زاده، وفي جغرافية تؤكد فعالية صوتها الكردي، كما هو الحال في أمكنة أخرى، ومع أصوات أخرى.

20- الصباح الثقيل الوطء

فلتكن إلى اسماعيل الزاير رغم ماحدث!

لا علاقة لكل ما أكتبه بالصباح، وما إذا كان ثقيلاً بالفعل أم لا، فهو الصباح الخاص، ولا علاقة لي بغيري، عندما أتحدث عنه، بمثل هذه الطريقة النفسية المحض، إذ لكل منا صباحه هنا، رغم أن الصباح غير موجود إلا كحقيقة كوكبية أرضية، وفي الحيّز الذي أتحدث عنه كردستانياً. إنه الصباح الخاص باليوم الأخير، رغم أن الزمن الذي استغرقه بقاؤه كان عبارة عن أربع ليال فقط، وأقل من خمسة نهارات. لقد بلغنا الأوتيل الذي ألفناه مساء الخميس المذكور، وها نحن (مجموعتنا غالباً) نهيء أنفسنا لمغادرته صباح الاثنين. ماالذي جرى؟

يظل حديثي عن الأمكنة أكثر انشغالاً بالمعاني والدلالات وقابلية للمساءلة والتشخيص والتحليل والتركيب، وكل الصور التي يمكن لأي منا معرفته فيه أو عنه، وإثارة من جهة الممكن قوله، من الأشخاص

الذين التقيت بهم، حيث تعرفت إليهم، أو تعرفوا إلي، وتبادلنا العناوين ، من الأشخاص الذين كان يمكن، أو كان من المفترض أن ألتقي بهم، أن نتحادث ليس أكثر مما يجب، وإنما نتعارف على الأقل، لهم حضورهم النسبي، كان من الصعوبة بمكان السؤال عنهم، وقد كان في مكنتهم ذلك، إذ أن مسافة مئات الكيلومترات التي قطعناها، والأكثر من ذلك، نوعية الحدود المرسومة التي قطعناها، وتلك الرغبات التي كانت معنا، وتضاعفت كلما دنونا أكثر، وبدت مقلقة لنا، كلماانصرم يوم وآخر،، ثم استحالت في صيغة أسئلة واستفسارات عن حقيقة الرغبات التي عشناها، تتداخل مع المكان(وهو ليس أي مكان، لمن يعلم) ليس المكان الافتراضي، ولا الرغبات الافتراضية، ليكون التساؤل معرضاً لتساؤل آخر نقيضه، فهي الرغبات المرتبطة بأشخاص لم نتمكن من رؤيتهم، لم نرهم، سوى أننا سمعنا بهم. هنا هالنا الفرق الكبير والمفارقة اللافتة، بين أؤلئك الأشخاص الذين كان يُحتفى بهم لمجرد وصولهم إلى(حمانا) وقبل ذاك أحياناً إذ كا يُعلم عنهم، بوساطة أشخاص معنيين بهذه الحفاوات المضاعفة، إلى درجة أن السؤال عن شخص معني، وما يكونه على أرض الواقع، وما يمثله فيفي موقعه، كان متجاوزاً لحدود مفهومه، أكثر من كونه سؤالاً، بوصفه يتجاوز شخصين كعلاقة، بوصفه يتوقف عند علاقات قوى، ويتجاوزها كذلك أحياناً، لم نستطع رؤية مأأردنا الوصول إليه، لتحقيق التوازن الداخلي، أعني ما يقوم به أي كان، في الحالة المماثلة،إنه حديث عن الرغبات المتواضعة، إلى درجة اعتبارها في المجمل ممكنات وقائع متواضعة.

إنها في حقيقتها تمثل تصورات، ولعلها بقيت رغبات، طالما أنها لم ترس على أرض الواقع، وربما كان في ذكرها بعض مجازفة، يعنى بهاأشخاص عديدون، لم نتمكن من رؤيتهم، أو لم تحن لهم الفرصة لرؤيتنا أو لم يرونا وكفى، وتلك اعتبارات أخرى، تعيدنا إلى مشكلة أو إشكالية الرغبات من جديد، وطريقة التفكير فيها.

في كل حال، يبرز المكان أكثر من البديل الشخصي بالمقابل، وهاهو يتنفس ملء الجهات الأربع، وأستشعره حقيقة ناطقة، أو منطوقة، ونحن في أكثر من ملتقى، لابل في الملتقى قبل أن نلتقي، سوى أنه صار حقيقة أكثر، وهأنذا أعيش ما أمكنني التنفس الفكري، النفسي، الشعوري، التاريخي، الرمزي، وأنا أتمعن فيما حولي ممدّاً ببصري واسعاً وإلى أبعد مدىً مجدٍ له، ليس لحالة شعرية، أوفانتازية تلبَّستني ، بقدر ما أن الصباح الأخير، جاء حصيلة (منطقية!) للصباحات السابقة، أو بصورة أدق جاء استرسالاً، أو سباق الصباحات المتتابع، في تواصل الليل والنهار، وحيث اللحظة التي تُعاش في فورة الاحساس المضاعف بها، بينما الزمن يسابق مفهومه المجرد، وهو يسبق ما هو اعتيادي فيه، تكون اللحظة الفلسفية بامتياز، أجدني المجني على الزمن وعلى المكان، طالما أنهما يتجليان منسابين كما الماء من بين الأصابع، والهواء خلل الشعر، وداخل النسيج الجسدي يتنامى الشعوربقهر يمكن وصفه، عبر توتركمَّاش، يُحرك التفكير نفسه بين الزمن المتدفق داخله، وذاك الذي لا يعبأ به، ولهذا كان الصباح الثقيل الوطء، خلاف صباحات كثيرة، في أمكنة أخرى، كونه- ودفعة واحدة- يستحضر مجمل الوجوه المرئية فعلاً، وتلك التي بقيت قيد المساءلة، ومجمل الأمكنة التي رُغِب في مشاهدتها، إلا أن ظروفاً حالت دون ذلك. إن وطأة ثقل الصباح لم تعد زمكانية، بقدر ما حُمِلت بزمكاني الخاص بي كغيري!

عشت كردستاناً بكثافة، كردستاني التي رافقتني، وتلك التي ساءلتني وجاوبتني وحاورتني، وتلك التي استحالت وجوهاً وأصواتاً ولغات وفي هيئة ذكريات متنوعة الأبعاد، وروائح تجاذبتني لصور شتى وتعنونت في سياقات حِكَمية مختلفة بدورها، وتلك التي بدت حروفاً انتظرت نقاطها، وفراغات لم تمتلىء، من خلال رغبات، أمضي عليها ذاتياً، وتلك التي تعددت قامات ومقامات ووقائع وشهادات، تأرشفت في الذاكرة، لتمارس فعلها التخميري، وحلت في مختبر الوعي النفسي، غير موقتة، خاضعة لزمنها الخاص، تترقب لحظة تجليها وقد اكتسبت أسماءها،

كردستاني التي امتدت أكثر من كونها تاريخاً وجغرافيا، أكثر من كونها حرباً وسلماً، أكثر من كونها الاسم الذي يُراهَن عليها، أكثر من كونها حدوداً ممزقة، محرتقة، معلقة، مؤرقة هنا وهناك، إنها الزمن الذي يتداعى متجاوباً مع خاصية التفكيرالمركز(أستعيد هنا لبعض الوقت زارادشت، كما استنطقه وقد ألمَنُهُ نيتشه)، دون أن أتمثله قطعياً، فلي

زمني الخاص بي، ومكاني المرسوم من حولي، وطي هذا الصباح الذي عنونته ثقيل الوطء!

ماكنت أتمنى، أن ترتقي الشمس الصاعدة من وراء جبل بيرمام، أن تسبقها خصلاتها النارية المتدافعة أو شعرها المنفوش المشدود والمتنابض عالياً، وهي تتقدمها، مفترشة الطريقة، محيلة السماء من لونها المائل إلى السواد أو الأزرق الداكن، إلى الممسوح بالأحمر الفاتح، والأزرق الأكثر نزوعاً إلى الابتسام، وهو بدوره داخل في حوارمواجهة بصرية مع المؤثرات الشمسية!

ما كنت أتمنى أن يستحيل الصباح إعلاناً لنهارجديد، وهوينزع عنه أرديته المتعددة الألوان، المذكورة آنفاً، وهو الذي يتنفس بداية، برودة تدفع بمسامات الجسم إلى الانسداد التدريجي، وإنعاش الداخل بالمقابل، لكنه لايبالي بما أفكر فيه، مثلما أنه لا يبالي بأي كان، بوصفه المخلص الأبدي لقانون يتجاوزه منذ الأزل.

بدا الجنود الذين يحرسون المكان، استبرق الأرض الفعلي، طالما هذه مهدَّدة، وتحتاجهم، كان هناك الذين يتحركون في النطاق المحدد لحراستهم، آخرون كانوا يصعدون هضبة الأوتيل، سواهم كانوا ينحدرون، وثمة آخرون مأخوذون بسلطان النوم، وأنا أرى البعض منهم، فهم تحت مرمى نظري مباشرة، يغيّرون وضعياتهم أحياناً، يمددون أرجلهم، أويرسمون زاوية حادة بركابهم، أويتخذون الوضعية الجنبية في الاضطجاع، لكأني بهم يعيشون أحلاماً خاصة بهم، أو ربما كان البعض منهم نياماً، مجافيهم النوم، أو مدانيهم قلق معين، أو يشكون وجعاً ما، ومن حولهم تبدو القمم المشذبة والهابطة للتلال المجاورة متناظرة، مأخوذة بسكون الطبيعة من حولها، وعالياً عالياً تمتد السماء البحر المقلوب، وقد اتخذت اللون اللازوردي، غير مسكونة إلا باللامنظورداخلها.

تقدم بي الوقت كثيراً، ثمة ما يجب القيام به، أن أحزم أغراضي بعد ترتيبها، ثم أهيء نفسي للنزول إلى المطعم، حيث استشعرت فقدان شهية تبعاً للمذكور من الأسباب، لكن كان لا بد من تناول الفطور، فالطريق طويل طويل.

بدا كل شيء في تسارع محسوس، حيث تمازج المطعم بداخله وخارجه ووجوه مرتاديه والذين تخيلتهم في دوامة واحدة صاعدة إلى أعلى، وضاغطة إلى أسفل، خلاف المعاش واقعاً، حتى الحالة النفسية تغدو منقسمة على نفسها. فمن جهة يشعر المرء أنه أنجز عملاً ما بغض النظر عن تقييمه، ومن ناحية ثانية ثمة تفكير يشد إلى النقطة التي انطلقنا منها، إلى وجوه من فارقناهم حسياً فقط: الأهل والأصحاب والخلان، ما يمكن أن يكون عليه الحديث لاحقاً. ثمة اندفاع لأكثرمن سبب، يتقاسم المرء وقواه في الحالة السالفة، وخصوصاً في مكان كالذي يممنا شطره.

صور عديدة اُلتقطت، رغبة في الاحتفاظ بالمكان الذي ألِفَنا وألفناه أياماً معدودات، ووجوه من ألفناها داخله، انضافت وجوه إلى وجوه، بدت كردستان في مجموعها وجوهاً تترى، تتقاسم المكان الذي تباعد داخل حدوده، ليستحيل دون حدود، حتى الأمكنة ذاتها تراءت صوراً ملتقطة، لتشكل أوركسترا ما ألفناه ورغبنا في بقائه أفضل.

تلك هي بعض صور من استقبلونا على الحدود، والذين رافقونا، وأولئك الذين رافقونا لحظة نزولنا أمام مدخل الأوتيل، وفي الصدارة يأتي الصديق العزيزالدكتور محمد عزيز ظاظا، ولم يفارقنا ما وسعه الجهد، والدكتور عبدي حاجي الذي تمنيناه أن يكون معنا إلى اليوم الأخير، شكراً للاستاذ صلاح وللصورة الملتقطة معه،وللصور الأخرى مع جورج وجهاد ونضال وحافظ وبلقيس وحسن سليفاني وعبدالفتاح وعارف وفرهاد وبيررستم وفيردا ومحمد...الخ، والعذر لكل الذين التقيتهم ولم أورد أسماءهم كما يجب هنا.

والأوتيل باسمه وفسحته وموقعه بدا على غير عادته، عبر التداخل المتواصل بين الأشخاص الذين التقيناهم والذين لمحناهم والذين اختفوا كومضة، كل هؤلاء جسَّدوا ما يمكن أن يكون الواقع الذي لامفر منه في تنوعه.

أشيرإلى الاستاذ اسماعيل الزايرالمختلف عن الكثيرين ممن التقيتهم، وهو يتقدم مني في بهو الأوتيل، مفاجئاً إياي، وهو يُلفِت أنظار المحيطين بنا، ويضع يده في يدي مودّعاً: انتبهوا إليه، ثم وهو يخاطبني: دع الآخرين يقولون عنك بأنك كاتب، ولست أنت، ثم مضى سريعاً دون أن يلتفت منتظراً ردي على الأقل، رغم

أنني أسمعتُه صوتي وأنا أتابعه: ولكنني أحتج على هذه الطريقة في التعامل. توقفت لبعض الوقت أفكر فيما قاله، حيث لم ألتق به، يالها من وصائية فظة! تذكرت كلمتي المرتجلة، تلك التي أثارته سلباً وانتظرهذه اللحظة الفالتة، وبنوع من الكيدية الداخلية، ودون أن أعرفه باسمه إلا عن طريق اليوسف والذي ذكرني به، وهو ذاته لم يخف استغرابه. ربما أفصح عن حواره بالطريقة تلك، عن مسلكه في التواصل، ورغم ذلك أحييه عبر ذاكرتي وتذكري به.

بدا المكان ثمئذ مكتظّاً بالوجوه ونحن خارج الأوتيل، ثم تقلص المكان ونحن نصعد إلى داخل الحافلة، وأعيننا إلى خارجها، ومن ثم انحدرت بنا الحافلة، ليبقى أوتيل خان زاده في عليائه، كما لو أنه الذراع الصاعدة إلى السماء، ملوّحة لنا، حتى ونحن ننعطف يميناً، وقد ا احتوته الشمس بأشعتها التي تكلّلت توهجاً.

21- قلبي على الطريق

الفسحة المعرفية الواقعة بين مفهومي الذهاب إلى نقطة محددة، والإياب منها، عبر الطريق نفسه ليست واحدة.

الطريق نفسه هنا يكون مختلفاً تمام الاختلاف، عبر عملية الانتقال من(مما تجهل كثيراً) إلى (مما تعرف ولو قليلاً). ثمة إمكانية للحديث عن عقد من الإلفة المتتابعة، عن التناغم الذي لا يسمى بسهولة من الداخل، أو بالنظر، أو وفق شعورلايترجم إلى كلمات محددة،أو تداعيات تصورات وانطباعات وأفكار، أوأسئلة ظرفية، أو نسج خواطر ،أو لها مناسبيتها أو.. أو.. !

أضف إلى ذلك، تنوع الفسحات المعرفية، وفقاً لتنوع الطرق المسلوكة وعلاقة كل طريق بمحيطه وخاصية المحيط هذا، بإمداداته من الصور والأطياف السابقة واللاحقة، بالزمان الذي يؤرّخ لكل طريق.

في رجوعنا، أعني في مضيّنا عبر الطريق الذي سلكناه، كانت الحواس مختلفة، كان ثمة حالة أنسنة، لم يكن بالإمكان التغاضي عن التاريخ الذي حل من عليائه مجرداً، في فسحته المحدودة، داخل الحيّز المعتبر أياماً عدة، والذي تكفل بسرد كل ما تقدم، رغم أن هناك الكثير مما لم يُقل، ليس من باب التحفظ إطلاقاً، وإنما لأن نقطة تجاوزناها التقطت كما لو أنها حقيقة فنية، وتأرشفت، لتستحيل خميرة موضوع لاحق، أو مؤثرة في موضوع ما، وكل موقع (دون تحديد) برزبكل مفاصله، واستحال بدوره مادة معرفية، وهكذا بالنسبة للذين لمحناهم من بعيد، وهم في هيئات مختلفة، وفي أمكنة مختلفة، والذين قاربنا وجوههم، والذين تعاشرنا وإياهم لبعض الوقت عبر وجوههم الداخلية، أو هم عاشرونا وعاشرناهم رغم قصر الزمن هنافي حيوزات محددة، وكذلك المدن والبلدات والقرى والمنعطفات والجبال وركائزها والأنهار والأشجارالمقصوفة والنابتة من جديد والسماوات التي تهادت من فوق رؤوسنا وتخيلات الأمكنة.. الخ، كل ذلك كان مسرودالطريق الذي تابعناه كفيلاً بضمه إليه، ليكون هو بالتالي ذلك الشريط التسجيلي المنساب وقائع وإمارات معرفة، حيث الطريق لم يتوقف، حتى في العودة، بقدر ما امتد ويمتد صعداً أونزلاً أوانعطافاً، أو توسعاً أو تضيقاً، كما هي الأفكار، كما هي الأحلام، كما هي المخاوف، كما هي الهواجس، كما هي الأوطان في الجغرافيا البشرية التي تفارق مادتها العيانية وتتلبس ماهو طي الذات البشرية في تنوع انتماءاتها.

صحيح أننا رجعنا، كما هوالتوصيف، وصحيح أنناتركنا خلفنا أوتيل خان زاده الذي استضافناالذي انفتح لنا بوساعته، أي انفتح لنا مرحّباً أياماً/ أفكاراً/ أحلاماً عدة، نعم تركناه وراءنا تماماً، وكل ماجاء في إثره، إلا أن الصحيح أكثر هوأن الطريق انفتح أمامنا بدوره بصورة مغايرة، والصورة الأولى المأخوذة عنه، داخَلها يقين ما أكثر في المطابقة أو المفارقة، هو يقين ما أردناه وما ننشده لاحقاً، والخاص بما يتوزع على جانبيه، عليه وهو يصل مابين نقطة وأخرى، أي يمارس علامات وصل، وهنا تكمن إحدى كبريات فضائله، في أنه أتاح لنا كعادته، في أن نرى ما كان بعيداً عنا، وغريباً علينا، أن نحسن التعبير أكثر، ونحن نمارس وصفاً أو كتابة عن مشاهداتنا، وننتقل من موضوع لآخر من خلاله كردستانياً أوفي إهاب المحظور هنا وهناك رغم

بلاغة الكشف.

الوجوه التي تناثرت على الطريق بداية ونهاية، وبصورة صحيحة ومثلى: ارتحال وارتحال بين بداية وبداية، ومواقع الوجوه تلك، تراءت حبات المسبحة(مسبحة التاريخ الخاص هنا) محمولة في عقد، ليس هو العقد الذي يُمضَى عليه إثنينياً، ليوضع جانباً، وإنما العقد الذي لا يتوقف عن النمو، عن التغير، داخل الذاكرة، وهي تغذي الطريق وما يمكن أن يكون عليه، ما يحدّد مصيره، ما يسميه الطريق الذي يربط إليه كل ما هو حوله، كما هي الكتابة هنا، وهي مأخوذة بعلامات ترقيمها، ومستبطنات الأسئلة، وخوف الإجابات مما تناهت إليه، وهي تشغلنا بما يشغلها، على أكثر من صعيد، لأن ما يشغلنا، لا ينفصل عن هذا الطريق الذي لايتحدد تاريخه ببدء الشروع بالتخطيط له أو تنفيذه أو تحديد اتجاهه ومساره وصعوباته والتعليمات الخاصة به، بقدر ما يتعين خارجاً، إنه القائم والمقيم تاريخياً، بكل منعطفاته وانكساراته ونوازله التي رصدت له، أو الحافة به.

هو الطريق الذي سلكناه للمرة الثانية، ولكننا استلهمنا منه، أعني نحن الذين يهمنا أمره، ما يبقيه الطريق الذي يمتد، كما هو أي طريق، في أي مكان آخر، مأخوذاً بعلامات سيره، برسومه وحدوده والذين يحرسونه جهراً وإشاراته التي تنوّره وحقوقه المحفوظة تلك التي تتعلق باسمه وجهته وما يتفرع عنه وتعيين هاتيك الجهات واللغة التي تميزه أو تعرّف به ، وفي الحالة هذه لا يعود المجهول بما كان، إنما المعلوم بما عُرف عنه، ونحن في كل مسافة نقطعها منه، بتنا ندرك أكثر ما بلغناه وما علينا قطعه لاحقاً، وما يمكن أن يحصل، معايشين إياه بمشاعرنا الخاصة وأفكارنا الخاصة وتساؤلاتنا الخاصة وتداعياتنا الخاصة ، حيث الذين يتقدموننا يمارسون تأثيراً لايُدحَض في المشاعر والتصورات اللخظية أوالخاصة، ويتداخل الطريق مع مدى تقدمهم وطريقة انطلاقتهم.

ثمة خوف على الطريق، مثلما هو منه، مثلما كان التاريخ الذي عُرف به، مثلما الجغرافيا التي تسمي ذلك! إنه الخوف الذي لا ينفصل عنا، نحن الذين قادتنا فكرة عبره، مثلما اكتسبت اسمها الخاص بها لحظة الرجوع، ونحن نسلكه، لا ينفصل عن الذين عبَّدوه ويحرسونه الآن، ويسعون جاهداً إلى تدوينه تاريخياً بلغته التي هو أهل لها.

إن مشاهد الدماروالرعب التي أرتنا آثارها، والتي أعادتنا إلى الماضي القريب جداً، وأشعلت فينا نارالتاريخ في نزاعاته وصراعاته والذين حاولوا الاستفراد به، وزجوا بكل قواهم، ومن ساندوهم حتى الآن لجعل الطريق الذي أٌلِفناه خارج قواعده ولغته والذين سكنوا المكان الذي يمتد من كل جهاته، أفضت بنا إلى الكثيرمما يهدد الطريق نفسه، الطريق الذي أسميه كردياً، كما هو الطريق العربي ،كما هو الطريق التركي، كما هو الفارسي وليس الإيراني تعدياً على أكثر من جنسية، الطريق الذي لا أسميه كردياً، لأنه ليس منتظراً إياي فقط ليحمل اسمه أو يلقَّن به، أو ليُعرف به، لأنه يسبقني بآلاف السنين، مثلما سيمتد إلى آلافها، ذاك هو الطريق الذي يُخاف عليه أكثر مما يخاف منه، كما جرت العادة التاريخية غالباً، وليس الجغرافية إلا في فترات متقطعة لم يبرَّأ التاريخ منها، فالذين شغلوه واحتكروه طويلاً طويلاً بوجوههم التي داهمته، وهددت من كانوا أهليه، ولغاتهم المختلفة، وصورتنكيلهم المختلفة، أدركوا ويدركون جيداً مدى خطورة البقاء في هذا الطريق بوصفه الجاري تحويله خارج مساره.

إن الذين أرونا ماكان يحمّل الطريق ما يجعله طريق الموت والدمار والقتل والرعب، خلافاً لكل المبادىء المثلى المقدَّمة والمكررة والمجترَّة، وما يبقيه مهدَّداً إلى إشعارأبعد من (آخَر)، وهم يدققون في فراسخه المقطوعة، ويبثون الجهات الموزعة أنظارهم مستطلعة ما فيه، حرصاً على الطريق الذي كنا شهوداً عليه، وربما نكون ضحايا له، شهداءه، وهذا مألوف في سجله المنزوع البدايات والنهايات غير المدقَّق فيها، لأننا عنيناه وعنينا به، رغم التفاوت بين عناية وأخرى من جهة النسب الجغرافي، لكن وجودنا الجميل التعددي اللغات، أضفى عليه بعداً مجازياً، هو حقيقته التي يُعرف بها، إذ لم يمتد خارج هذا/ ذاك الطباق اللغوي الذي يحيل كل عنصر منه إلى الآخرليغدو أكثرسمواً في الدلالة، رغم كل التشويش عليه وباسمه. إنه الطريق الكردستاني بجلاء.

لاأتحدث عن جملة الأحاديث التي تجاذبناها ونحن في عهدة الطريق الموسوم، الأحاديث التي تخص صور التغيير المقحمة فيه وفي الجوار، في تلك القرى التي يمكن تسميتها اطلاقاً: مستحدثة أو نموذجية، أو ما يسمى، وبتحفظ بالحزام العربي، وبدقة صارخة رغم التحفظ من الطرف الآخر، بسبب المخاوف بـ(المستوطنات) التي سبقت استلام صدام الطاغية الحكم، إلا أنها تسرطنت لاحقاً في عهده الوبائي، وقد آلت إلى ما يشبه السخرية البصرية من كل أشكال القوة المتمترسة والغطرسة التي فشلت في بقاء الطريق عروبي النسب بكل مسمياته.

آلمنا ذلك الحديث الذي لازال الخوف من التسميات الدقيقة طي ذاكرة الرعب التي دشنتها الأنظمة الشمولية في المنطقة، في اللغة المنطوقة والمكتوبة . ترى لكَم يحتاج هذا الطريق زمنياً، لتكون اللغة طليقة بدورها؟

في أكثر من مكان توقفنا، أوشُغِلنالأسباب اتضحت لاحقاً، خصوصاً ونحن على ظهرعبَّارة في نهر دجلة، وقبل وصولنا إلى نقطة ربيعة الحدودية مجدداً بحين من الوقت، كان ذلك حرصاً على سلامتنا، إذ كلما ازددنا اقتراباً زاد احتمال التعرض للخطر، والطريق الذي امتد بائساً أفصح عن المخاوف التي استبدت بدورها.

لا يمكن هنا نسيان الجهد المبذول من قبل أولئك الذين سعواتمام السعي إلى طمأنتنا، وهم يحيطون بنا، وهم ينجزون كل معاملاتنا الحدودية، مازجين بين الكردية الفصيحة والعربية الواضحة دون أي شعوربالتلكؤأو تغُّير النبرة، كما هوالمرغوب فيه، وليس كمااستخلصناه من تغييرمسار الطريق لاحقاً، رغم أنه بقي هوهو، إلا أنه كان يشي بأكثر من خوف من الآتي، ونحن ننظر جنوباً، حيث تناهت إلى مسامعي أصوات الانفجارت ، التي تتم تحت اسم المقاومة، بينما هي تنسف الطريق إلى عهد جديد لايُراد له أن يتم هنا وهناك، ولكنه الطريق الذي ألمحه دون توقف، رغم كل المحاولات في توقيف مساره الكردي المنشأ، مثلماهوعربي الجواروالجيرة.

هنا بوسعي أن أتوقف، وأنا أتابع الطريق من الداخل. قلبي على الطريق !.

- انتهى -

قصيدة دجلة

ملاحظة: حاولت في البداية أن أضع هذه القصيدة، بدل الحلقة السادسة، والمنشورة في 2004/10/14، وقد شكل البيت الشعري الأول، من القصيدة هذه، عنواناً للحلقة تلك، إلا أنني آثرت أن أنشر هذه القصيدة خارج الحلقات المتسلسلة، رغم أنها داخلة في حيّز موضوعاتها، وذلك لاختلاف طريقة التناول في السياق. وللعلم، فإن القصيدة هذه، ربما كانت الأولى التي أكتبها، أو الثانية، تلك التي كتبتهاتحت وطأة حالة نفسية خاصة، في حمَى أحداث القامشلي الآذارية، بعد أكثر من ربع قرن، تركت كتابة الشعر، حيث بدأت بي، ونحن نعبر نهر دجلة في 9/16-،2004 وانتهيت منها حديثاً.على كل حال، هي تجربة خاصة بي أولاً وأخيراً.

ياشراعاً في نهر دجلة بادي	كم وكم كمّاً باغتتك الأعادي
ماالذي ترتاده في مسلك التيه	وئيدَ الخطى كسيراً صادي؟
هائماً في الجهات عبر حدود	نازعتك المسير في كلّ وادي
أيُّ اسمٍ فيك تجدَّد، منساقٌ	مغازٍ جُوبه بالمرصاد
يانقاط التفتيش يارعبَها يا	في صدى هولِ فتنة الإسناد
في لغاتٍ تضافرت وتداعت	نزَفتك التاريخَ دونَ ضماد
أيها النهرُ في مسير طعانِ	تتهادى وأنت قيدُ طراد
أيُّ يمٍّ يممت شطرَه مهلاً	قد أسأت التقديرَ كالمعتاد؟
أي شطٍّ ناشدته، انبرى الشطُّ فخاخاً	إذاً على من تنادي؟
الرصاصُ القانص في حجرة النار	معدٌّ بإمرةٍ من زناد
كلما أمضيت جنوباً بدا هولٌ	وهولٌ وثالثٌ في اضطراد
أي يم رُمتَ لعلَّك تغفو	بعد طولِ العناد والإجهاد؟
أنت رهنُ المكان حيث تدوَّى	يا مكاناً أُثقِلَ بالأصفاد
من جهاتٍ شتَّى ألست ترى	أيَّ سدىً قد سُمتَ به في انفراد؟
لست ملءَ العين أفِق!أنت	مهوى الرعب ملءُ التكوين بالأحقاد
هكذا أقرأ انعطافك في وحدته	أو في مرآةِ رهنِ حداد
من ترى أعطاك الذي يَصطفي	ماءَك ما ماؤك الكتومُ مهادي
أيها النهرُ يا أنا في قيامي	حيث أصلى نارَك أو في رقادي
لاخلافٌ! الحالتان سواءٌ	كلُّ توقيتٍ ناطقٌ باضطهاد
ليس تذكيراً بمآسيك،لا! قد	عجزت عن إحصائِها أعدادي
كلُّ ما في الأمر مرارةُ أمر	حنظلُ الروح في افتئات الفؤاد
ولهذا كان حديثٌ، في حوار	وأنا أستقرأ فيك امتدادي
كلُّ ما فيك في مناقصة الروح	متاحٌ، مسترخصٌ في المزاد
اسمُك النهرُ إنما ليس من نهرِ	يناجيك في أسىً منقاد

أيٌّ نهرالجنان1 أنت؟ وقد	جُرِّدت من كل فائق متهادي
أيها المنهوب سوى من مقام	غيرِ محمود شائكِ الأبعاد
لا ينابيعُك العذاب تواسي	أيكةَ الروح في صقيع سهاد
أو غِوى جنيَات مائك يَرقى	بضفافٍ إلى معالي وداد
كلما لاحت موجةٌ جاذبتها ضفةٌ	وامتدت أيادٍ أيادي
إن أنا سمَّيتك نهراً فكَوني	واجداً فيك قامتي وعمادي
لست أقصاي إنما أنت أدناي ،	ظلالُ الله على أعيادي
لست أعنيك شاعراً وكفى،	إنّي جموع، وداخلي أندادي
ثِق تماماً، إنّي بكاءُ الصخورالجُردِ	إني شهقةٌ أيّ حماد
بي اعتلال التاريخ ، حيث أنا	لستُ أنا حيث كنتُ نهبَ قراد
أنا نهر مبعثرٌ في وجودي،	وعصيٌّ هنا عليَّ اتحادي
لكأني شذوذُ كلّ مقام	كلُّ درب معزَّزٌ بانسداد
دجلةُ الجوعِ النفي أنت ملاذي	ساعةُ الصفر أنتَ أنس المنادي
ثلجُ أحزانك العظام احتواني	يا لهذا الترويع في الإبعاد
إن تباهيتَ باسمك المترامي	كبرياءً فأنت من إعدادي
إن أُسميك النهر فاتحةً أو	مرتجى أو منبسطاً، سجَّادي
فلأني أعنيكَ باسمي وأدري	أيَّ اسم يَرقيك فوحَ رشاد
أنا كلٌّ، تنوعٌ في شبيهي	ومثالٌ حيٌّ بهيٌّ التضاد
ولتراني تعدُّدَاً في وجوهي	غيرَ أنّي في جملتي أكرادي
لي جنوني الخاص ولي فعلُ(كنّ)	النهر في النهر والمدى الميَاد
دجلةٌ في تقلباتي هواياتُ مكان	في مجتبى سندباد
داخلي يحيا شهريارٌ ولكن	في النقيض العذبِ صَدى شهرزاد
سومرٌ تقويمي، وآشورُظلّي ،	بابلٌ سحري، واستوائي مادي2
الندى قرطاسٌ وأخضرُه بوحي	وإيحائي ، والجهات مدادي
كلُّ عام في دفق مائك سفرٌ	وانبعاث ونشوة الاعتداد
ربما أخصبَ الحياة بصوتٍ ،	طيٌّ صوتي تجاذبُ الأضداد
ألفُ مسرود في ندى ياءِ ملقاك ،	وجمٌّ من مبتغىً ورَاد
جلُّ ما أعنيه أُعانيه في تاريخيَ المبتلى	بحمَّى السواد
عجبٌ ماؤك القديرولكن	كلَّ خطوٍ طيش بدون قياد
صخبٌ وقعك المراقبُ بالدقة ،	فزعُ الطغاةِ من مَهباد
كلُّهم راصدوك في كلِّ خطو يا سعاراً	شبَّ على أرصادي
في عصور تسلسلت، مثلُها كانت	ضحاياها الكرد بالمستزاد
ليس من لغز إن أنا بحتُ بالتاريخ	أعلنت ما عليه اعتقادي
إن أنا سمَّيت المسمى أنا المأخوذُ	بالإثم، كَم همو حسَّادي؟
أنا مثل الذين كانوا وعانوا	إنما سَلهُم : أيُّهم في عدادي؟
سمّها ما شئت، مناسبةً،	كي أصطفي اسمي عالياً بنجادي
صرختي كانت في ارتعاد ضلوعي	كم وكم هدَّني كتومُ ارتعادي
أيٌّ مسرود في حديث خرافيٍّ تعالى ،	ياكذبةَ الأجواد
ألفُ بائي في ألفِ بائك ألفٌ ،	استجدَّت فيك كبائرُ عاد

قائدٌ أمة وأمةٌ وهمٍ	باسمه في بدائع الإفساد
قائدٌ عدوىً من غبار،هوامٌ	نافقٌ أو لعلّه من قتاد
جندُه في ساحِه ما ساحُه، يا	ساحَه يا.. قبائلٌ من جراد
هكذااستثناؤهمو، بلدٌ جائحة ٌ،	استحال دون البلاد
كلُّ عصفٍ خصَّ حِماك بتوقيتٍ محلّيٍ	كان عينَ المراد
هكذا قدَّرالبغاة الزناة الصيدُ زيفاً	في مصطلى بغداد
ليس في مائك الصفاءُ المغنّى	كيف أقصوك أخوة ُالأحقاد
أيُّ كبدٍ تفطَّرت وطناً مرّاً	زقوماً قلبي على أكبادي
أي حينٍ من أيّ دهرٍ تبدَّى	ماأسمِّيه وطناً لاصطياد
كلما نوَّهتُ بصوته، انثال	صدى سوطٍ، جامع الأوغاد
سوطُ تاريخ في سياسات تاريخ	مدمًّى، نارٌ بلا إخماد
كلما حاولت استماحة عذرٍ	من يد الجلاد مَضَت في العناد
أيُّ جلاد، نفيُه لي اعتباريٌّ	مصانٌ، مرحى له جلادي
ياجنونَ التاريخ في مجتبى آياته،	أعني شرَكَ الصياد
تلكمو حكمة الشرائع والأديان	حرفيًّا: شرعةُ استعباد
دونما استثناءٍ كما	سردت أحداثَه في المعاد والمستعاد
ياسماءَ الخزعبلاتِ	وأرض الشرعة السفلى ملتقى استبداد
أيُّ هَديٍ في صنعة النصب	باسم الهَدي أي باسم المستبدّالهادي؟
قيل كردٌ، وسيقَ فيهم حكايا	أين منها ملاحم الآماد!
نسبٌ في إثر سواه خليطٌ	من أباطيل القول في الترداد
أيُّ جان أبي وأمي تراها	من أبوها، أيُّ لقيطٍ(بادي3)؟
لاسليمان لي ولا أمَةَ المذكور أمي،	والسُّخف في جسَّاد4
ليس من أمٍّ لي ولا في أب لي	ما يسيد القولَ على الإنشاد
أيُّ إنسيٍّ نسبي؟ أين اسمي	مالإسمي الأعزل دون وساد؟
أنا أشكو نفسي وأشكو نفوساً	خادعت ظلّها بظل معاد
في عباد الرحمن بؤس عباد	كم قضى الرحمان شهيد العباد!
قدوتي أحفادي أنا رشد آبائي	ولكن أنا أبو أجدادي
سرُّ كينونتي بمائك محلول	وفي مضمارالتليد حصادي
أمسُكَ الماضي حاضري وغدي	أمسُك إذ أمسى مرتقي ميعادي
لي اشتقاقُ الأصل كما الغير كافي	مثلما غيري في جلاء الضاد
ذاك عدلُ التاريخ إن جاز عدلُ	في حديث الإفراد والآحاد
فلأسميها وهي غفلة اسمٍ	نهبَ اسم ألاَ اصعدي يا جيادي
يا وهاداً حرَّى بسرّ ضحايا الكرد	كُوني وتسامَي وهادي
دجلة وعدٌ إذ أقول عصوري	ياسراةَ الأسماء في إيقادي
إنها كردستانُ إسراءُ فنان	ومعراج شاعر وقاد
إنها كردستان مصعد صنديد	وسيماء ثائر دلشادي5
إنها كردستان مرحى هضاب	وسجايا مرابع وبوادي
إنها كردستان فتنة من كانوا	وأصداء لرجال شداد
إنهاكردستان أبعد من بوح يراع	ومن تعالي مبادي

إنـها كردستان وجد ومجد	**وانتشاء الجمر تحت الرماد**
إنـها كردستان ملا الجزيريِّ	**وخاني أو شئت شدو الحادي**
إنـها كردستان عتق مغان شعشعت،	**غازلت جلال جماد**
إن يكُ التاريخُ يدوِّن ما يلقى	**ويبقى تنوُّعُ الانتقاد**
فليثبِّت، هذي حروفي إذاً طيٌّ صروفي أنا	**وتلك اعتمادي**
قلت"كافٌ"! حرفي الكبيرُ التجلي ثم راء	**فبان وهج اشتدادي**
ثم "دال"، هذا أنا مفردٌ جَمعٌ مضاءٌ	**في الأرض دون نفاد**
لست أبغي طوع اسمها الفردِ اسماً	**اختيالاً يا إرم ذات العماد**
هي كرديِّتي ومسعاي	**أن يدرك غيري كرديتي في اعتيادي**
لاوصيٌّ علي لا إثم غيري	**يعتريني إذا تنادت نوادي**
إن أقُل: كرديٌّ أنا فلأنـي	**كنتُ كردياً وكفاني انوجادي**
لاوداعاً دجلةٌ بل طيبُ تجديد لقاء	**وأنت نِعمُ وِساد**
لكَ اسمي(6ava mezin) مثلما غيري	**يسمّيك، إنَّ لي معدادي**
وسلامٌ عليك نَخبُ سلامٍ في سلامٍ،	**وذاكَ أقصى اجتهادي**

توضيح

1- نهرالجنان: بحسب الميثولوجيا الإسلامية، يعتبر نهر دجلة، من أنهار الجنة.
2- مادي : نسبة إلى الميديين.
3- بادي : كلمة كردية، تعني(سيء، رديء).
4- جسَّاد:هو اسم العفريت الذي واقع إماء سليمان، وكان منه نسل الكرد، في بعض الروايات المولَّفة عن نسب الكرد تاريخياً.
5- دلشادي : كلمة كردية، تعني(مغتبط).
6- ava mezin: الاسم الكردي المتداول في منطقتنا لنهر دجلة، ويعني(الماء الكثير).

صدر عن رابطة كاوا للثقافة الكردية

- كفاح واستشهاد البطل السوفياتي الكردي فيودور ليتكين، تأليف : يورى سالنيكوف، ترجمة: بافي نازي .
- كردستان والمسألة الكردي ، تأليف : البروفيسور بافيج ، ترجمة : برو .
- لمحات من تاريخ الانتفاضات والثورات الكردية، إعداد : أبو شوقي .
- الحركة الوطنية الديموقراطية في كردستان العراق (1961 – 1968) ، تأليف: ش. ج. آشيريان، ترجمة : ولاتو .
- الجبال والسلاح ، تأليف: جيمس أولدرج، ترجمة: جوان.
- الجبال المروية بالدم ، تأليف : بافي نازي ، ترجمة : رزو .
- انتفاضة الأكراد 1880 ، تأليف: جليلي جليل، ت : سيامند سيرتي .
- قصائد من الفولكلور الكردي ، تحقيق: حاجي جندي، أورديخان جليل، جليلي جليل، ترجمة: ولاتو.
- نهضة الأكراد الثقافية والقومية (نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين)، تأليف: جليلي جليل، ترجمة: بافي نازي، ولاتو، كدر.
- كردستان تركيا بين الحربين ، البروفيسور م . أ . حسرتيان، ترجمة : د. سعد الدين ملا – بافي نازي .
- في سبيل كردستان (مذكرات زنار سلوبي) ، ترجمة : رضوان علي .
- كردستان والأكراد ، تأليف : ملا. ع . كردي .
- الأكراد ملاحظات وانطباعات، الأكراد أحفاد الميديين، تأليف: ف. ف. مينورسكي، ترجمة وتعليق: د. معروف خزندار-د. كمال مظهر أحمد.
- الأكراد شعباً وقضية ، تأليف صلاح بدر الدين.
- قواعد اللغة الكردية، رشيد كورد(بالكردية).
- بطولة الكرد في ملحمة قلعة دمدم، إعداد: جاسم جليل، ترجمة: شكور مصطفى.
- موضوعات كردية ، تأليف : صلاح بدرالدين.
- القضية الكردية والنظام العالمي الجديد، تأليف: صلاح بدرالدين.
- مدينتي الحبيبة هولير ، مدينة المتناقضات (رواية) ، حليمة السنجاري.
- البارزاني والحركة التحررية الكردية 2/1 ، تأليف : مسعود البارزاني .
- سروه (رواية) ، حليمة السنجاري .
- دراسات في تاريخ الكورد ، تأليف : د . فرهاد بيربال ، ترجمة: ترزه الجاف.
- Sev]n Desta M]rd[n] (/[rok) Xemg[n] Remo
- زنزانة كةفةر (رواية) تأيف: سلام عبدالله، ترجمة: أحمد شوكت.
- الأدب الشفاهي الكردي ، تأليف : علي الجزيري .
- غرب كردستان (دراسة تاريخية-سياسية-وثائقية)، تأليف: صلاح بدرالدين.
- Ziman] Kurd[(R]niv[s). Deham Ebdulfettah
- موجز مسيرة الصحافة الكردية في سوريا ، عبدالقادر بدرالدين .
- القضية الكردية أمام التحديات ، تأليف : صلاح بدرالدين.
- يلماز كوناي ودور السينما الوثائقية في النضال الوطني، تأليف: د. ابراهيم محمود.
- جسد لا يحتمل أعضاءه (شعر) ، مروان شيخي.

- جمعية خويبون والعلاقات الكردية – الأرمنية ، تأليف : محمد ملا أحمد.
- صلاح الدين الأيوبي (موطنه الحقيقي والدور التاريخي للأيوبيين)، تأليف: عبدالخالق سرسام .
- West Kurdistan, SELAH BEDREDIN (English)
- المدن الكردية ، آزاد ديركي .
- الكورد في دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: حميد ريبوار.
- زرادشت والزرادشتية ، رمضان الداوودي .
- تنظيم خويبون وثورة آكري ، تأليف روهات آلاكوم، مراجعة: شكور مصطفى.
- لقاء العظماء (مذكرات)، الكاردينال أ. فيليتشكي، ت: عدنان بدر الدين.
- وقائع المؤتمر التأسيس لجمعية الصداقة الكردية – العربية .
- الأصوليات الإسلامية وحقوق الإنسان ، تأليف: د . هيثم مناع .
- دراسة عن محافظة الجزيرة من النواحي القومية والاجتماعية والسياسية، (وثيقة)، الملازم الأول محمد طلب هلال.
- انتفاضة 1925 الكردية في تركيا ، د . كمال مظهر أحمد .
- كردستان في عهد السلام، د.أحمد عثمان أبو بكر.
- Kovara HAWAR, Jimar 1-57 (1932 – 1943) , Caladet Bedirxan
- Kovara RONAH[, (1942 – 1945) Celadet Bedirxan
- ROJA N~ , Rojnama Siyas[ya Aftey[(1943 – 1947) ,Kam[ran Bedirxan , 73 Jimar
- J[n , Kovara Kurd[- Tirk[(1918 – 1919) Gild: J[T[p]n Ereb[bo T[p]n Lat[n[: M. Em[n Bozarslan
- ELFABEYA KURDI Osman Sebr[
- Sev]n Desta M]rd[n] (/[rok) Xemg[n] Remo
- درةختى كفر ، سةرؤ قادر.
- ثقافة حقوق الإنسان ، إعداد وتقديم : د. عبدالحسين شعبان.
- عشائر كردستان ، مجموعة من الباحثين.
- وقائع المهرجان التضامني مع الشعب الفلسطيني.
- فعاليات الاسبوع الثقافي لرابطة كاوا للثقافة الكردية.
- فن الطبخ الكردستاني – أنور عبدالأحد السندي.
- الحركة القومية الكردية في سورية: صلاح بدر الدين.
- The Kurdish National Movement in Syria – Salah Badraddin
- بزوتنةوةى نةتةوةيى كورد لةسوريا، نووسين: سةلاح بةدرةدين، وةرطيَرانى: ميكائيل ئيبراهيم.
- ئازادى بةشةرتى كةلةثضة – محةمةد قادر.
- يادى ريَزليَنانى شوكر مستةفا، بنكةى كاوة.
- الكورد والعرب اتحاد اختياري و شراكة عادلة (بحوث نظرية)، تأليف: صلاح بدرالدين.
- سوبارتو، حليم يوسف.
- غرب كردستان الربيع الدامي، صلاح بدرالدين.
- قوربانيانى ناموس ثةرستى، ساكار ئةحمةد.
- وئاثق الملتقى الثقافي الكردي العربي.
- روودانـــــيَن ئــــارارات (بيرهـــــاتنيَ ت ئيحـــــسان نـــــورى ثاشــــا 1929-1930)- ئا/ كاوة بةيات، وةرطيَرانى: شةونم عةبدولسةلام.

- من قامشلي الى هولير ، شذرات كردية في فقه الامكنة، ابراهيم محمود.

E-Pirtûk
www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com